سلسلة الأئمة المصورة (1)

الإبداع الفكري



الإمام

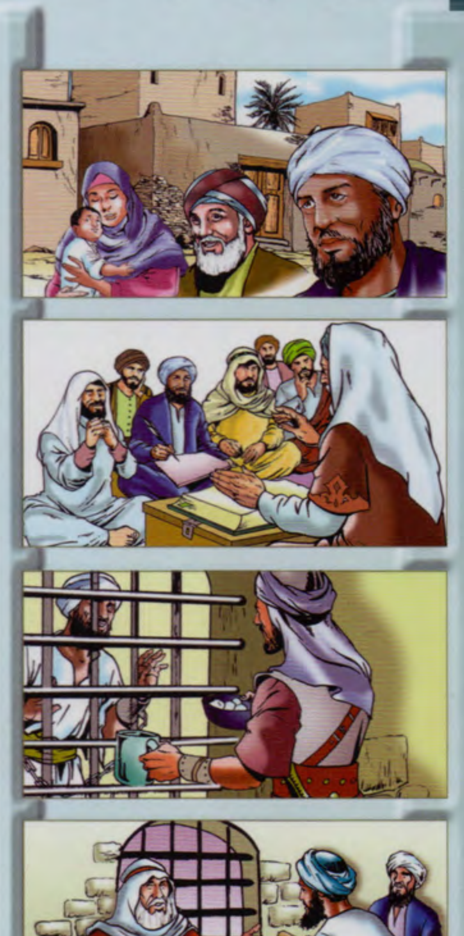
أحمد بن حنبل

السيرة المصورة

أول كتاب مصور لتاريخ الإمام أحمد بن حنبل

د. طارق السويدان

الدروس والعبر من السيرة الكاملة لحياة الإمام ومسيرته العلمية









هذا الكتاب:

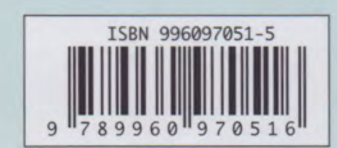
- يعرفَك بشخصية فذة فريدة كان لها أثرها في التاريخ والفقه الإسلامي وهو الإمام (أحمد بن حنبل) ويبين لك بالتفصيل كل جانب من جوانب حياته الشخصية والعامة.

- المؤلف لم يتبع الطريقة التقليدية في سرد الترجمة والتعريف إنما حلل الأحداث واستخرج العبر من كل حادثة ليخرج القارئ بفائدة علمية وايمانية من قراءة الكتاب.

- الكتاب مدعم بالكثير من الرسومات المحترفة والمبدعة لتلك الحقبة الزمنية وأشهر شخصياتها وهي مستوحاة من الأوصاف الدقيقة التي نقلها المؤرخون.

- كما وضعت عبارات ملخصة لكل فقرة تعين القارئ على سرعة الحصول على المعلومة وتثبيتها، وإن كانت لا تغني عن قراءة الكتاب كاملاً.

- لم يكن المقصود من تعريفنا بسيرة الإمام أحمد بن حنبل مجرد السرد التاريخي لكننا أردنا أن نستنهض الهمم ونحيي العلاقة بيننا وبين تراثنا الإسلامي وشخصياته العظيمة مع تفهمنا لتغير الأدوات والوسائل بتغير العصور والأزمان.


ISBN 996097051-5
9 789960 970516



الإمام أحمد بن حنبل

السيرة المصورة

الدروس والعبر من السيرة الكاملة لحياة
الإمام ومسيرته العلمية

ملحق - مقارنة فريدة بين الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى

تأليف: د. طارق محمد السويدان

مدير المشروع: أحمد علي شربجي

إعداد وتنفيذ: منى دقاق

التدقيق والمراجعة: أنس عبدالله سالم

رسومات: د. ياسر نصر

تصميم وإخراج: رمزي فيصل الهريمي

الناشر



رقم الإيداع: 1426/6831

الرقم المعياري الدولي « ردمك »: 9960-9705-1-5

شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع - الكويت

الطبعة الأولى
محرم 1427هـ
فبراير (شباط) 2006م

الطبعة الثانية
محرم 1431هـ
يناير (كانون الثاني) 2010م

الطبعة الثالثة
ذو الحجة 1432هـ
نوفمبر (تشرين الثاني) 2011م

هاتف: 22404854 - 22404883 - فاكس: 22404852

ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

للشراء الالكتروني: e-mail: info@ebdaastore.com - www.ebdaastore.com

هذا الكتاب إهداء إلى

....

....

....

....

....

....

....

إلى علمائنا الأفاضل الذين تربينا على أيديهم، ورضعنا الفكر والعلم والثقافة في جلساتهم، والذين لولاهم لم يكن مداد قلمنا اليوم ليخطّ هذه الصفحات، ولم تكن ألسنتنا لتنطق بالكلمات.

إلى مشاعل الأمة، وأبطال الحضارة، نهدي هذا الكتاب..

وإلى كل شباب أمتنا الرائعة ليستنهضوا الهمم بسيرة الإمام أحمد، وليمشوا على منوال هذا العالم الجليل العظيم...

لهم جميعاً مني هذا العمل المتواضع.

د.طارق محمد السويدان

شكر خاص



مبرة بدور الخيرية
إشراقة في ليل الحاجة

لقد كان من شأن أصحاب الأيادي البيضاء دائماً أن يساهموا في نهضة هذه الأمة، ويبذلوا الغالي والرخيص من أجل رفع مستوى ثقافتها ووعيها..

ونحن نتوجه بالشكر العميم، والدعاء الصادق، إلى الإخوة في مبرة بدور الخيرية، ونخص بالذكر الأخ الفاضل أيمن بودي وعائلته الكريمة على رعايتهم ودعمهم لهذا العمل، وهذا عهدنا بهم دائماً في دعم كل عمل مبدع لخدمة هذا الدين العظيم، راجين الله تعالى أن يثقل موازينهم، ويُعلي درجاتهم، وينفع ببذلهم وعطائهم.
والله من وراء القصد..

د. طارق السويدان



المقدمة

الحمد لله الذي أنعم على الإسلام والمسلمين بأئمة هادين مهديين، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، الذي تلقّى وحي ربه وبلّغه، حتى أكمل الله دينه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الراشدين المرشدين..

وبعـد:

لما كان الإمام الجليل أحمد بن حنبل هو رابع أئمة أهل السنة، فقد خصصنا هذا الكتاب للتعريف بشخصيته الجليلة التي اجتمع فيها كثير من شمائل صحابة رسول الله ﷺ، إن حديثنا عن الإمام أحمد يشمل جوانب حياته كلها، منذ نشأته الأولى طفلاً، ثم يافعاً، وشاباً وكهلاً، وكلها يتجه به نحو الإمامة في السنة، وبها كانت إمامته في الفقه.

فالإمام أحمد رجلُ النصف الأول من القرن الثالث، فليس من أحد في عصره بلغ من الشهرة والثقة والاعتقاد، ما بلغه، فهو أئمة في إمام؛ ذلك أنه كان ــ رحمه الله ــ: إماماً في الورع، إماماً في الزهد، إماماً في التعفف، إماماً في طريقته الفقهية، إماماً في عقيدته المحافظة، إمام أئمة الحديث في عصره، إماماً في الثبات والصبر على أشد البلاء، في سبيل إنقاذ السنة وصونها والدفاع عنها، فهو الجبل الراسخ لا تُزعزعه الأهواء، ولا تميد به العاصفات، وهو الرباني الذي أجمع علماء عصره على أنه القدوة الثابتة التي تأطِر الناس إلى رسالة الله، لا عوج فيها، وإلى ما كان عليه العمل في عهد رسول الله ﷺ وصحابته ــ رضي الله عنهم ــ ومن بعدهم من التابعين..

إن معالم شخصية الإمام أحمد تشع نوراً، وتفيض بركة، وتتفجر علماً، وتتدفق ورعاً، وتسمو تواضعاً، وتجلّ اعتزازاً بكلمة الله، وتصمد دفاعاً عن سنة رسوله..

لقد ابتُلي الإمام أحمد فأحسن البلاء، وصقلت نفسه، وفُتن بالشديدة والكريهة، فخرج منها كما يخرج الذهب من الكير، وقد صفا وطهر من كل شائبة غريبة عنه، فكان رَمزاً للمحافظين على سلامة العقيدة، المدافعين عن سنة صاحب الرسالة، عليه أطيب وأتم التسليم..

كان الإمام أحمد رجلاً صالحاً، تلك هي الكلمة الصادقة التي رددتها الأقطار الإسلامية، والإمام حيّ، ثم سجلها التاريخ بعد ذلك للأجيال، وهي التي توارثها الناس من بعده مكشوفة غير مستورة، وهي المفتاح الذي يكشف صورة

الإمام فهو المحدِّث، لأنه الرجل الصالح، وهو الفقيه الذي غلب وصفه بالصلاح وصفَه بالفقه، بل إن صلاحه كان يمنعه من السير في فقهه إلى أقصى مداه، فكان يتوقف حيث يسير غيره، ويتردد حيث يجزم سواه، ويسكت عن الفتيا حيث يسارع من هو دونه؛ ولذلك طغت على فقهه نزعته إلى التحديث، ووقوفه عند الأثر، حتى لقد حسبه بعض العلماء السابقين محدِّثاً وليس فقيهاً..

وبعد، فإني آمل أن أكون قد صادفت بعض التوفيق في تعريف المسلمين بواحد من أعظم أئمتهم علماً وورعاً، وتقىً وتواضعاً، وجرأة في الحق، وحرباً على الباطل، واستمساكاً بالسنة الشريفة، هو الإمام أحمد بن حنبل..

وأتقدم بخالص الشكر لكل من ساهم أو يسر في اصدار هذا الكتاب وأخص بالذكر شركة الإبداع الفكري على الإخراج الرائع والمتابعة المستمرة حتى ظهر بهذه الصورة غير المسبوقة لسيرة أي رمز في تاريخنا العظيم، وأخص بالذكر منهم الأخت الكريمة منى دقاق التي أعادت صياغة هذا الكتاب بروعة وجمال أسلوبها المتقن والفريد، كما أشكر الأخ الدكتور ياسر نصر على الرسومات الرائعة والمعبرة، والتي أفرغ من أجلها جهداً ووقتاً ليس بالقليل، وضاهت لوحاته المعبرة ريشة أكثر الفنانين والرسامين، كما يجدر بالذكر أن رسوم الأشخاص مستوحات من الوصف الحقيقي الوارد في تراجم الرجال في كتب التاريخ والتراجم، وليكون هذا الجهد أول عمل من نوعه يوثق حياة عظماء الأمة الإسلامية بالصورة والتعبير الشخصي، وقد أفتى العلماء جزاهم الله خيرا بجواز استخدام هذه الرسوم للتعليم والإرشاد والتدريس، واستقطاب القراء خصوصاً من فئة الشباب، ولا يخفى على أحد اليوم، أن فئة الشباب القراء قد انخفضت إلى مستويات متدنية، وجاءت الكتب بهذه الطريقة لتدفعهم من جديد نحو الرغبة في القراءة والمطالعة المفيدة، ونرجو الله تعالى أن يحقق هدفنا في ذلك.

وقد وضعنا في صفحات هذا الكتاب عبارات ملخصة لكل فقرة بخط أكبر قليلاً، فيمكن قراءة هذه الخلاصات بسرعة للحصول على المعلومات وإن كانت لا تغني عن قراءة الكتاب بأجمعه، وأما من يقرأ كل الكتاب فلا حاجة له أن يقرأ هذه الخلاصات القصيرة.

أسأل الله أن يتقبل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم، وأن يمن علينا بالتوفيق والسداد، ويجنبنا مزالق الخطأ ومهاوي الزلل، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير؛ وهو نعم المولى ونعم النصير..

د. طارق محمد السويدان

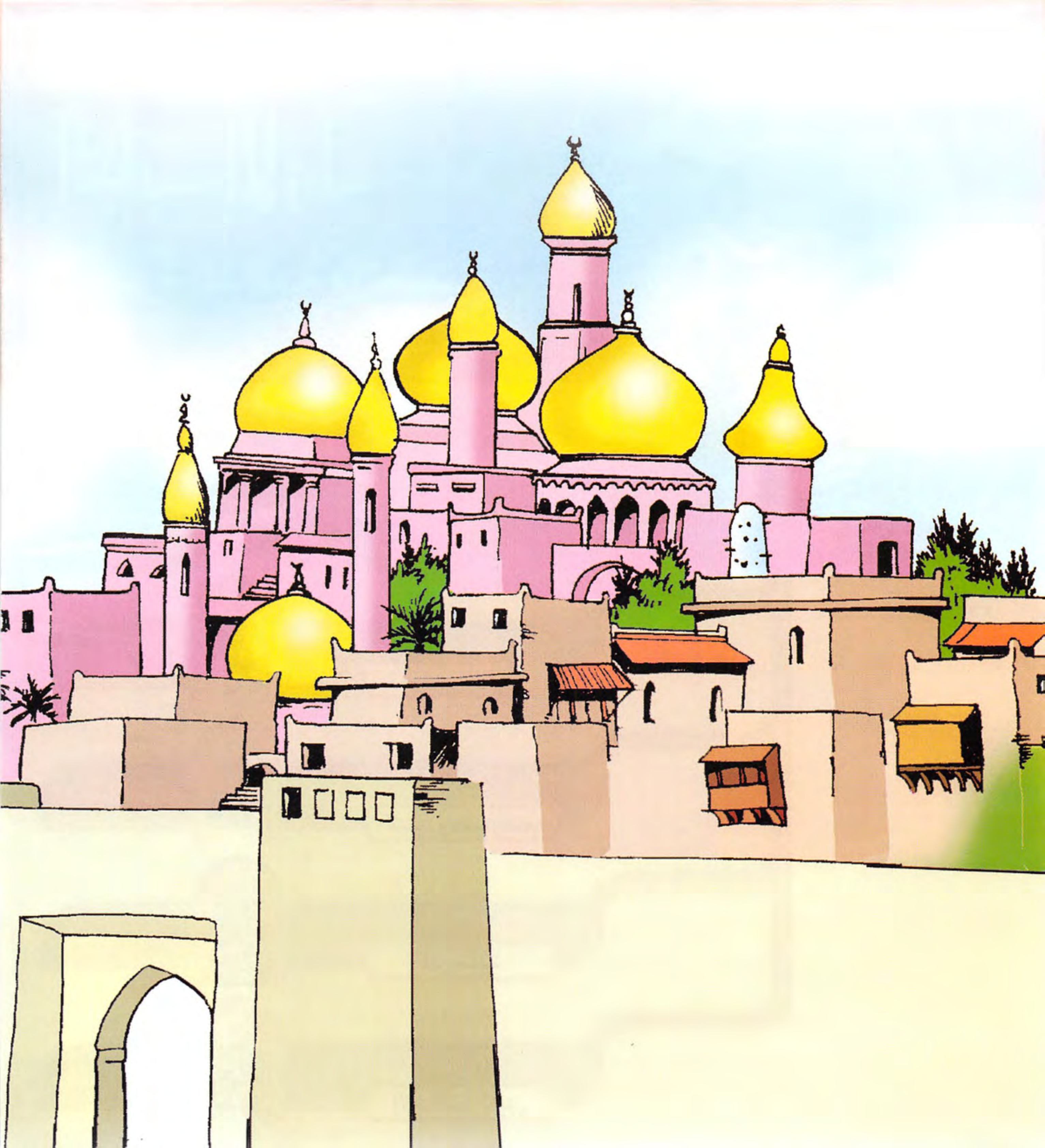
الفهرس

الفهرس



الفهرس

الباب الأول
السيرة الذاتية والعلمية



الباب الأول
السيرة الذاتية والعلمية

الفصل الأول

أسرة ابن حنبل



- المولد والنسب
- أبوه
- جده
- قبيلته
- والدة أحمد

١ المولد والنسب

في سنة ١٦٤ بعد الهجرة، وفي شهر ربيع الأول، أنعم الله على أمة المسلمين بمولد طفل من بني شيبان؛ **هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله.. بن شيبان بن ذُهْل..**

وقد وُلد أحمد ببغداد، وجاءت أمه حاملاً به من مرو التي كان بها أبوه، وقيل إنها ولدته بمرو، ولكن الصحيح أنه وُلد ببغداد، وحملت به في مرو..

وهو عربي النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه، إذ ينتهيان إلى قبيلة شيبان، وهي قبلية ربعية عدنانية، تلتقي مع النبي ﷺ (في نزار بن معد بن عدنان..).

أحمد بن محمد بن حنبل عربيٌّ خالص من بني شيبان، ولد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ، في بغداد.

٢ أبوه

أبوه هو محمد بن حنبل بن هلال، فارس من فرسان المسلمين، كان يلبس ملابس الغزاة، فقد كان جندياً كشأن كثير من المسلمين في ذلك العصر، يكونون حُماة وغزاة، وقال الأصمعي: إنه كان قائداً، غير أن أحمد الطفل النابه لم يُكتب له ما يُكتب للكثرة الوافرة من الأطفال؛ أن ينعم برعاية الأب وحنانه، فقد مات القائد الشاب وهو في الثلاثين من عمره، قبل أن يملأ ناظريه من وليده الصغير، الذي سوف يصبح واحداً من أشهر رجال الإسلام؛ بل واحداً من القمم الشامخة في عالم الإسلام، وفي دنيا الإنسان..

والد الإمام أحمد

يقول الإمام أحمد: لم أرَ جدي ولا أبي.. فقد شبّ يتيماً، مثله في ذلك مثل أستاذه الإمام الشافعي..

نشأ أحمد يتيماً، وكان أبوه فارساً مات وهو شاب في الثلاثين، قبل أن يُمتّع ناظريه بوليده.

الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

٣ جــــده

جده حنبل بن هلال بن أسد، كان بحكم قبيلته ولياقته واحداً من رجال الدولة المرموقين، فقد كان والياً على مدينة سرخس وما حولها من أرض خراسان، ولم يكن مجرد والٍ وحسب، بل كان ذا نشاط فعّال في مجريات الأمور، وإسهام مؤثّر في أخطر التحولات السياسية في دنيا المسلمين؛ ونعني بذلك الاشتراك في إسقاط دولة بني أمية، وإنشاء دولة بني العباس؛ فقد وُصف حنبل بأنه واحد من أبناء الدعوة؛ والمقصود بالدعوة هنا، الدعوة العباسية.

حنبل بن هلال جد الإمام من رجال الدولة العباسية المرموقين ووالي سرخس فيها..

٤ قبيلتــه

قلنا إن الإمام أحمد شيباني ربعي نزاري، ولقد اشتهرت شيبان بالهمة، والصبر وحسن البلاء في الجاهلية والإسلام، حتى كانت أبرز القبائل الربعية وفخرها، ولقد قيل: إذا كنتَ في ربيعة فكاثر بشيبان، وفاخر بشيبان، وحارب بشيبان..

فشيبان في الجاهلية والإسلام أكثر القبائل الربعية عدداً، وأعزها نفراً، وأعظمها مآثر..

شيبان التي ينتمي إليها الإمام أحمد من أشهر القبائل الربعية وأعظمها في الجاهلية والإسلام.

حنبل بن هلال جد الإمام أحمد

أشهر أجداده

إن المرء يُنسب دائماً إلى أشهر أجداده، سواء أكان هذا الجد قريباً أم بعيداً؛ فالإمام مالك على سبيل المثال نُسبَ إلى جده البعيد (ذي أصبح) اليعربي القحطاني، ومن ثم كان يلقب بالأصبحي، ذلك أن ذا أصبح واسمه الحارث بن عوف بن مالك كان سيّد قومه، وهو الجد السابع للإمام مالك. ونجد الإمام محمداً بن إدريس الشافعي يُنسَب إلى جده الثالث، واسمه شافع بن السائب..

فإذا كان الأمر متعلقاً بالإمام أحمد، فإننا نجده منسوباً إلى جده الأول - أي والد أبيه - حنبل؛ لأنه كان ذا شأن في الحكم، ومن ثم عُرف بالإمام أحمد بن حنبل، وصارت النسبة إليه بلفظ: (حنبلي)، تماماً مثل الأصبحي فيما يتصل بمالك، والشافعي فيما يتصل بمحمد بن إدريس..

يُنسب الإمام أحمد إلى جده حنبل لشهرته ومكانته كما نسب الشافعي لجده.



المثنى فارس شيباني

أما بنو شيبان في الإسلام فكانوا ذوي همة مشرفة، وصورة مشرقة، فما أن تبدأ الفتوح الإسلامية الباكرة في خلافة الصدّيق أبي بكر (حتى يبرز فارس شيباني هو المثنى بن حارثة، فيبلي البلاء الحسن، ويقود الجيوش الإسلامية الظافرة عند الهجوم على العراق، ويتناقل المسلمون والفرس أخباره، وكان أبو بكر لا يعرفه، فقد أسلم المثنى متأخراً في العام التاسع من الهجرة..

يقول أبو بكر : **مَنْ هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟!**

فيقول قيس بن عاصم مجيباً أبا بكر في شأن المثنى: **أما إنه غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا قليل العدد، ولا ذليل الغارة؛ ذلك المثنى بن حارثة الشيباني..**

إن حديث المثنى بن حارثة الشيباني القائد الفارس، حديث طويل ليس هنا مكانه، ولكن الذي نحب أن نشير إليه؛ أنه واحد من ثمار الشجرة السامقة التي ينتسب إليها إمام المسلمين أحمد بن حنبل..

المثنى بن حارثة الشيباني الفارس المشهور

المثنى بن حارثة فارس شيباني، من قادة فتح العراق في خلافة الصديق ، وأبلى بلاءً حسناً..

منازل شيبان

فأما منازل بني شيبان في الإسلام، فكانت البصرة مساكنهم، وكانت أسرة أحمد، وأسرة أمه تنزل بتلك المدينة وبيدائها، وحين كبر أحمد واشتدّ عوده، وأخذ يتردد على الأمصار طلباً للعلم، كان يزور البصرة، فإذا نزل بها، صلّى في مسجد فيها يُعرف بمسجد مازن، وهم من بني شيبان، فلما سُئل عن ذلك قال: إنه مسجد آبائي..

كانت منازل بني شيبان بالبصرة، وكان أحمد إذا زارها يصلي في مسجد مازن، مسجد آبائه فيها..

٥ والدة أحمد

إنها

صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك بن شيبان، فهي شيبانية، وليست من عامة شيبان؛ وإنما هي حفيدة لواحد من سادتهم هو عبد الملك بن سوادة بن هند الشيباني، الذي كان من وجوه بني عامر، عاشتْ في كنفه، ورُبيت في رعايته، وكان كريماً مضيافاً، تنزل عليه قبائل العرب فيضيفهم. وكان محمد بن حنبل والد أحمد نزل بهم، فتزوج صفية، تلك المرأة الطاهرة الباذلة، التي أهدت أحمد بن حنبل إلى دنيا المؤمنين، وعالم الموحدين.

صفية بنت ميمونة والدة الإمام أحمد، من بني شيبان أيضاً، فأحمد شيباني النسب من جهة الأب والأم..

وهبته حياتها

لقد وهبت صفية حياتها كلها لطفلها اليتيم، واختارت من أجله الترمل في سن الشباب نهجاً لحياتها، وقد كان الكثيرات من نساء العرب يفضلن الزواج إذا مات الزوج، صوناً للعفة وحفاظاً على السمعة، بل إنه كان من الأمور المتعارَف عليها أن تتزوج المرأة إذا ترملت أو طلقت، أما صفية - والطهر أصيل في أردانها، والعفة ركن من بنيانها - فقد منحت شبابها لوليدها، ذلك أنها كانت دون الثلاثين حين مات زوجها، فملأت على ولدها حياته أنساً وحناناً..

ترملت صفية وهي دون الثلاثين، فآثرت طفلها اليتيم على نفسها، ولم تتزوج وتفرغت لتربية ابنها..

والدة أحمد بن حنبل (صفية) تحمله وهو طفل صغير

أمّان فاضلتان

إننا نرى تشابهاً كبيراً بين والدة الشافعي ووالدة أحمد؛ إن والدة أحمد ترملت وهي شابة، وتفرغت للعناية بصغيرها، وكذلك فعلت والدة الشافعي، وكانت هي الأخرى في ربيع شبابها، وإن والدة أحمد اختارت لولدها العلم نهجاً وسبيلاً، وكذلك فعلت والدة الشافعي حين تركت غزة، واتجهت به إلى مكة.

وكان أحمد وحيداً بلا أخ أو أخت، وكذلك كان الشافعي، ومع ذلك فإن كل واحدة من السيدتين الفاضلتين وهبت حياتها كاملة لولدها، فكانت ثمرة هذه العناية أن صار كل منهما واحداً من أئمة البشرية..

تشابه كبير بين أحمد والشافعي فكلاهما عالم عظيم نشأ يتيماً ووحيداً تفرغت أمه لتربيته، واختارت له العلم نهجاً وسبيلاً، فصارا من أئمة البشرية.

الابن البــار

كان أحمد حتى بعد أن كبر، لا يخفى أثر أمه في سلوكه، وشأن البررة من الأبناء كان أحمد يطيع توجيهاتها، ويخشى مخالفتها، ولا يأتي عملاً يظن أنها تعترض عليه، بل إنها كانت إذا رأته يمعن في الاستيقاظ من نومه مبكراً، ويغادر البيت إلى حيث يدرس، أمسكت بثيابه طالبة منه الانتظار حتى يؤذن للناس، أو حتى يصبحوا، ويذهب أحمد في طاعة أمه، والحرص على رضاها مذهباً بعيداً، حتى إنه رفض عبور دجلة من شاطئه الغربي إلى شاطئه الشرقي إبان فيضانه؛ ليسمع مع إخوانه من جرير بن عبد الحميد، عالم الري، ولما خاطبه أترابه في ذلك أجاب: إن أمي لا تدعني.. وكان عمره عندئذ اثنتين وعشرين سنة..



والـدة الإمــام أحمـد تنصحه وترشده

فإذا عرفنا أن الإمام ابن حنبل لم يتزوج قبل سن الأربعين، أدركنا أن السبب في ذلك هو ما هيأته له أمه من سبيل العناية وغامر الاهتمام، وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد في أي سنة توفيت صفية الشيبانية الأم العظيمة، لذلك الإمام العظيم..

صفية والدة أحمد هي التي ربته وكان لها مطيعاً وباراً وحريصاً على رضاها.

الباب الأول
السيرة الذاتية والعلمية

الفصل الثاني



النشأة وطلب العلم

- التكوين النفسي
- التربية والتوجه للعلم
- ذكاؤه واستقامته
- اتجاهه إلى الحديث

١ التكوين النفسي

وُلد أحمد التقي الورع من أبوين عربيين كريمين، وجرى في عروقه ذلك الدم الأبي الكريم، وورث عن أسرته عزة النفس، وقوة العزم، والصبر واحتمال المكاره، والإيمان القوي الراسخ، وكان ذلك كله ينمو كلما شبّ وترعرع، ويتبين في سجاياه كلما عركته الحوادث، وأصابته نيران الفتن..

ولقد هيأ الله لهذه السجايا الموروثة أن تنمو، وأن تقوى، إذ أمدها بالجو النفسي الذي تتنفس فيه وتتغذى من طيب هوائه، وصقلها بالتجارب التي جلت الصدأ الذي يعرض للنفوس بسبب سيطرة البيئات، ثم هداها إلى النزوع الفكري والنفسي الذي يوائمها ولا يناهضها..

وذلك أنه لم يكد يرى نور الوجود؛ حتى رأى أنه وحيد فيه، فقد فَقَد أباه، ورعته أمه، وقامت على تربيته في ظل الباقي من أسرة أبيه، ولم يتركه أبوه فقيراً يطلب المعونة؛ بل ترك له ببغداد عقاراً يسكنه، وآخر يدر عليه دخلاً صغيراً، يعطيه الحد الأدنى من العيش، ولم يعطه هذا الدخل رفاهة العيش ولينه، وبسط الرزق ويساره، فاجتمع له بذلك الدخل الصغير أسباب الاستغناء عما في أيدي الناس..

ورث أحمد عن أسرته عزة النفس، وقوة العزم.. وكان لديه دخل بسيط يغنيه عن الناس..

الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

خمسة تؤدي للمعالي

اجتمع لأحمد بهذا النسب، وهذه الحال التي آل إليها أمره وهو صبي في المهد، وبما كان له من ميل نفسي من بعد؛ خمسة أمور لم تجتمع لشخص إلا سارت به إلى العلا، والسمو النفسي، والبعد عن سفساف الأمور، والاتجاه إلى معاليها..

تلك الأمور هي:

١- شرف النسب والحسب..

٢- واليتم الذي ينشئه منذ فجر الصبا، معتمداً على نفسه، وتدبيره وبلائه..

٣- وحال من الفقر غير المقدع، لا تضام وتُهان به النفس، فلا يبطرها النعيم، ولا تصاب بطراوة الترف، ولا يذلها الفقر، ولا تلقي الحاجة والفقر أنفها في التراب..

٤- قناعة ونزوع إلى العلا الفكري بتقوى الله سبحانه وتعالى، وعدم الشعور بقوة لسواه

٥- والتقى هذا بعقل ذكي وفكر ألمعي..

خمسة تؤدي للمعالي:
١- نسب ٢- ويتم ٣- وفقر ٤- وقناعة ٥- وعقل..

تشابهٌ غريب

كان أحمد في هذه الأمور كشيخه الشافعي: نسب رفيع، ويتم، وحال من الفقر الذي يجد فيه الكفاف، ولا يشعر معه بالحاجة، وهمة عالية، ونفس أبية، وعقل ذكي أريب، ولقد تشابهت نشأة التلميذ والأستاذ تشابهاً غريباً، فكلاهما كان بهذه الأحوال التي ذكرناها، وكلاهما كانت له أم ترأمه وتدفعه إلى العلا، وتكنف مواهبه لتزكو وتنمو، ولا تجعلها تنطفئ أو تخبو..

تشابه أحمد والشافعي في اجتماع أسباب المعالي الخمسة فيهما مع أم توجه وتربي..

وقد أثرت هذه الأحوال في نفس أحمد وتربيته، كما أثرت من قبل في نفس الشافعي وتربيته، إن النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ ينشأ على خلق قويم، ومسلك كريم، إن انتفت الموانع، ولم يكن ثمة شذوذ؛ ذلك بأن علو النسب يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره يتجه إلى معالي الأمور، ويتجافى عن سفسافها، ويترفع عن الدنايا، فلا يصيب الفقر نفسه بذل، ولا يطأطأ عن ضعة، ولا يرضى بالدنية، ويسعى إلى المجد بهمة وجلد، ليرفع خسيسة الفقر، ثم إن نشأته فقيراً مع ذلك الطموح والإحساس بشرف النسب، يجعله يحس بإحساس الناس، ويندمج في أوساطهم، ويتعرف خبيئة نفوسهم، ودخائل مجتمعهم، ويشعر بشعورهم، وذلك ضروري لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالمجتمع، وما يتصل به في معاملاته، وتنظيم أحواله، وتوثيق علائقه، وإن تفسير الشريعة، واستخراج حقائقها والكشف عن موازينها، ومقاييسها، يتطلب معرفة تامة بجميع ذلك.

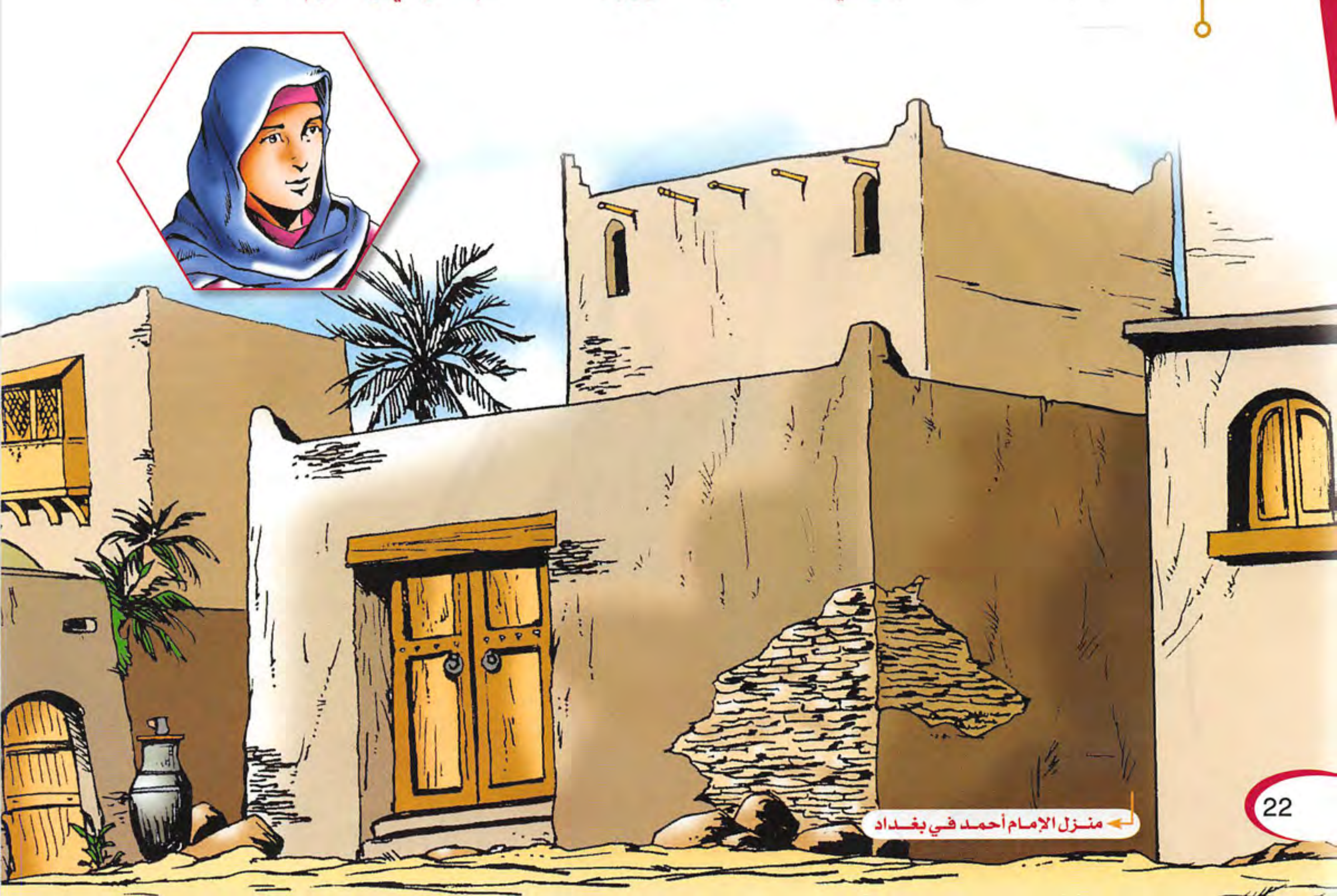


الإمام محمد بن إدريس الشافعي شيخ الإمام أحمد

٢ التربية والتوجه للعلم

نشأ الإمام أحمد ببغداد، وتربّى بها تربيته الأولى، وقد كانت تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع الفنون والمعارف؛ فيها القراء والمحدِّثون، والمتصوفة، وعلماء اللغة، والفلاسفة، والحكماء، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامي، وقد توافر فيها ما توافر في حواضر العالم، من تنوع المسالك، وتعدد السبل، وتنازع المشارب ومختلف العلوم، وقد اختارت أم أحمد له منذ صباه، أن يكون عالماً بالدين الذي يتوفر له، ويعكف عليه، ويتخذ له كل العلوم الممهدة له، من علم اللغة والحديث، والقرآن، ومآثر الصحابة والتابعين، وأحوال الرسول ﷺ وسيرته، وسيرة أوليائه الأقربين الذين اختصوا بطول الصحبة، وفقه الدين ولب اليقين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وقد اتفقت هذه التربية، أو هذا التوجيه مع ميوله النفسي، وما كانت تصبو إليه نفسه من غايات..

تربى الإمام أحمد تربيته الأولى في العاصمة بغداد، ووجهته أمه للعلم الشرعي والعلوم الممهدة له..



منزل الإمام أحمد في بغداد

تميز منذ الصغر

كان الصبي الصغير أحمد بن حنبل، قد اتجه إلى حفظ القرآن الكريم منذ نشأته الأولى، فاستحفظه كله، وظهرت عليه الألمعية مع الأمانة والتقى، فكان الغلام التقي بين الغلمان.

وتعلَّم اللغة شأن كل أبناء المسلمين في طفولتهم.

ولكن أحمد لم يكن يكتفي بالقدر الذي يتعلمه في الكتّاب في الصباح، وإنما كان يذهب إلى الديوان في المساء، وذلك حين اشتد عوده؛ لكي يروض نفسه على تجويد الكتابة وإتقانها، وقد ساعده على ذلك أن عمه كان يعمل في أحد الدواوين، ولقد قال في ذلك: "كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتّاب، ثم اختلفتُ إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة".

حفظ القرآن الكريم وهو صغير، وتعلَّم اللغة، وتدرب على التأليف والكتابة والخط..

٣ ذكاؤه واستقامته

كان أحمد - ذلك الصبي الصغير - يرعى الله ويخشاه، وكأنه رجل كبير، لقد كان أحمد يعيش طفولته في عصر هارون الرشيد، وكان الرشيد كثير الإقامة في الرقة، التي اتخذ منها مصيفاً ومنتجعاً، وكان جنده البغداديون يصاحبونه في رحلاته تلك، ومن هناك يكتبون لزوجاتهم في بغداد، فكان بعض هؤلاء الزوجات يلجأن إلى أحمد ليقرأ لهن كتب أزواجهن، ويكتب لهن الردود، فكان لا يكتب ما يراه منكراً من القول..

ولقد كان أحمد الصغير مثلاً للخلق والدين والاستقامة بين أترابه من الغلمان، وكان الآباء من الأغنياء ينظرون إلى هذا الغلام الفقير مالاً، الغني بأخلاقه وأدبه، ويتخذونه قدوة لأبنائهم، حتى لقد قال بعض الآباء: "أنا أنفق على ولدي، وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم! انظروا كيف؟! وجعل يتعجب من أدبه وحسن طريقته".

ظهرت آثار الذكاء والاستقامة على أحمد منذ صغره، واتخذه الآباء قدوة لأبنائهم..



غلام يتورع

لم يكن التزام أحمد الصغير جانب التقوى موقوفاً على عمل بذاته، وإنما كان يتحرى النقاء والاستقامة في كل أمر يقوم به، وفي كل شأن يكلف بإتيانه..

ويروى في هذا السبيل: أن عمّاً له كان يراسل أحد الولاة بأخبار بغداد إذا غاب الخليفة عنها، حتى يرفعها إليه ليكون الخليفة على علم متتابع بما يجري في عاصمته، ثم توقفت الرسائل بعض الوقت، فلما عاد الوالي إلى بغداد خاطب عمّ أحمد في ذلك، فقال له: لقد كنت أبعث بها مع أحمد ابن أخي.. ثم أحضر أحمد لكي يستشهد به على صدق قوله، ويستفسر منه على مصير تلك الأخبار، ولكن أحمد يعترف بتسلمه هذه (التقارير) ويقول لعمه فيما يشبه الاستنكار: أنا أرفع مثل تلك الأخبار؟! لقد رميتُ بها في الماء!

وهنا يردد الوالي: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ثم يقول فيما يشبه الاستغراب والأسف: هذا غلام يتورع،

فكيف نحن؟!

إذا كان الطفل الصغير، هو مشروع الرجل الكبير في المستقبل، والنواة الصغيرة في مطويها الشجرة الكبيرة، فكذلك كان ذلك الغلام اليتيم أحمد بن محمد بن حنبل، الذي كان يمتنع عن كتابة ما يوجب الورع ألا يكتبه، ويمتنع عن إرسال كتاب لعمه يرى أن الصلاح في عدم إرساله لأن رضا الله فيه ليس خالصاً، بل رضا السلطان هو المقصود الأول، فكان ذلك الغلام هو الذي يطوي في نفسه سجايا ذلك الإمام..

كان أحمد يتحرى النقاء والاستقامة في كل أمر يقوم به، وفي كل شأن يكلف بإتيانه.. وكان يمتنع عن كتابة ما يوجب الورع ألا يكتبه، كل ذلك وهو لا يزال غلاماً صغيراً..

غلام لا كالغلمان

اشتهر الغلام أحمد بين الأقران بالتقوى، والعناية بعمله، والصبر والجد، واحتمال ما يكره، فلم يكن الغلام الذي تستغرقه ميعة الصبا، ورعونة الصبيان؛ بل كان الرجل الكامل، وإن كانت السن سن الصبيان، ولعلّ ذلك من فرط اعتماده على نفسه صغيراً، وإحساسه بالاستقلال النفسي منذ طفولته، ولقد استرعت هذه الصفات نظر العلماء الذين اتصل بهم في ذلك العقد، حتى لقد قال فيه الهيثم بن جميل، الإمام، الفقيه، الحافظ: "إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه"..

ويظهر أن هذه النبوءة، وهذه الفراسة قد تحققت، فقد عاش الفتى، حتى اكتملت رجولته، ووصل إلى السابعة والسبعين، وكان حجة ونوراً لأهل زمانه؛ بعلمه وخلقه، وورعه وصبره، وقوة احتماله، واستهانته بالأذى في سبيل ما يعتقد..

استرعى أحمد نظر العلماء منذ كان صغيراً، فلم يكن الغلام الذي تستغرقه ميعة الصبا؛ بل كان الرجل الكامل، وإن كان في سن الصبيان، واشتهر بين أقرانه بالصبر، والجد، والتقوى..

٤ اتجاهه إلى الحديث

شبّ أحمد عن الطوق، وكان يتجه إلى العلم، وجهته أسرته إليه، واستقام ذلك التوجيه مع نزوعه الخاص، وبذلك تلاقت ميوله مع الوجهة التي وجه إليها، وكانت بغداد فيها علوم الدين واللغة، والرياضة والفلسفة، والتصوف، وكل هذه الأشجار قطوفها دانية، فكان لا بد أن يقطف أحمد منها، وإن الذي يتفق مع النشأة الأولى هي علوم الدين، لا ريب في ذلك، وما تمهد إليه؛ لذلك علم علوم اللغة باعتبارها طريق علوم الدين؛ كما كان الشأن في ذلك العصر، وكما هو المعقول في ذاته.

وإذا كان بين يديه أن يختار من علوم الشريعة؛ فهو إما أن يختار مسلك الفقهاء، وإما أن يختار أن يكون راوياً من رواة الحديث، وحافظاً من حفاظه، فقد ابتدأت الطريقتان تتميزان في عصره، وابتدأ العلمان ينفصلان؛ علم الفقه واستخراج الفتاوى والأقضية، وعلم الرواية وتمييز الرواة، وإعداد المادة للفقهاء، لتكون بين أيديهم كالمادة الطبية بين الأطباء، يعدها لهم الصيادلة؛ كما قال الأعمش المحدِّث لأبي حنيفة الفقيه، ولقد كان في العراق المنزعان، فأيهما يختار أحمد، وكلا الموردين صافي المنهل عذب..

كان في بغداد فقه العراق، وقد دونه أبو يوسف ومحمد، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وغيرهم.. وكان في بغداد المحدّثون والحفاظ..

توفرت في بغداد علوم الدين واللغة والفلسفة وغيرها، وكانت أشجاراً قطوفها دانية، فلا بدّ أن يقطف أحمد منها، وقد بدأ علم الفقه، وعلم الرواية ينفصلان في عصره، فهو إما أن يختار مسلك المحدِّثين، وإما مسلك الفقهاء..

بين الحديث والفقه

اختار أحمد في صدر حياته أن يكون محدِّثاً يروي الحديث ويدونه، ويحمله غيره من بعده؛ ولم يكن اختياره للحديث من غير بينة؛ بل إنه اتجه ابتداء إلى الفقه الجامع بين الرواية والدراية، وأخذ عن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، وقاضي الدولة الأكبر في ذلك الوقت، ولكنه مال إلى حديثه، ولم يمل إلى فقهه، ولذا قال: "أول من كتبت عنه الحديث: أبو يوسف"، أي أنه تلقى عن أبي يوسف الحديث، وذاق منه الفقه؛ فلم يكن انصرافه إلى الحديث انصرافاً قطعه عن الاطّلاع على ما أنتجته عقول الفقهاء العراقيين، من فتاوى وأقضية وتخريج، بل إنه قد اطّلع عليها، ولكن لم تكن همته إليها، ولم تكن بغيته نحوها، وإن كان الاطّلاع عليها أمراً له ثمراته في علم الدين،

جاء في تاريخ الحافظ الذهبي: قال الخلال: "كان أحمد قد كَتَب كُتُب الرأي وحفظها، ثم لم يلتفت إليها"..

اتجه أحمد بداية إلى الحديث، وأخذ عن أبي يوسف القاضي، وقد اطّلع على آراء الفقهاء العراقيين، ولكن لم تكن همته إليها، ولا بغيته نحوها.

أحمد والرأي

ابتدأ

أحمد من أنواع الفقه بفقه الرأي والنظر العقلي، وهو الفقه الذي كان يسود العراق، بدليل أنه تلقى أول الحديث عن أبي يوسف، وهو من فقهاء الرأي ذوي القدم الثابتة فيه، ثم اتجه إلى الحديث، ولما استكمل تكوينه العلمي درس فقه الرأي، دراسة فاحص، ناقد، يوازن بين ما انتهى إليه من علم الحديث، وما وصل إليه أولئك الفقهاء من تفريع فقهي، فاختار طريق الصحابة والتابعين، وإن كان قد قبس قبسة من فقه الرأي، وبذلك يكون حفظه لكتب أهل الرأي (على حد تعبير الخلال)، أو معرفته لما وصل إليه أهل الرأي (على حد التعبير العلمي الصحيح)، أمراً مقبولاً معقولاً..

بعدما استكمل أحمد تكوينه العلمي، درس فقه الرأي دراسة فاحص ناقد، يوازن بين الحديث والفقه، وقد اختار طريق الصحابة والتابعين..

القاضي أبو يوسف

الباب الأول

السيرة الذاتية والعلمية

الفصل الثالث



الرَّحّالة

- البداية في بغداد
- الرحلات الخارجية
- التدوين والكتابة
- إلى الفقه

١ البداية في بغداد

طلب أحمد - رحمه الله - في فجر شبابه الحديث، وكان المحدِّثون منتشرين في كل بقاع الأراضي الإسلامية، ففي البصرة محدثون، وفي الكوفة مثلهم، وبغداد قصبة الدولة كان فيها الكثير منهم، وبلاد الحجاز تزخر بهم، وقد التقت المدائن والأمصار، التقاء علمياً في ذلك العصر، فلم تكن ثمة محاجزات إقليمية تجعل كل طائفة عاكفة على حديث بلدها، لا تقبل رواية غيره، بل كانت الرحلة العلمية المستمرة بين الربوع الإسلامية تصل حبال العلم، وتجمع قريبه ببعيده.

وعندما اعتزم أحمد في مستهل شبابه طلب الحديث كان لا بد أن يأخذ عن كل علماء الحديث في العراق والشام والحجاز؛ ولعلَّه أول محدِّث قد جمع الأحاديث من كل الأقاليم، ودوَّنها، وإن مسنده لشاهد صادق الشهادة بذلك، فهو قد جمع الحديث الحجازي، والشامي، والبصري، والكوفي، جمعاً متناسباً..

كان المحدِّثون منتشرين في كل الأراضي الإسلامية؛ في العراق والحجاز والشام.. وإذ اعتزم أحمد في فجر شبابه طلب الحديث؛ فلا بد أن يأخذ عن كل علماء الحديث، فكان بذلك أول محدِّث جمع الأحاديث في كل الأقاليم..



في طلب الحديث



أحمد بن حنبل خادم أمين لحديث رسول الله ﷺ، فهو القائل: من أراد الحديث خدمه، وخدمة الحديث طلبه، وقيل له: ما خدمة الحديث؟ قال: النظر فيه..

لقد كانت الرحلة في طلب الحديث، تقليداً علمياً، بل هي المنهج السليم الأمين في طلبه، وقد عُرف رجال الحديث جميعاً بالرحلة في طلبه؛ جابوا في ذلك البلاد شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً، وطوّفوا في الأمصار، وسعوا في الآفاق، وكان أحمد بن حنبل هو أول من طوّف في البلاد، وجاب الأمصار، طلباً للحديث؛ ففي العراق ذهب عدة مرات إلى واسط، ثم الكوفة، والبصرة، لسماع علماء المصرين، وذهب إلى الحجاز حاجّاً، طالباً للعلم، مستمعاً للحديث خمس مرات، منهن ثلاث ماشياً، وذهب إلى اليمن ماشياً، ورحل إلى الشام وطرطوس ماشياً، ولقي في أسفاره هذه من المشقة ما لقي، وصادف من المتاعب ما صادف، فمرة تُسرَق ملابسه فيجلس حبيس البيت حتى تنفرج الكربة، وينفد مالُه مرة أخرى، وهو في طريقه إلى اليمن، فيعمل حمّالاً، وهو في كل هذه المتاعب يأبى عون إخوانه، ويتعفف عن عطاء أساتذته.. على ما سوف نبين ذلك في مكانه بالتفصيل إن شاء الله..

خدمة الحديث طلبه، وأحمد خادم أمين للحديث، فهو أوّل من طوّف في البلاد؛ طلباً للحديث، مع كل ما لاقاه من المشقة في سبيل ذلك..

ضيق ذات اليد

إن ضيق ذات اليد حالَ بين أحمد وبين أمله في أن يلتقي بالحافظ العالم جرير بن عبد الحميد، محدّث الرّيّ، وقد كانت الرحلة إليه، تكلفه خمسين درهماً ليس غير..

وحتى عندما تيسر الأمر وجاء جرير ضيفاً على بني المسيب في بغداد على الشاطئ الشرقي، هاج نهر دجلة في سنة ١٨٤، فلم يعبره أحمد مع من عبر قائلاً قولته النبيلة الحانية: إن أمي لا تدعني..

فلم يلتق بجرير رغم أنه قريب منه حرصاً منه على برّ أمه..

وكانت زيارة مصر أملاً كثيراً ما داعب خاطر الإمام؛ لكي يلقى صديقه وأستاذه الشافعي فيها، وكان قد وعد الشافعي بذلك، ولكن المنية وافت الشافعي سنة مائتين وأربع هجرية، ثم تدافعت محنة خلق القرآن، فوضعت أحمد في أتونها، حتى منّ الله عليه بالسلامة والأمان؛ سلامة الجسد، وأمان المعتَقَد.. ولكن فاتته زيارة مصر..

قلة ذات اليد حالت بين أحمد وبين كثير من أسفاره، منعته من أن يلتقي بالحافظ المحدِّث جرير بن عبد الحميد، كما منعته من الذهاب إلى صديقه وأستاذه الشافعي بمصر..

أحمد في بغداد

إن المنطق يوجب أن يتلقى أحمد أولاً حديث بغداد، حتى إذا استحفظ من حديثها جلّه طلب غيره، وكذلك كان منهج أحمد، فهو قد اتجه إلى طلب الحديث من سنة ١٧٩هـ، أي من وقت أن بلغ الخامسة عشرة من عمره، وابتدأ طلبه ببغداد، واستمر مقيماً فيها، يأخذ من شيوخ الحديث، ويكتب كل ما يسمع، حتى سنة ١٨٦هـ، ثم في هذه السنة بدأ رحلته إلى البصرة، وفي العام الذي وليه رحل إلى الحجاز، ثم توالت رحلاته بعد ذلك إلى الحجاز والبصرة واليمن، وغيرها في طلب الحديث..

وإذا كان قد بدأ طلب الحديث سنة ١٧٩هـ، ولم يرحل رحلة علمية قبل سنة ١٨٦هـ؛ فهذا يعني أنه استمر يطلب حديث البغداديين نحو سبع سنين أو أكثر، لم يرحل فيها رحلة علمية، وإن كان قد سافر، فسفر غير بعيد، ولغرض قريب..

لقد قصر أحمد نفسه في هذه السنوات السبع على حديث علماء بغداد وما يحفظون من فتاوى مأثورة، وأقضية للصحابة والتابعين في أبواب الفقه المختلفة..

تلقى أحمد الحديث في بغداد نحو سبع سنين، لم يرحل خلالها رحلة علمية، ثم ابتدأ الرحلة في طلب الحديث إلى مختلف الأقطار الإسلامية..

ملازمة عالم

من الطرق السائدة آنذاك أن الناشئ لا يبتدئ العلم يلقف من هنا وهناك، بل هو يلزم عالماً من العلماء زمناً طويلاً أو قصيراً، حتى يتخرج عليه، حتى إذا اشتد وترعرع، التقف من الثمرات كل ما يصل إلى يده؛ وكذلك كان أحمد - رحمه الله - ، فقد اتجه إلى طلب الحديث، وفقه الآثار، منذ بلغ السادسة عشرة سنة ١٧٩هـ، ولكنه لم يترك نفسه للمنازع العلمية المختلفة من غير هادٍ يهتدي به، بل لزم إماماً من أئمة الحديث وعلم الآثار في بغداد، واستمر يلازمه نحو أربع سنوات، فلم يتركه حتى بلغ العشرين من عمره، ذلك الإمام هو هشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي، المتوفى سنة ١٨٣هـ، ولقد روي عن أحمد خبر تلك الملازمة ومدتها، فقد قال كما رواه عنه ابنه صالح: كتبنا عن هشيم سنة تسع وسبعين، ولزمناه إلى سنة ثمانين، وإحدى وثمانين، واثنتين وثمانين، وثلاث، ومات في سنة ثلاث وثمانين، كتبنا عنه كتاب الحج، نحواً من ألف حديث، وبعض التفسير، وكتاب القضاء، وكتباً صغاراً، وسأله ابنه صالح بعد ذلك القول: يكون ثلاثة آلاف حديث؟ قال: أكثر..

اتخذ أحمد في نشأته إماماً يهديه طرق العلم وكان إمامه هو هشيم ابن بشير

الاتصال بالعلماء

لم تكن تلك الملازمة تامة، أي أنه لم ينقطع له انقطاعاً تاماً، ولم يتصل بغيره في مدى أربع سنوات؛ بل كان يتلقى عن غيره أحياناً، ويحضر بعض مجالس سواه، فيروى أنه سمع من عمير بن عبد الله بن خالد سنة ١٨٢، قبل موت هشيم..

ولقد سمع أيضاً في هذه الأثناء عبد الرحمن بن مهدي، فيروى أنه قال: "قدم علينا عبد الرحمن بن مهدي سنة ثمانين، وقد خضب (من الشيب) وهو ابن خمس وأربعين، وكنت أراه في المسجد الجامع"..

كان أيضاً يستمع إلى أبي بكر بن عباس، ويروي عنه..

ومن هذا كله يستفاد أنه مع تخصيصه شيخه هشيماً بفضل من الملازمة، لم ينقطع عن غيره انقطاعاً تاماً، بل كان يختلط بغيره، ويروي عنه، ويلقف الأحاديث، حيثما وجد الراوي الثقة، وخصوصاً أولئك الذين لهم شهرة علمية في الرواية، وجمع الحديث في البقاع الإسلامية..

مع ملازمة أحمد لأستاذه هشيم؛ إلا أنه سمع من غيره أحياناً، وروى عنهم..

جدّ ودأب

بعد موت هشيم، أخذ أحمد يتلقى الحديث حيثما وجده، وحيثما كان، ومكث ببغداد نحو ثلاث سنوات، يأخذ من شيوخها بجد ودأب، ومن غير أن يخص أحداً بفضل ملازمة دون غيره، كما كان شأنه مع هشيم، إذ كان قد بلغ العشرين عاماً أو قاربها عند موت هشيم، فاستوى عوده، واستقام على الجادة، وسار في طلب الحديث في دأب وجدّ، وعزم صادق، وأمه تشجعه وترشده، وتدعوه إلى الرفق بنفسه إن وجدت منه إرهاقاً لها؛ ولقد حكى أحمد بعض رفقها به، فقد قال: "كنت ربما أردت البكور في الحديث، فتأخذ أمي بثيابي، حتى يؤذن الناس، أو حتى يصبحوا"..

استوى عود أحمد، واستقام على الجادة، وسار في طلب الحديث في دأب وجدّ، وعزم صادق، مع إرشاد أمه له، وتشجيعه على مواصلة الطريق..

الإمام أحمد بن حنبل يتلقى العلم عن شيخه هشيم



٢ الرحلات الخارجية

البصرة والكوفة

لقد خرج أحمد أول ما خرج من بغداد إلى الكوفة، وذلك يستبين من قوله: مات هشيم سنة ثلاث وثمانين، وخرجتُ إلى الكوفة في تلك الأيام، ووصلت إلى البصرة سنة ست وثمانين، ثم دخلتها مرة أخرى سنة تسعين، وإن كانت زياراته للبصرة زادت عن مرتين، فقد زارها خمس مرات، وربما كانت تطول الزيارة في المرة الواحدة فتمتد إلى ستة شهور؛ لأنه كان يراها داراً له، فإن البصرة مقر بني شيبان ومسكنهم، وعلى حسب مقدار تلقيه من الشيخ الذي رحل إليه..

وتوالت رحلاته ليتلقى عن رجال الحديث شفاهاً، ويكتب عن أفواههم ما يقولون.

أما الكوفة التي خرج إليها أحمد أكثر من مرة، فإننا نجد رحلته إليها تتسم بسمتين متضادتين: سمة خشنة تتمثل فيما لاقى فيها من متاعب في الإقامة، فقد ذكر أنه كان ينام في بيت، ويجعل تحت رأسه لبنة (حجر من طين)، وأما السمة الأخرى فكانت لينة ناعمة، فقد أخذ فيها عن ثلاثة من كبار الأئمة والعلماء، هم يحيى بن آدم، وعبد الرحمن بن محمد، ووكيع بن الجراح..

وبعد رحلات أحمد إلى الكوفة، وخروجه منها بحصيلة من الأحاديث الشريفة، سمعها من وكيع، ويحيى، وعبد الرحمن، يفكر أحمد في رحلة أخرى داخل العراق، ولكنها أبعد مسافة من الكوفة، إنها البصرة مدينة العلم والفقه، واللغة والشعر، وهي إلى جانب ذلك مدينة المتطرفة من أصحاب الفرق الأهواء، والغلاة من أصحاب المقالات المنحرفة..

البصرة مدينة العلم والفقه، كانت مقصد الإمام أحمد بعد الكوفة، وقد زارها خمس مرات، وأحياناً تطول الزيارة إلى ستة أشهر..

لماذا البصرة؟



كان وراء تعدد رحلات الإمام أحمد إلى البصرة، وطول إقامته فيها بين الزيارة والأخرى، سببان أساسيان: السبب الأول: وقد سبقت الإشارة إليه، فهو أن البصرة ديار قومه، ولهم فيها مساكن وأحياء ومسجد كبير معروف بالصلاة فيه، فيقول: إنه مسجد أجدادي، والمرء يشعر بالأنس، في ديار قومه، وإن لم يسبق له العيش فيها، إنه يحس بروابط متينة تشده إليها، ويشعر بأحاسيس كامنة تدخل السكينة والإيناس في نفسه، ومن ثم تذهب الوحشة ويقل الإحساس بالغربة، فتطول الإقامة دون ملل أو ضجر..

وأما السبب الثاني: فهو طبيعة الجو العلمي في البصرة، ووفرة الثمار الناضجة التي تجتنى، وتنوع الينابيع العلمية التي تروي الصدى، وتبعث الانتعاش في النفوس الظمأى، ثم بالإضافة إلى كل ذلك وفرة الفقهاء الثقات المأمونين، فقد التقى أحمد في البصرة بثلاثة من كبار فقهاء الإسلام، وأصحاب حديث رسول الله، هم إسماعيل بن علية، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن سعيد القطان..

سببان أساسيان كانا وراء تعدد رحلات أحمد إلى البصرة وطول إقامته فيها؛ أنها ديار قومه، والمرء يشعر بالأنس في ديار قومه، وطبيعة الجو العلمي، وتنوع الينابيع العلمية فيها..

في واسط

وقبل أن يغادر أحمد العراق، كان لا بد وأن يسمع من شيخ إمام هو يزيد بن هارون، وكان يزيد يقيم بواسط، وإلى واسط كان يتجه طالبو العلم، ومن واسط يشع علم يزيد وسلطانه، فيخافه الخليفة في بغداد، وقد سمع أحمد من يزيد في بغداد أولاً، ثم سمع منه في واسط..

لقد أخذ أحمد من كبار شيوخ العراق في بغداد، مبتدئاً بهشيم، ثم عرج على الكوفة، ورحل إلى البصرة، ثم انتقل إلى واسط، وكان في خلال تلك الفترة قد أدى فريضة الحج، وسمع من علماء الحجاز، وجمع وكتب، وقطع شوطاً غير قصير في مرحلة التكوين العلمي، وهنا بدأ أحمد يفكر في الارتحال إلى خارج العراق..

قبل أن يغادر أحمد العراق، رحل إلى واسط، وسمع من يزيد بن هارون، الذي كان يشع علمه وسلطانه منها، ثم بدأ أحمد يفكر في الارتحال إلى خارج العراق.

مدينة واسط في العراق وفيها كان يقيم العالم الفذ يزيد بن هارون

الحجاز

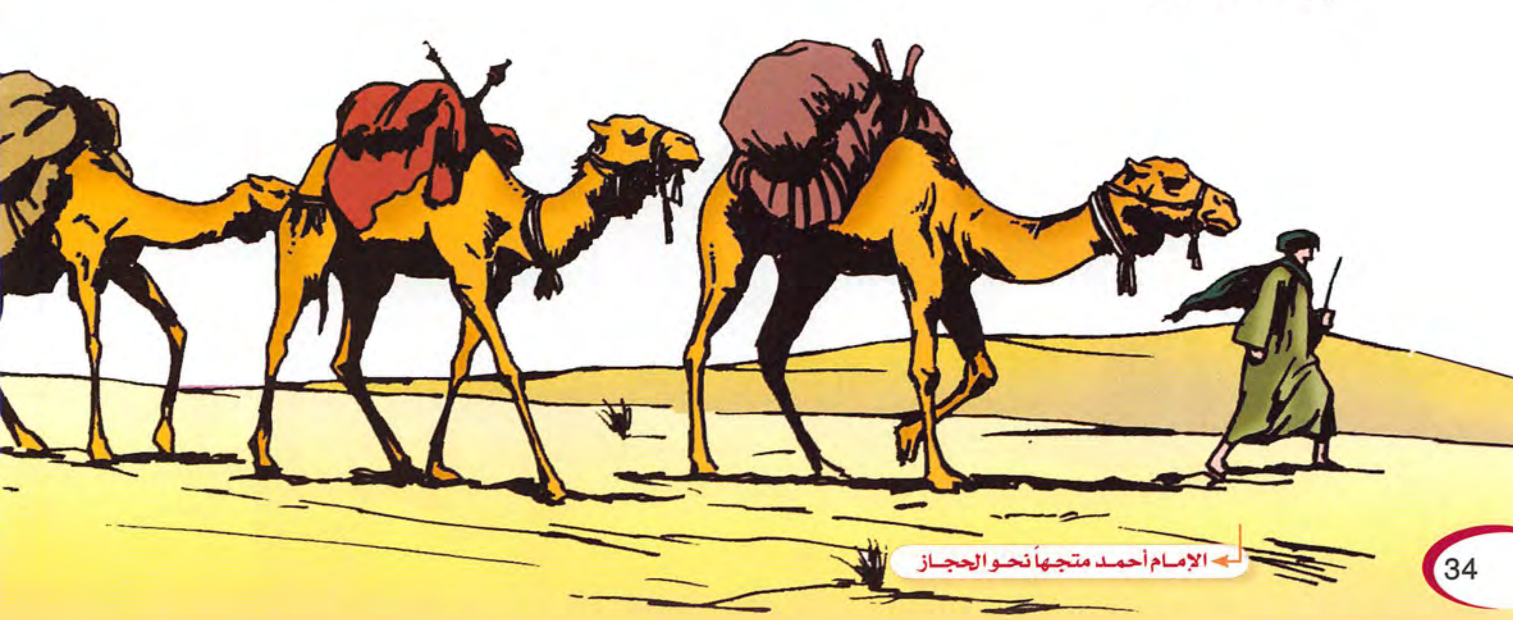
إن الذي يعرف طبيعة أحمد، لن يتردد في التنبؤ بأن أول رحلة خارجية يقوم بها ستكون صوب الحجاز، ففي الحجاز مكة يزينها بيت الله الحرام، وفي الحجاز المدينة المنورة دار هجرة الرسول ﷺ، ومثوى جسده الطاهر، وإلى كل من مكة والمدينة تشد الرحال، وحول المسجد الحرام حلقات أئمة الإسلام، وفي مسجد الرسول ﷺ مجالس علماء دار الهجرة، أبناء التابعين، وأحفاد صحابة رسول الله ﷺ..

وأحمد بن حنبل مشوق إلى ذلك جميعاً، يؤدي الفريضة، ويستمع إلى سفيان بن عيينة، صاحب أشهر حلقة حول الكعبة، ويأخذ عن الشاب القرشي الفقيه، الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي يقول علماً جديداً، بأسلوب عذب أخاذ، وصوت جميل الوقع، واضح النبرات، سبقته شهرته إلى العراق، وسائر الأمصار..

لذلك أعدّ أحمد نفسه للارتحال، وحث الخطى، وغذّ المسير إلى الحجاز، حاجّاً ودارساً وجامعاً لحديث رسول الله ﷺ.

يقول أحمد :"قدمنا مكة سنة سبع وثمانين وقد مات الفضيل، وفي سنة إحدى وتسعين، وفي سنة ست، وأقمت بمكة سنة سبع، وخرجنا سنة ثمان، وأقمت سنة تسع وتسعين عند عبد الرزاق - أي في صنعاء - وحججتُ خمس مرات: منها ثلاث راجلاً - أي ماشياً - وأنفقتُ في هذه الحجج ثلاثين درهماً، وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماشٍ، فجعلت أقول: يا عباد الله، دلوني على الطريق، حتى وقفتُ على الطريق"..

في مكة بيت الله الحرام، وفي المدينة مسجد رسول الله ﷺ، وفي كليهما حلقات أئمة الإسلام، ومجالس العلماء، أبناء التابعين، وأحفاد صحابة رسول الله ﷺ، لذلك أعدّ أحمد نفسه للارتحال وحث الخطى، حاجاً ودارساً، وجامعاً للحديث..



الإمام أحمد متجهاً نحو الحجاز

تعفف وترفع

لقد حجَّ أحمد خمس مرات حسبما ذكر بنفسه، ولم تكن كل حجاته لذات الحج فقط، بل كان لزاد آخر أيضاً، هو رواية حديث النبي ﷺ، ولما لم يجد أحمد أيام الحج كافية، فقد قرر المجاورة، فأقام بمكة طوال سنة سبع وتسعين ومائة..

ولم تكن إقامة أحمد في مكة ناعمة مريحة، فهو فقير، ارتحل إليها من بغداد ماشياً ثلاث مرات، وفي إحدى هذه المرات سُرقت ملابسه، فلم يجد حلاً لمشكلته إلا بحبس نفسه في الدار التي كان يعيش فيها، وإن علي بن الجهم يروي هذه القصة فيقول:

كان لنا جار ببغداد، فأخرج إلينا كتاباً، فقال: أتعرفون هذا الخط؟!

قلنا: نعم، هذا خط أحمد بن حنبل.. فقلنا له: كيف كتب ذلك؟

قال: كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة، فقصدنا أحمد بن حنبل أياماً فلم نجده، ثم جئنا إليه لنسأل عنه..

فقال لنا أهل الدار التي هو فيها: هو في ذلك البيت - أي الحجرة - ..

فجئنا إليه والباب مردود عليه، وإذا عليه خلقان، فقلنا له: يا أبا عبد الله، ما خبرك، لم نرك منذ أيام؟

فقال: سُرقتْ ثيابي..

فقلت له: معي دنانير، فإن شئت خذ قرضاً، وإن شئت صلة..

فأبى أن يفعل..

فقلت: تكتب لي بأجرة؟

قال: نعم، فأخرجت ديناراً، فأبى أن يأخذه، وقال: اشتر لي ثوباً واقطعه نصفين، فأومأ أنه يأتزر بنصف، ويرتدي النصف الآخر، وقال: جئني ببقيته - أي بقية الدينار - ففعلت، وجئت بورق وكاغد، فكتب لي، فهذا خطه..

أحمد ثيابه مسروقة، وهو حبيس البيت، لا يجد ثمن ثياب، ومع ذلك يرفض أن يأخذ من أحد قرضاً أو صلة، ويكتب بالأجرة.. أي تعفف وأي ترفع هذا..؟!

الحرم المدني

في حلقة سفيان

لقد كانت مساحة البيت العتيق حول الكعبة مزدحمة بحلقات الفقهاء والمحدثين، غير أن أشهر هذه الحلقات على الإطلاق: كانت حلقة سفيان بن عيينة، الذي توفي سنة ثمان وتسعين ومائة، والحلقة الأخرى كانت حلقة الشافعي التي بدأت صغيرة متواضعة، ثم أخذت في الاتساع حتى امتدت أطرافها، فزاحمت حلقة سفيان..

كان سفيان أستاذاً للشافعي، إليه جلس، وعنه أخذ، يقول الإمام الشافعي: لولا مالك وسفيان لضاع علم الحجاز.. وكان مالك شيخ علماء المدينة، وكان سفيان شيخ علماء مكة، وكان طبيعياً أن يجلس الناس إليه، ويقصده الدارسون من مختلف الأمصار، وفي مقدمة هؤلاء الوافدين من أصقاع الأرض: أحمد بن حنبل..

كان سفيان بن عيينة يحدث بحديث عمرو ابن دينار، والزهري، وإن كلاً منهما قمة من قمم الحديث، فأخذ أحمد عن سفيان حديث الزهري، وحديث عمرو بن دينار، كما استمع إلى فتاواه ومسائله، فأصاب بذلك خيراً كثيراً..

كانت حلقة سفيان بن عيينة من أشهر الحلقات في المسجد الحرام، وقد أخذ أحمد عن سفيان حديث الزهري، وعمرو بن دينار، واستمع إلى مسائله وفتاويه، فأصاب منه خيراً كثيراً..

في حلقة الشافعي

كانت شهرة سفيان - وعلمه طبعاً - تشد الناس إليه شداً، أما الشافعي فكان مجلسه متواضعاً في أول الأمر، ولكن أحمد طالب المعرفة، الخبير بصنوف القول ومعادن الرجال، يستمع إلى ذلك الفتى، الشاب الوقور، الأسمر، حول الكعبة، الذي يتدفق العلم من فيه عذباً، فراتاً، صحيحاً، سليماً، قوياً، عميقاً، جديداً، فيكتشف هذه الحلقة، ويلفت نظر صفوة أصحابه إليها، وبخاصة يحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه..

الإمام الشافعي

يقول إسحاق: كنا عند سفيان بن عيينة، نكتب أحاديث عمرو بن دينار، فجاءني أحمد بن حنبل فقال لي: يا أبا يعقوب، قم حتى أريك رجلاً لم ترَ عيناك مثله، فقمتُ، فأتى بي فناء زمزم، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض، تعلو وجهه سمرة، حسن السمت، حسن العقل، وأجلسني إلى جانبه، فقال له: يا أبا عبد الله، هذا إسحاق بن راهويه الحنظلي، فرحب بي وحياني، فذاكرته وذاكرني، فانفجر لي منه علم عجز عنه حفظي.

فلما أن طال مجلسنا، قلت لأحمد: يا أبا عبد الله، قم بنا إلى الرجل (أي دعنا نعود إلى حلقة سفيان).

فقال: هذا هو الرجل..

فقلت: يا سبحان الله، أقمتنا من عند رجل يقول: حدثنا الزهري، فما توهمت إلا أن تأتي بنا إلى رجل مثل الزهري أو قريباً، فأتيت بنا إلى هذا الشاب، أو هذا الحدث (الشاب الصغير)..

فقال لي: يا أبا يعقوب، اقتبس من الرجل، فإنه ما رأت عيناي مثله..

حلقة الشافعي كانت حلقة متواضعة في أول الأمر، لكنها لفتت نظر أحمد بن حنبل، فالذي سمعه من الشافعي لم يسمعه من أحد قبله؛ لذلك جعل أصحابه يقومون إلى مجلس الشافعي، ويستمعون إليه، ويقول لهم: إنه ما رأت عيناي مثله..

أفاد فقهاً

لقد أفاد أحمد من الشافعي فقهاً، أكثر مما أفاد حديثاً، فالحديث كان أكثر ما أخذ منه، هو ذلك الذي أخذه عن سفيان، أما عن الشافعي فقد أخذ عنه أحمد كيفية التخريج في الأحكام، وسبيل الدقة في الاستنباط، أما الحديث فكان أحمد صاحب سبق فيه، إن أحمد لم يلق الشافعي إلا وقد أخذ كل ما عند هشيم، وأكثر ما عند يزيد بن هارون، وعبد الرحمن بن مهدي، وعمير بن خالد، ويحيى بن سعيد القطان، وإسماعيل بن علية، ووكيع بن الجراح، ويحيى بن آدم، وعبد الرحمن بن محمد، وعلي ابن هاشم..

وكان الشافعي يدرك ذلك ويقول لأحمد: يا أبا عبد الله أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني، حتى أذهب إليه، كوفياً كان، أو بصرياً، أو شامياً..

إن ما أخذه أحمد عن الشافعي هو الفقه، وكيفية التخريج في الأحكام، وسبيل الدقة في الاستنباط، أما الحديث فإن أحمد كان صاحب سبق فيه..

وقد استمر أحمد على الرحلة في طلب العلم، حتى بعد أن اكتملت رجولته، ونضج علمه، ولقد وعد الشافعي عند آخر لقاء بينهما أن يلحقه إلى مصر، ولكنه لم ينجز ما وعد، فقد روى حرملة عن الشافعي أنه قال: "وعدني أحمد بن حنبل أن يقدم على مصر، فلم يقدم" قال ابن أبي حاتم: "يشبه أن تكون خفة ذات اليد منعته أن يفي بالعدة".

مع عبد الرزاق الصنعاني

يظهر أن الإمام أحمد كان يستطيب المشقة، ويركب متن الصعاب في طلب الحديث، يذهب إلى رواته أنّى كانوا، وحيثما ثقفوا، وكان يفضل أن يبذل المشاق في طلبه، عن أن يناله رخيصاً سهلاً؛ لأن الشيء الذي يجيء بيسر يكون قريب النسيان، وكان مما رسمه لنفسه أن يذهب إلى الحج سنة ثمان وتسعين، وبعد الحج والمجاورة، يذهب إلى عبد الرزاق بن همام بصنعاء اليمن، وقد كاشف بهذه النية رفيقه في الحج، وصاحبه في طلب العلم: يحيى بن معين، وقد توافقت رغبتهما في ذلك، فدخلا مكة، وبينما هما يطوفان طواف القدوم؛ إذا عبد الرزاق يطوف، فرآه ابن معين، وكان يعرفه، فسلم عليه، وقال له: هذا أحمد بن حنبل أخوك، فقال: حياه الله وثبته، فإنه بلغني عنه كل جميل.. قال: نجيء إليك غداً إن شاء الله حتى نسمع ونكتب.. فلما انصرف قال أحمد معترضاً: لمَ أخذتَ على الشيخ موعداً..؟!! قال: لنسمع منه، قد أربحك الله مسيرة شهر، ورجوع شهر، والنفقة.. فقال أحمد: ما كان الله يراني وقد نويت نية أن أفسدها بما تقول، نمضي فنسمع منه، ثم مضى بعد الحج، حتى سمع بصنعاء..

انظر إلى النية المحتسَبة للهجرة في طلب العلم، قد لاحت له الفرصة التي تغنيه عن الهجرة، فلم ينتهزها، وآثر أن يضرب في الأرض مهاجراً في طلب العلم، ولم يرد أن يأخذه رخاء سهلاً، تسهله المصادفة، وتقربه الفرصة، خشية أن يتعود ذلك، فلا يركب في سبيله المركب الصعب، ويحتمل العيش الخشن..

الإمام المحدث عبد الرزاق الصنعاني

أحمد يسعى في طلب الحديث من محدث في مكان بعيد، ثم يجد المحدِّث أمام عينيه، فيرفض أن يأخذ عنه إلا في بلده النائي البعيد!! إنه لأمر يدعو إلى الإجلال والإعجاب..

إلى صنعـــاء

وقد سـار أحـمـد فـعـلاً إلـى صـنـعـاء، ونـالـه العيش الخشن، والمركب الصعب، إذ انقطعت به النفقة في الطريق، فأخذ يعمل بالأجرة مع بعض الحمّالين إلى أن وافى صنعاء، وقد كان رفقاؤه يحاولون أن يمدوا له يد المعونة فكان يردها، شاكراً حامداً لله أن أعطاه القوة التي تمكنه من أن يحصل على نفقات سفره، بقوة بدنه..

ولما وصل إلى صنعاء، والتقى بعبد الرزاق، حاول أن يعينه، فقال له: يا أبا عبد الله خذ هذا الشيء فانتفع به، فإن أرضنا ليست بأرض متجر، ولا مكسب، ومدّ إليه يده بدنانير، فقال أحمد: أنا بخير..

ومكث على هذه المشقة سنتين هانت عليه، إذ سمع خلالها أحاديث عن طريق الزهري، وابن المسيب، ما كان يعلمهما من قبل..



الإمام أحمد يترفع عن قبول عطايا الناس ويعمل حمالاً بالأجرة

لقد كانت رحلة اليمن رحلة شاقة، كابَد فيها أحمد كل المكابدة، لكنه أخذ حديثاً كثيراً من عبد الرزاق، وقد استمر أحمد على الرحلة في طلب العلم أكثر حياته..

مع المحبرة إلى المقبرة

وقد طوَّف أحمد في الأقاليم الإسلامية طالباً للحديث، لا يستكثر الكثير، ولايستثقل المشاق والصعاب، يحمل حقائب كتبه على ظهره، حتى لقد رآه بعض عارفيه في إحدى رحلاته، وقد كثر ما رواه من الأحاديث، وحفظه وكتبه، فقال له معترضاً مستكثراً ما حفظ وما كتب وما روى: "مرة إلى الكوفة!! ومرة إلى البصرة!! إلى متى..؟!"

وقد استمرَّ جده في طلب الحديث وروايته، حتى بعد أن بلغ مبلغ الإمامة، حتى لقد رآه رجل من معاصريه والمحبرة في يده يكتب، ويستمع، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين!! فقال: "مع المحبرة إلى المقبرة"..

وكان رحمه الله تعالى يقول: "أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر"..

وهكذا كان أحمد يسير على الحكمة المأثورة: "لا يزال الرجل عالماً ما دام يطلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل"..

نطق بها عمله، ونطق بها لسانه، في تلك الكلمات التي نقلناها عنه..

أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر، ومع المحبرة إلى المقبرة، قالها أحمد، وقد اعترض عليه بعض معاصريه مستكثراً ما حفظ وما سمع، فلا يزال الرجل عالماً ما دام يطلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل..



٣ التدوين والكتابة

إن أحمد كان معنياً بتدوين كل ما يسمع من أحاديث رسول الله ﷺ، وآثار أصحابه، غير معتمد على الحافظة وحدها، وذلك لأن العصر كان عصر تدوين العلوم، ففيه دون الفقه، وعلوم اللغة، وعلم الحديث، فما كان يكتفي بالالتقاط بأذنه، والحفظ بعقله، بل كان يودع ما تلقاه بطون القراطيس، كما أودعه قلبه الحافظ الواعي، فكان يحفظ الأحاديث كلها، وإسنادها بطرائقها، ولكنه إذا حدّث لا يحدّث إلا من كتاب، أي مما كتب ونقل، خشية أن يضل عقله فينسى، فيحرف كلم الرسول ﷺ عن مواضعه، وذلك من فرط التقوى، وليستمسك بالعروة الوثقى التي كان عليها بعض السلف الصالح، الذين كانوا لا يحدّثون خشية أن يشبه لهم كما ظنوا أنه يشبه لغيرهم..

كان أحمد من فرط التقوى، وشدة الخوف من الله تعالى، يدوّن كل ما يسمع، ولا يحدّث إلا من كتاب، غير معتمد على الحافظة وحدها؛ خشية أن يضل عقله فينسى فيحرف كلم رسول الله ﷺ عن موضعه..

لا يعتمد على ذاكرته

و الأخبار متضافرة بقوة حفظ أحمد، وكثرة حفظه، حتى أنه كان لا يدوّن الإسناد أحياناً اعتماداً على حفظه لها، ويدوّن الأحاديث دائماً ويحفظها، ولكن لا ينطق بها إلا إذا قرأها مما كتب كما نوهنا، حتى أنه لو سأله سائل عن حديث يحفظه بحث عنه فيما كتبه، ثم قرأه مما كتب، ويروى أنه سأله رجل من أهل مرو عن حديث، فأمر ابنه عبد الله أن يحضر كتاب الفوائد، ليبحث عن الحديث فيه، ولكنه لم يجده، فقام بنفسه وأحضر الكتاب، وكان عدة أجزاء، وقعد يطلب الحديث..

وجاءه رجل يطلب الحديث، وقال له: تعلمني مما علمك الله.. فدخل إلى منزله، وأخرج كتب الحديث، وجعل يملي عليه، ثم يقول للرجل: اقرأ ما كتبت..

فأحمد مع جودة حفظه، وقوة واعيته، كان لا يعتمد على ذاكرته، بل يدوّن كل ما يسمع، وإذا أدلى بالحديث لا يدلي إلا مما يدوّن مع وعي تام، وحفظ عظيم..

جودة حفظ أحمد وقوة واعيته، مما تضافرت به الأخبار، لكنه مع ذلك لا يدلي بالحديث إلا مما دوّنه في كتبه..



الإمام أحمد يدوّن أحاديث النبي ﷺ

٤ إلى الفقه

لا شك أن الذي كان يحتفي به أحمد، ويهتم بطلبه هو الحديث وآثار الرسول ﷺ، وفتاوى أصحابه، وآثارهم العلمية، وما كانوا يجتهدون به من مسائل، فيحفظ كل ذلك ويتفهمه، ويعرف مراميه وغاياته، ويهتدي بذلك الهدي الكريم، وإن هذا الروايات فوق أنها سنن مأثورة، فهي فقه عميق ودقيق، ولذلك لا نقول: إنه في رواياته وانغماره فيها كان منقطعاً عن الفقه والمسائل والفتاوى؛ بل كان متصلاً بالفقه غير منقطع، فإذا كان قد تفرّغ شطراً كبيراً من حياته للرواية، فإنه لم يكن مقطوعاً فيها عن الفقه..

وإنه في دراسته الأولى، اتجه إلى طلب الفقه على القاضي أبي يوسف، ولا شك أن اختلافه إلى مجلس ذلك القاضي الفقيه الذي كان يفتي ويقضي برأيه، إذا لم يجد النص المسعف له في فتواه وفي قضائه، لا بد أن يعطيه فكرة عن الاستنباط الفقهي، وإنه إن تعلم الحديث، لم يكن المحدِّث الذي يروي من غير أن يستنبط، ويتحرى، ويفهم النصوص وغاياتها المصلحية ومراميها، وإن متابعتنا لما تلقاه من دروس، ومن التقى بهم من شيوخ يجعلنا نعتقد أنه كان معنياً باستنباط الأحكام من النصوص، كما كان معنياً بالرواية والرواة، لقد رأيناه في مكة يلتقي بسفيان ابن عيينة، ويروي عنه ويكتب ما يستمع إليه أحمد منه، ثم يلتقي بالشافعي، وقد كان يدرس أصوله، فتسترعي ذهنه مناهجه الفقهية، ويتلقى عنه تلك المناهج، ويعجب بصاحبها إعجاباً يدفعه إلى أن يدعو رفقته في رحلته إلى الاستماع إليه، ولقد روي أن أحمد قال: "يروى عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة"..

إن اهتمام أحمد بالرواية وطلب الحديث، لا يعني أنه كان منقطعاً عن الفقه، فالروايات التي حفظها ورواها هي فقه عميق دقيق، وإن اختلافه إلى أبي يوسف، وتلقيه عن الشافعي، لا بد أن يعطيه فكرة عن الاستنباط الفقهي، وفهم النصوص وغاياتها، ومراميها..



الإمام أحمد يلتزم النص ولا يخرج عنه

بين الفقه والحديث

وإذا كان أحمد يطلب الفقه وهو مهتم بالحديث، ورواية الآثار أبلغ عناية، فلا بد أنه كان يدرس الحديث دراسة متفهم لمراميه، وغاياته ومعانيه الفقهية، وقد اتجه إلى الفقه بدراسة عميقة، عندما أخذ يدرس الفقه في المرويات التي آل إليها علمها، فإنه طلب فقه الصحابة، وخصص لكل صحابي سنداً قائماً بذاته في كتابه: (المسند).. وفي كل سند لصحابي من المجتهدين الذين اشتهروا بالإفتاء، كعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وخليفة رسول الله ﷺ: أبي بكر، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، فلا بد أنه كان يُعنى بدراسة فقه هؤلاء، وتعرف غاياته ومراميه، وإن دراسة فقه هؤلاء وغيرهم، كعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهم، يرهف عقل الراوي المستيقظ، ويعطيه ملكة فقهية عميقة؛ وإذا أضيف إلى ذلك أنه التقى بضابط علم الاستنباط: الإمام الشافعي - رحمه الله - فإنه بلا ريب يكون فقيهاً عريقاً في فقه السنة، لا يمكن أن يخرج في آرائه عن سمت الشريعة المستقيم..

ثم إنه لم يكتفِ بدراسة فقه الصحابة رضي الله عنهم، بل درس فقه التابعين، وجمعَ فتاويهم، وفيهم من كان يغلب عليه الرأي، وفيهم من كان يتوقف إذا لم يجد حديثاً، فوجد في فقه التابعين مجموعة فقهية، اتبعها، واستنبط على منهاجها، ومنهاج ما أثر عن الصحابة رضوان الله عليهم، ما لم يجد نصاً عليه من الكتاب والسنة، ولم يؤثر عن صحابي أو تابعي فتوى فيه..

ورواية تلك المجموعات مع العناية بدراسة الفقه منها، يتكون منها الفقيه، وبذلك يلتقي الحديث والفقه في أحمد - رحمه الله-، وبذلك يكون أحمد المحدث والفقيه معاً..

التقى الحديث والسنة والآثار مع الفقه، فقد اتجه أحمد إلى الفقه بدراسة عميقة، وطلب فقه الصحابة والتابعين، وجمع فتاويهم، فتكونت لديه ملكة فقهية عميقة؛ وبذلك أصبح أحمد المحدّث والفقيه معاً..

علم أحمد بالفارسية

انتقلت أسرة أحمد بن حنبل من مرو، وأمه كانت حاملاً به، وقد ولدته ببغداد، ويظهر أن إقامة أسرته الطويلة بخراسان، واتصال أعمال عمه بها، جعل اللغة الفارسية معروفة في تلك الأسرة؛ ولذلك ثبت أن أحمد كان يعرف الفارسية، ويتحدث بها، وقد روى ذلك الذهبي في تاريخه، فيروى أنه قدم عليه من خراسان ابن خالته، ونزل عنده، ولما قدم له الطعام، كان أحمد يسأله عن خراسان وأهلها، وما بقي من ذوي أحمد بها، وربما استعجم القول على الضيف، فيكلمه أحمد بالفارسية..

وليس معنى علم أحمد بالفارسية أنه استعان بها في فقهه، ففقهه كما سنبين فقه أثري نقلي، ليس فيه اعتماد على الاستنباط الفلسفي، ومسائله المروية عنه ليس فيها ما يدل على تأثر بفكر فارسي، وإن كان فيها تأثر إقليمي أحياناً، إذا كان أساس الاستنباط قياساً أو مصلحة، أو سد ذريعة، وليس الأساس نصاً، وإنه من المؤكد أن أحمد كان يأخذ بالقياس بقدر قليل، وبالمصلحة على أساس أن الأصل في المصلحة الإباحة، حتى يقوم الدليل على البطلان بنص على عدم اعتبارها، فما دام لم يقم هذا الدليل، فالمصلحة على أصل إباحتها، ولذلك فضل بيان في فقهه..

إقامة أسرة أحمد الطويلة بخراسان، جعلت اللغة الفارسية معروفة في تلك الأسرة، وقد ثبت أن أحمد كان يعرف الفارسية ويتحدّث بها، ولم يثبت أنه تأثر بفكر فارسي، أو استعان بالفارسية في فقهه، ففقهه أثري نقلي..

الباب الأول
السيرة الذاتية والعلمية

الفصل الرابع

الأساتذة الكبار



- هشيم بن بشير
- محمد بن إدريس الشافعي
- يزيد بن هارون
- إسماعيل بن عُليَّة
- سفيان بن عيينة
- عبد الرزاق بن همام الصنعاني
- علماء آخرون

١ هشيم بن بشير

إن الشخصية الأولى التي استقبلت أحمد ووجهته، وجعلت منه طالب سُنَّة دؤوباً في طلبها، يجوب لأجلها الأقطار، ويقطع الفيافي والقفار؛ هي شخصية هشيم بن بشير بن أبي خازم، فعندما نزع أحمد إلى الحديث، واستخار الله، واختاره في السادسة عشرة من عمره، اتجه إلى هشيم هذا، ولزمه نحو أربع سنوات، وقيل خمساً، تكوّن فيها، وكمُل اتجاهه اتجاهاً كاملاً إلى السنة، وروى عن هشيم، وعن سائر محدثي بغداد، طائفة كبيرة من السنة، ولكن هشيماً كان أبرز الشخصيات أثراً في حياته، في مدى السنوات الأربع ، وهي السن التي تكوّنت فيها النواة الأولى لعلمه في الحديث..

بعد أن استخار أحمد اللهَ، واتجه إلى طلب الحديث، لزم هشيم بن بشير نحو أربع سنوات، فكان هشيم من أبرز الشخصيات أثراً في حياة أحمد وتوجيهه العلمي..

هيبة هشيم

وُلد هشيم بواسط سنة ١٠٤هـ، وبها نشأ، وقد تلقى على بعض التابعين كعمرو بن دينار، والزهري، وغيرهما، وكان ذا عناية بمعرفة آثار ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وقد آلت إليه حلقة أهل الحديث ببغداد، فعندما اتجه أحمد إلى الحديث، وجده شيخ هذه الحلقة، وقد كان ذا سمت حسن في الإسلام، وذا هيبة وتأثير في نفس أحمد - رحمه الله - ، حتى أنه ما كان يسأله قط هيبة له وإجلالاً لعلمه، وما سأله مدة ملازمته له إلا مرة أو مرتين، كان دائماً يسبح بحمد الله بين رواية حديث، ورواية آخر، ويقول: لا إله إلا الله، يمد بها صوته، وكأنه يذكر جلال الله سبحانه وتعالى، لتمتلئ بذكر الله نفسه، فيستشعر تقواه عند رواية حديث رسوله ﷺ، ونقل أصول دينه..

كان هشيم ذا سمت حسن في الإسلام، وذا هيبة وتأثير في نفس أحمد، حتى أنه ما كان يسأله هيبة وإجلالاً له..

طلبه العلم

كان هشيم بخاري الأصل، وقد أقام أبوه بشير في واسط، يروى أنه كان طبّاخ الحجاج بن يوسف الثقفي، ولما انتقلت أسرته إلى بغداد، كان يصطنع هذه الصناعة، وقد اشتهر بإعداد بعض أنواع أطعمة السمك وإجادته، فلما نزع ابنه هشيم منزع العلم، لم يكن ذلك مألوفاً في أسرته، بل كان غريباً عليها، فكان ينهاه عنه، ويلومه عليه، ويمنعه من ذلك؛ لفقره ورقة حاله، تماماً مثلما كان يفعل إبراهيم والد أبي يوسف، ولكن هشيماً أصرّ على طلب حديث رسول الله ﷺ، رغم ممانعة أبيه، وكان يتحمل اللوم صابراً، ويطلب الحديث مجاهداً، وقد كتب صحفاً من الحديث حفظها وجادل بها، وكان هشيم على الرغم من صغره يجالس أبا شيبة، قاضي واسط، ويناظره في الفقه، والعلم في الإسلام لا يعرف الطبقية ولا يقرها، بل هو حرب عليها، مقبح لها ولأصحابها، ولذلك لم يكن هناك غرابة في أن يجالس فتى فقيرٌ، يبيع أبوه السمك، قاضياً كبيراً مثل أبي شيبة، ما دامت وشيجة اللقاء هي العلم من فقه وحديث..

وحياة هشيم كانت انصرافاً إلى العلم بجملته، جاهد في سبيله، حتى شق الطريق لنفسه، وكأن أحمد ما أخذ منه علم الحديث فقط، بل تلقى عنه الجهاد في طلبه، وتحمل المشقة في سبيله..

كانت حياة هشيم انصرافاً إلى العلم رغم ممانعة والده له في البداية، لفقره ورقة حاله، لكنه تحمل المشقة وجاهد في سبيل طلب العلم، حتى أصبح يجالس القاضي أبا شيبة ويناظره..



هشيم بن بشير شيخ الإمام أحمد

الفتى و القاضي

ومن الطريف أن هذه الصلة بين الفتى الفقير الدارس المجتهد، وبين القاضي تصبح سبباً في رضى بشير عن ولده، والسماح له بطلب الحديث، والاستمرار فيه حتى يصبح واحداً من أئمة المسلمين، ذلك أن الفتى هشيم مرض ذات مرة وطال مرضه بعض الوقت، وغاب عن مجلس القاضي أبي شيبة، فافتقده وسأل عنه قائلاً: ما فعل ذلك الفتى الذي كان يجيء إلينا؟!

فقال الجلساء: إنه عليل..

فقال القاضي على الفور: قوموا بنا حتى نعوده..

فقام أهل المجلس جميعاً، حتى جاؤوا إلى منزل بشير، فدخلوا إلى دار هشيم، فأسرع أحد الجيران إلى دكان بشير، وقال: الحق ابنك، فقد جاء إليه القاضي يعوده.. فأسرع بشير إلى الدار، والقاضي في بيته يعود ولده، فلما خرج، قال لابنه: يا بنيّ، قد كنت أمنعك من طلب الحديث، أما اليوم فلا، صار القاضي يجيء إلى بابي!! متى أملت أنا هذا..؟!

مرض هشيم مرة، فافتقده القاضي أبو شيبة، وجاء يعوده في منزله، فكانت هذه الزيارة سبباً في رضى بشير عن ولده وموافقته في طلب العلم..

مكانته في الحديث

انصرف هشيم بعد ذلك إلى طلب الحديث، ورحل الرحلات المختلفة في طلبه، فرحل إلى مكة، وفيها التقى بالزهري، وأخذ منه نحواً من مائة حديث، وقيل: ثلاثمائة، ورحل إلى البصرة، وإلى الكوفة، وإلى غيرهما من الأمصار، طلباً للحديث، وأخذاً من رجاله، واستمر على ذلك دائباً، لا يمل أو يتعب، حتى صار له شأن فيه أي شأن، ثم صارت له الرياسة فيه في بغداد، فكانت له حلقته، وقد روى عنه كثير من الأئمة مثل: مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وهم أكبر منه سناً، كما روى عنه ولده سعيد بن هشيم، وعبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح، وابن بلده يزيد بن هارون، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وهؤلاء الأربعة الأخيرون من شيوخ أحمد، كما روى عنه يحيى بن معين، وقتيبة بن سعيد، وعلي بن المديني، وأبو خيثمة، وغيرهم كثيرون..

استمر هشيم في طلب الحديث دائباً لا يمل، ورحل في سبيله الرحلات المختلفة، حتى صار له فيه شأن وأي شأن، بل صارت له الرياسة في الحديث في بغداد، وروى عنه كبار الأئمة والعلماء..



الإمام هشيم بن بشير (شيخ الإمام أحمد) منكباً على طلب الحديث الشريف

ثناء مالك وشعبة

لقد حظي هشيم بما هو أهل له من ثناء وتقدير، فشهد له أئمة الزمان من معاصريه بالصدق في حفظه، والأمانة في روايته، والوفرة في علمه، فقد كان معاصراً لكبار الأئمة مثل: أبي حنيفة، ومالك، والليث، والثوري، والأوزاعي، وشعبة، وإن كانوا يكبرونه سناً، ولكن حسن سمعته، وسلامة حفظه، وأمانة روايته وصلت إلى أسماع كثير منهم، ولقد أثنى عليه الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - ونفى أن يكون بالعراق عالم بالحديث سواه، فقال: "وهل بالعراق أحد يحسن أن يحدِّث إلا ذاك الواسطي..؟ (يعني هشيماً)"..

أما شعبة ذو القدر الكبير، والمقام الراسخ في حديث رسول الله ﷺ فيقول لطلاب البصرة وعلمائها عندما وفد هشيم عليهم: إن حدثكم عن ابن عباس، وابن عمر، فصدقوه..

وإذا كان لهشيم هذه المنزلة في الحديث، وعند جمهور المحدثين في نشأته، فقد جلس أحمد إلى إمام الحديث في العراق والتزمه، ولقد كان كما قلنا ذا تأثير شديد في نفس أحمد - رحمه الله - ، حتى كان يحفظ كل ما يلقيه عليه حفظاً، فإنه يروى أنه قال: "حفظت كل شيء من هشيم، وهشيم حي، قبل موته"..

عمل متميز

ومن الأمور التي لا ينبغي أن يغفلها متحدث عن هشيم، بل ينبغي إبرازها كعمل متميز في حياة هشيم: أنه كان ممن ثار مع إبراهيم الإمام شقيق محمد النفس الزكية في واسط، وأن ولده معاوية - الذي يكنى به - قد خاض المعارك في صفوف إبراهيم وقتل فيها، فكان إسهام هشيم في حركة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، أكثر من إسهام أبي حنيفة ومالك، فقد أسهم بنفسه، وقدَّم دم ولده الكبير لتلك الحركة المباركة التي لم يكتب لها النجاح..

ولعل هذا الفشل مما شكل لدى الإمام أحمد نفسية رفض أسلوب الثورات لأنه رأى أن نتائجها السلبية في زمانه أكثر من إيجابياتها..

إن هشيم بن بشير لم يكن مجرد شيخ يحفظ الحديث ويملي الفقه، ويفتي في المسائل، وإنما كان رجلاً صالحاً ذا هيبة، ولعل ذلك واحد من الأسباب التي جعلت أحمد يتفرغ إلى حلقته إلى أن مات.. وكان هشيم صاحب تفسير، وله كتاب السنن في الفقه، وله كتاب في المغازي..

توفي هشيم سنة مائة وثلاث وثمانين هجرية في بغداد..

اشتهر هشيم بالصدق في حفظه، والأمانة في روايته، والوفرة في علمه، فكان أهلاً للتقدير والثناء من أئمة الزمان في عصره..

ثار هشيم مع إبراهيم شقيق محمد النفس الزكية، وخاض ولده معاوية المعارك في صفوف إبراهيم وقتل فيها، وكان هشيم رجلاً صالحاً، توفي سنة ١٨٣هـ في بغداد..

٢ محمد بن إدريس الشافعي

تلقى أحمد على هشيم حديثاً كثيراً، وفقهاً قليلاً، ولذلك كان لا بد أن يوسع مداركه وملكته الفقهية بشخصية أخرى ذات عمق فقهي تهبه مافاته من الفقه، وقد وجدت تلك الشخصية في الشافعي - رحمه الله - ، وقد اتصل به أحمد عقب وفاة هشيم، عندما ذهب يحج بيت الله الحرام، فالتقى بالشافعي، وأثار إعجابه، وكان إعجابه بعقله الفقهي، وقوة استنباطه، والضوابط والمقاييس التي جعلها أصول الاستنباط عقب أن عاد إلى مكة، بعد مدارسة محمد بن الحسن فقه الرأي ببغداد، ولقد صرّح أحمد حين استمع، بأن إعجابه بعقله الفقهي أكثر من روايته، وصرح بذلك لصاحبه إسحاق بن راهويه، كما نقلنا، فقد قال له: يا أبا يعقوب، اقتبس من الرجل، فإنه ما رأت عيناي مثله..

أثار الشافعي إعجاب أحمد حين التقى به في المسجد الحرام، فقد أعجب بعقله الفقهي، وقوة استنباطه، والضوابط والمقاييس التي جعلها أصول الاستنباط، مما جعله يتصل به، ويتلقى على يديه..

الاستنباط الفقهي

كان إعجاب أحمد منصباً على أخص ما امتاز به الشافعي، وهو التفكير الفقهي، والضبط العقلي، ووضع أصول الاستنباط، فهو يعدّ الموجه الثاني لأحمد ابن حنبل - رحمه الله -..

وجهه هشيم في صدر حياته إلى الحديث، وطلب السنة، واستخراج الفقه من بين ثناياها، على أن تكون هي المقصد الأسمى، ووجهه الشافعي إلى أصول الاستنباط، فتوجه أحمد إلى الينبوعين، وإن كان علم الحديث أظهر، والعمل الفقهي أقل بالإضافة إلى الأول، وإن لم يكن هو في ذاته قدراً قليلاً، بل كان حظاً كبيراً..

وقد فصلنا سيرة الإمام الشافعي رحمه الله تعالى بكتاب خاص يتناسب مع مكانته وعظمته..

توجه أحمد في صدر حياته إلى الحديث وطلب السنة على يد هشيم، ثم وجهه الشافعي إلى أصول الاستنباط، فتوجه أحمد إلى الينبوعين..

٣ يزيد بن هارون

كان هشيم واسطياً، ترك بلده، وأقام ببغداد، وهذا يزيد بن هارون إمام حافظ فقيه من مدينة واسط، وهو بهذه النسبة يشترك مع هشيم، ثم هما بعد ذلك يشتركان في أصل آخر؛ ذلك أن كليهما بخاري الأصل، فقد رحل أبوه إلى واسط، وكان يزيد يغادر واسط ويتجه إلى بغداد، حيث تعقد له حلقة تفيض بالرجال، وتحفل بسامعي حديث رسول الله ﷺ، ثم لا يلبث أن يعود إلى واسط.

يقول محمد ابن عبد الملك، وكان تلميذاً ليزيد: سمعت يزيد بن هارون يقول: لا ينبل أحد من أهل واسط بواسط؛ لأنهم حسّاد.

فقيل له: ولا أنت يا أبا خالد؟

فأجاب: ما عُرِفْتُ حتى خرجتُ من واسط..

إن أبا خالد يزيد بن هارون مرتبط ببلدته واسط، بها ولد سنة ١١٧هـ، وقيل: ١١٨هـ، وعلى أرضها نشأ وتربى، وكان يرحل في طلب العلم، والحج، أو لزيارة بغداد، ثم يعود إليها، وبها توفي سنة ٢٠٦هـ عن عمر يقل قليلاً عن التسعين، فاقد البصر..

يزيد بن هارون إمام حافظ فقيه من واسط، وكانت تعقد له حلقة في بغداد، تفيض بالرجال، ولد سنة ١١٧هـ وتوفي سنة ٢٠٦هـ.

بكاء الأسحار

لقد كُفَّ بصر يزيد على مرحلتين، يقول الحسن بن عرفة البغدادي: رأيت يزيد بن هارون وهو من أحسن الناس عينين، ثم رأيته بعين واحدة، ثم رأيته وقد ذهبت عيناه، فقلت: يا أبا خالد، ما فعلت العينان الجميلتان؟ قال: ذهب بهما بكاء الأسحار..

إن بكاء الأسحار يعني الصلاح والتقوى، وقيام الليل، والسهر في العبادة، نعم، لقد كان يزيد متعبداً حسن الصلاة، وكان هو وهشيم معروفين بطول الصلاة.. يقول أحمد بن سنان: ما رأينا عالماً قط، أحسن صلاة من يزيد بن هارون، يقوم كأنه أسطوانة، كان يصلي بين المغرب والعشاء، والظهر والعصر، لم يكن يفتر عن صلاة الليل والنهار، هو وهشيم جميعاً معروفان بطول الصلاة بالليل والنهار..

وقال رجل ليزيد: كم حزبك من الليل؟

فقال: وأنام من الليل شيئاً.؟ إذاً لا أنام الله عيني (أي ليس لي مواعيد خاصة للنوم فأنام إذا غلبني النوم)..

ولعل هذه العبادة من هشيم ويزيد هي التي ربَّت الإمام أحمد على الزهد والعبادة، فكان من أعظم العبَّاد كما كان من أعظم العلماء..

بكاء الأسحار يذهب بعيني يزيد بن هارون، من طول القيام والسهر في العبادة، وكان معروفاً بطول الصلاة في الليل والنهار، وكذلك كان أكثر العلماء لا ينامون إلا قليلاً، أو لا ينامون أبداً.. فأين نحن منهم..؟!

علمه وحفظه

هذا ما كان من أمر صلاح يزيد وتقواه، وكان أحمد يتحرى الأتقياء الأنقياء من الرجال، وأما عن علمه وحفظه فكان يقول: أحفظ خمسة وعشرين ألف إسناد ولا فخر، ويعود ليقول: أحفظ للشاميين عشرين ألف حديث لا أسأل عنها.. ويقول أيضاً: لا أقامني الله إن كنت لا أقوم بحديثي (أي لا أهتم بحفظ ومراجعة ما أعرفه من الأحاديث)..

لذلك فقد شهد له الحفاظ والفقهاء الكبار، فهذا علي بن المديني يقول: لم أرَ أحفظ من يزيد بن هارون، وأما يحيى بن يحيى فيقول: كان بالعراق أربعة من الحفاظ: شيخان وكهلان، فأما الشيخان: فهشيم، ويزيد بن زريع، وأما الكهلان (الكهولة: المرحلة التالية للشباب) فوكيع، ويزيد بن هارون، وأحفظ الكهلين: يزيد بن هارون..

أما أحمد بن حنبل تلميذ يزيد فقد قيل له: يزيد بن هارون له فقه؟

فقال: نعم، ما كان أفطنه، وأذكاه، وأفهمه!

فقيل له: فابن علية؟

قال: كان له فقه إلا أني لم أخبره خبري يزيد بن هارون، ويمضي الإمام أحمد قائلاً: ما كان أجمع أمر يزيد!! صاحب صلاة، حافظ، متقن للحديث، صوانة، وحسن مذهب..

كان أحمد يتحرى الأتقياء الأنقياء من الرجال، فهذا يزيد بن هارون عالم تقي، حافظ، متقن للحديث، حسن المذهب، يقول عنه الإمام أحمد: ما كان أفطنه وأذكاه وأفهمه!!

الخليفة يخشاه

لقد كان يزيد بن هارون كما قال أحمد ملئ فقهاً وحديثاً وحسن مذهب، وهو بعد ذلك صاحب شهرة وصيت، إذا ذهب إلى بغداد وجلس للحديث، خرجت بغداد لسماعه، يقول يحيى بن أبي طلبة، وهو تلميذ ليزيد: سمعت يزيد بن هارون في المجلس في بغداد، وقيل: إن في المجلس سبعين ألفاً (ولعل في الرقم مبالغة ولكنه بالتأكيد يدل على شهرة يزيد وحرص الناس على حضور مجلسه)..

إنها ليست إذن مشيخة وحسب، ولكنها زعامة وسلطنة على النفوس، وعرش على القلوب، ومن ثم فإن خليفة بغداد كان يتحامى جانبه، وخشي أن يقول ببدعة خلق القرآن أثناء حياة يزيد خوفاً على عرشه من ثورة يزيد عليه، فيثور الناس معه لمكانته في نفوسهم..

يقول المأمون: لولا مكان يزيد بن هارون، لأظهرتُ خلق القرآن..

فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، ومَن يزيد حتى يُتَّقى؟!

فيرد عليه المأمون: ويحك، إني لا أتقيه لأن له سلطاناً أو سلطنة، ولكن أخاف إن أظهرته أن يردّ عليّ، فيختلف الناس وتكون فتنة، وأنا أكره الفتنة..

فقال الرجل: أنا أخبر لك ذلك منه (أي اسمح لي أن أختبر موقف يزيد من القول بخلق القرآن وهل سيثور أم لا).

فقال المأمون: نعم..

فخرج الرجل إلى واسط، فجاء إلى يزيد، ودخل عليه المسجد، وجلس إليه، فقال له: يا أبا خالد إن أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول لك: إني أردت أن أظهر أن القرآن مخلوق..

فقال: كذبت على أمير المؤمنين، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه، وما لم يقل به أحد..

فعاد الرجل إلى بغداد، فقال: يا أمير المؤمنين لقد كنتَ أنت أعلم، كان من القصة كيت وكيت..

فقال له المأمون: ويحك، تلعّب بك (أي لعب بك بذكائه، فهو رد القول ولم يرد على أمير المؤمنين)..

وكان الناس يسمعون يزيد يحلف بالله الذي لا إله إلا هو، أن من قال: القرآن مخلوق، فهو كافر، ثم يكرر القول في مجلسه الكبير بألفاظ أخرى: القرآن كلام الله.. لعنَ اللهُ جهماً ومن يقول بقوله، كان كافراً جاحداً..

هذه المعاني الواضحة كالشمس، كانت تصل إلى أسماع المأمون، فتدخل الفزع إلى قلبه، فيخاف إظهار ما كان ينوي إظهاره حول خلق القرآن، فلما أن خلا له الميدان، بوفاة يزيد سنة ٢٠٦هـ، بدأ بإشعال نار الفتنة التي كان وقودها كثير من علماء المسلمين، وكان بطلها الصامد: أحمد بن حنبل، الذي تربى على هذه العقيدة وهذا الموقف الصارم من شيخه يزيد بن هارون..

كان يزيد صاحب شهرة وصيت، وكانت له زعامة على النفوس، وعرش على القلوب، فإذا أتى إلى بغداد خرجت بغداد لسماعه، حتى قيل: إن في مجلسه سبعين ألفاً، وكان خليفة بغداد يتحامى جانبه، ويخاف من إظهار بدعة خلق القرآن، فلما توفي يزيد بدأ بإشعال نار الفتنة التي كان وقودها كثير من علماء المسلمين..

الفقيه المصلح

من هنا كان تأثُّر أحمد بن حنبل بشيخه، سمع منه الحديث، وأخذ عنه الفقه، ورأى فيه التبتل والصلاح، ورآه يدافع عن كتاب الله، ويدفع الفتنةَ من أن تظهر..

ومن ناحية أخرى كان يزيد بن هارون ممن يعدون من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في سلوكه ونمط حياته، وكانت فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أنبل ما تبناه أحمد بن حنبل ومدرسته من أفكار، وهي امتداد للمدرسة التي تتلمذ في رحابها أحمد بن حنبل، مدرسة العالم العابد العارف المحدث: الإمام يزيد بن هارون..



يزيد بن هارون
شيخ الإمام أحمد

أخذ أحمد عن شيخه يزيد الحديث والفقه، وكان من أنبل ما تبناه عنه أحمد من أفكار: فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كان يزيد آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر في سلوكه ونمط حياته..

٤ إسماعيل بن علية

إسماعيل بن علية أحد شيوخ أحمد بن حنبل في البصرة، وكان أحمد بن حنبل يرى في شيخه ابن علية خير عوض عن الفقيه المحدّث حماد بن زيد، قال أحمد: فاتني مالك، فأخلف الله عليّ سفيان بن عيينة، وفاتني حماد بن زيد، فأخلف الله عليّ إسماعيل بن علية..

ولد ابن علية في البصرة سنة ١١٠هـ، من أب كوفي اسمه إبراهيم بن مقسَم، كان يعمل بالتجارة بين الكوفة والبصرة، فتزوج في البصرة امرأة فاضلة عاقلة اسمها علية، فأنجبت له إسماعيل، فنُسب إلى أمه، وكانت علية امرأة نبيلة ذات فضل وفطنة، تحب العلم وتقدر أهله، وقد عهدت بولدها إسماعيل إلى عبد الوارث بن سعيد أحد أئمة الحديث بالبصرة، وقالت له: ابني يكون معك ويأخذ بأخلاقك.. وكان إسماعيل فتى فطن العقل، ذكي الفؤاد، جميل المحيا، فتخرج ابن علية على عبد الوارث وعلى غيره، وأهل البصرة لا يشكّون في أنه أثبت من عبد الوارث..

وكان ابن علية يمارس التجارة مثلما كان يفعل أبوه، ثم ولي صدقات البصرة، ثم انتقل إلى بغداد وولي متابعة شكاوى الناس والذي يسمى ديوان المظالم في أواخر خلافة الرشيد، واشترى بها داراً أقام بها هو وولده إبراهيم حتى توفي سنة ١٩٣هـ، ودفن ببغداد..

إسماعيل بن إبراهيم، أمه علية وقد نُسب إليها، ولد سنة ١١٠هـ، وتوفي سنة ١٩٣هـ، وهو أحد شيوخ أحمد في البصرة، وكان يرى فيه خير عوض عن الفقيه المحدِّث حماد ابن زيد..

إسماعيل بن علية شيخ الإمام أحمد في البصرة

حفظه وتمكنه

كان ابن علية من الحفظ والأمانة بحيث أخذ عنه صفوة الحفاظ، مثل شعبة بن الحجاج، وابن جريج، وهما من شيوخه، وأخذ عنه إبراهيم ابن طهمان الخراساني، وممن أخذ عنه - وهم أقرانه - : حماد بن زيد، وعبد الرحمن بن مهدي، وبقية بن الوليد بن صائد، كما أخذ عنه إمامان جليلان، هما: الشافعي وأحمد، وذلك فضلاً عن كبار المحدثين من أمثال يحيى بن سعيد، وعلي بن المديني، وأبي خيثمة زهير بن حرب..

وهناك بين رجال الحديث ما يشبه الإجماع على حفظ ابن علية، وأمانته، وصدقه في الرواية، وقد اتفق على أنه لم يحدِّث من كتاب قط، وإنما كان حافظاً لحديث رسول الله ﷺ عن ظهر قلب..

يقول قتيبة بن سعيد المحدث الحافظ: كانوا يقولون: الحفاظ أربعة: إسماعيل بن علية، وعبد الوارث، ويزيد بن زريع، ووهيب..

وفي حفظ ابن علية وتمكنه يورد الخطيب البغدادي هذا الخبر:

اجتمع حفاظ أهل البصرة، وحفاظ أهل الكوفة لمقارنة حفظهم، فقال أهل الكوفة لأهل البصرة: نحّوا عنا إسماعيل - يعني ابن علية - وهاتوا من شئتم (أي أخرجوا من المقارنة ابن علية وهاتوا من تشاؤون غيره)، وهذا يعني أن ابن علية لم يكن سيد محدثي البصرة وحسب؛ وإنما كان مشهوداً له بالتفوق والأمانة عند حفاظ أهل الكوفة، وهم أنداد عدول لأهل البصرة..

ويقول أبو داود السختياني عن ابن علية وتثبته وبعده عن الخطأ: ما أحد من المحدّثين إلا وقد أخطأ، إلا إسماعيل بن علية، وبشر بن المفضل..

ويقول شيخ محدثي البصرة، وإمامهم شعبة بن الحجاج: إسماعيل بن علية سيد المحدّثين، ويقول عنه: إسماعيل بن علية ريحانة الفقهاء..

والإمام أحمد بن حنبل يقول في شيخه ابن علية: كان حماد بن زيد لا يعبأ إذا خالفه الثقفي ووهيب، وكان يهاب إسماعيل بن علية إذا خالفه..

وأما حماد بن سلمة وهو أحد الحمادين فكان يقول: القول ما قاله إسماعيل..

أجمع المحدّثون على تثبت ابن علية وحفظه وأمانته، وصدقه في الرواية، وأنه لم يحدّث من كتاب قط، وإنما عن ظهر قلب، مما جعل كبار المحدثين والفقهاء والعلماء يأخذون عنه، لثقتهم بروايته..

ارحم شيبتي

كان إسماعيل بن علية إلى ذلك كله، عابداً متبتلاً، قارئاً للقرآن الكريم، وقوراً، لا يضحك ولا يبتسم، فقد ذكر بعض تلاميذه أنه جالسه عشرين سنة فما رآه يضحك..

ويقول علي بن المديني: بتّ عنده ليلة فقرأ ثلث القرآن، وما ضحك قط..

وبين ابن علية وعبد الله بن المبارك سيد العلماء في زمانه حدثت هذه القصة:

كان ابن المبارك يمارس التجارة حتى يستطيع أن يؤمن لنفسه وأسرته الكفاف، وفي ممارسته للتجارة يقول: لولا خمسة ما اتجرت (أي لولا حرصي على توفير المال لخمسة من العلماء لأجل أن يتفرغوا للعلم، لم أدخل في التجارة).

فقيل له: يا أبا محمد، مَن الخمسة؟

فقال: سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السمَاك، وابن علية..

وكان يخرج فيتجر إلى خراسان، فكلما ربح شيئاً أخذ القوت لعياله، ومقدار ما يكفيه لنفقة الحج، والباقي يصل به إخوانه الخمسة..

فقدم سنة فقيل له: قد ولي ابن علية القضاء، فغضب ابن المبارك لأنه يرى أن العالم يجب أن لا يأخذ المناصب الرسمية حتى لا يتحكم به السلطان، فلم يأته ولم يصله بالصرة مثل كل سنة..

فبلغ ابن علية أن ابن المبارك قد قدم، فركب إليه، ولكن عبد الله بن المبارك لم يلتفت إليه، ولم يكلمه، فانصرف، فلما كان من غد كتب إليه ابن علية رقعة فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أسعدك الله بطاعته، وتولاك بحفظه، وحاطك بحياطته، فقد كنتُ منتظراً لبرك وصلتك، أتبرك بها، وجئتك أمس، فلم تكلمني، ورأيتك واجداً عليّ، فأي شيء رأيت مني حتى أعتذر إليك منه؟"

فلما وردت الرقعة على عبد الله بن المبارك، دعا بالدواة والقرطاس، وقال: يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا، ثم كتب إليه أبياتاً يخبره فيها بسبب تحامله عليه، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

احتلْتَ للدنيا ولذّاتها ... بحيلةٍ تذهبُ بالدِّينِ

فصرْتَ مجنوناً بها بعدهم ... كنتَ دواءً للمجانينِ

أينَ رواياتُكَ في سَرْدِها ... عن ابنِ عَوْنٍ وابنِ سيرينِ

أينَ رواياتُكَ في سَرْدِها ... لتركِ أبوابِ السَّلاطينِ

إنْ قلتَ أُكرِهْتَ فذا باطلٌ ... زَلَّ حمارُ العِلمِ في الطينِ

فلما وقف ابن علية على هذه الأبيات، قام من مجلس القضاء، فوطئ بساط هارون الرشيد، وقال: يا أمير المؤمنين، الله الله، ارحم شيبتي، فإني لا أصبر للخطأ..

فقال له هارون: لعلّ هذا المجنون أغرى عليك..

فقال: الله الله، أنقذني أنقذك الله..

فأعفاه من القضاء، فلما وصل الخبر إلى عبد الله بن المبارك بعد ذلك، وجّه إليه الصرة..

لقد كان هؤلاء العلماء، الأئمة الأعلام، يَرون أنه مما ينتقص من قدر العالم أن يقوم بوظيفة ما في الدولة؛ لما تستدعيه الوظيفة أحياناً من ظلم أو خداع، وهو ما لا يجمل بالعلماء أن يتورطوا فيه، ولا ينبغي لهم أن يفعلوه..

ولعل هذه المواقف هي التي شكلت شخصية الإمام أحمد في رفضه لأي منصب رسمي أو أي هدية من الحاكم..

مع ما كان يتصف به ابن علية من التقوى والعبادة، والتبتل، إلا أنه لما تولى منصب القضاء في الدولة حمل عليه ابن المبارك، وأنّبه كثيراً على ذلك، لأنه يرى أنه لا يليق بالعالم أن يتولى منصباً في الدولة، مما جعل ابن علية يترك هذا المنصب، وينقطع للعلم..



المحدث الإمام سفيان بن عيينة

٥ سفيان بن عيينة

هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران، وقيل: سفيان بن عيينة بن أبي ميمون، وكنيته أبو محمد، ولد في الكوفة سنة ١٠٧هـ ثم هاجر مع أبيه لأسباب سياسية إلى مكة، وجدّ في طلب العلم حتى صار يُعرف بمحدث الحرم المكي..

وكان سفيان من الموالي، ولم يكن عربي الأصول.

ولم يكن نبوغ سفيان بالأمر المستغرَب، فهو إلى ذكائه وفطنته، نشأ في بيت علم، والعلم يرفع من قدر المرء، ولو كان من الموالي؛ فلقد قضى الإسلام على هذه النعرة الجاهلية، وآخى بين العربي وغيره، وساوى بين السيد والمولى..

لقد كان والد سفيان يشجع أبناءه جميعاً على التعلم، وكان لسفيان تسعة أخوة، نبغ منهم أربعة غيره، وجلسوا للحديث، وهم: محمد، وآدم، وعمران، وإبراهيم، أبناء عيينة..

سفيان بن عيينة، أبو محمد، ولد سنة ١٠٧هـ في الكوفة، هاجر مع أبيه إلى مكة، وجدّ في طلب العلم، حتى صار يُعرف بمحدِّث الحرم المكي، ولم يُنقِص من قدره أنه من الموالي وليس عربياً..

الغرسة الطيبة

كان عيينة والد سفيان، يرعاه ويعلمه العبادات، منذ أن كان صغيراً، ويذكر سفيان: أن أباه اصطحبه معه إلى الحج وله من العمر ست سنين، ويقول والده: إنه حجّ به سبعاً وعشرين حجة إلى أن بلغ نيفاً وثلاثين، وهذا يعني أن عيينة قد اكتحلت عيناه، ونعمت أذناه برؤية ولده سفيان جالساً للتحديث، وسمعه يروي حديث الزهري وابن دينار، فلقد جلس سفيان للتحديث وهو حَدَث - حسب تعبيره - .. إن الغرسة الطيبة التي غرسها عيينة، نمت وترعرعت وأثمرت الخير في وقت مبكر، ولا شك أنه كان بذلك شاكراً لله، حامداً فضله؛ وهل هناك أجلّ من أن يرى الأب ولده عالماً يجلس على كرسي الأستاذ؟ ينثر على الناس علمه، ويحدثهم بحديث رسول الله ﷺ.

يقول سفيان بن عيينة: أول من أسندني إلى الأسطوانة - يعني طلب إليّ الجلوس للتحديث - : مسعر بن كدام، فقلت: إني حَدَث (أي أنا شاب صغير).

فقال: إن عندك الزهري، وعمرو بن دينار، أي عندك أحاديث الزهري، وأحاديث عمرو بن دينار..

ولقد كان ذلك صحيحاً، فقد لقي سفيان كلاً من ابن شهاب الزهري، وعمرو بن دينار، وجلس إليهما، وعمره ست عشرة سنة، إن سفيان يروي خبر تلقيه عن الحافظين الكبيرين وهو في هذه السن المبكرة، ويضيف قائلاً: زعموا أن الزهري قال: ما رأيت طالباً لهذا الأمر أصغر سناً منه..

رعى عيينة ولده سفيان منذ صغره، وكان يعلمه العبادات، واصطحبه معه إلى الحج سبعاً وعشرين مرة، وقد قرّت عين الأب بالغرسة الطيبة التي نمت وترعرعت، وأثمرت في وقت مبكر، حيث رآه يجلس ويحدِّث أحاديث رسول الله ﷺ عن الزهري وابن دينار..

صفوة الأئمة

أدرك

سفيان نيفاً وثمانين من التابعين، حسب رواية الخطيب البغدادي، وكان يقول: ليس بيني وبين أصحاب النبي ﷺ إلا ستر (يعني ليس بينه وبين الصحابة في رواية الحديث إلا رجل واحد)..

فقد سمع من ابن شهاب الزهري، وعمرو بن دينار، كما روى عن أبي إسحاق السبيعي، وعبد الله بن دينار ابن أسلم، ومنصور بن المعتمر، وأبي الزناد، وأيوب السختياني، وغيرهم كثيرين..

أما من رووا عن ابن عيينة فكثيرون، إنهم صفوة الأئمة، ورؤوس الحفاظ، روى عنه: سفيان الثوري، والأعمش، وشعبة بن الحجاج، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، وما أدراك ما هؤلاء؟! إنهم بعض مصابيح هذه الأمة..

وروى عنه أيضاً أبو معاوية الضرير، وأبو نعيم، والحميدي صاحب الشافعي، وابن وهب صاحب مالك، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة، وقتيبة بن سعيد، وغيرهم..

إن سفيان صاحب مدرسة كبرى من مدارس الحديث والفقه، وكانت حلقته حول الكعبة قريبة من بئر زمزم، وقد اتخذ الشافعي لنفسه حلقة قريبة من حلقة سفيان، وكان سفيان يسمع من الشافعي، ويسأله عن أمور ربما خفيت عليه من الحديث واللغة، ولا تثريب عليه في ذلك، فالعلماء يأخذ بعضهم من بعض، ويكمل بعضهم علم بعض، وكثيراً ما أخذ الكبير عن الصغير في العلم، ما دام علم الأصغر علماً صحيحاً سليماً..

روى سفيان عن خيار الأئمة من التابعين، وروى عنه كثير من صفوة الأئمة ورؤوس الحفاظ من مصابيح هذه الأمة، فقد كان سفيان صاحب مدرسة كبرى من مدارس الحديث والفقه..

مجلس عذب

جلس

سفيان يملي الحديث سنة ١٤٢هـ، وكان من وفرة العلم، وشدة الثقة بنفسه، بحيث حدّث في حياة الأعمش في عرينه في الكوفة، والأعمش سليمان بن مهران، واحد من الرجالات الذين تفخر الكوفة بعلمهم، وتعتز بسلوكهم، وكان سفيان من البيان، وحسن الصوت، وجمال الأداء، وجرس الإيقاع، بحيث يغري الناس بالجلوس إليه، والالتحاق بحلقته؛ وكان فضلاً عن صوته العذب، وأدائه الأخاذ، متمكناً في علمه، كان يقول: ما كتبت شيئاً قط إلا حفظته قبل أن أكتبه..

وهكذا نرى أن الأمر على زمان هذا الرعيل الجليل، على العكس مما هو عليه في رعيلنا المعاصر، إن قومنا يحفظون المكتوب، وأما أولئك فكانوا يكتبون المحفوظ حتى لا ينسوه، إن الأصل في التحديث أن يكون من الحافظة، وإن المحدثين كانوا يفخرون بأنهم يحدِّثون الأحاديث بأسانيدها، دون الاستعانة بورقة أو كتاب، وإن كان من منهج البعض الآخر الرواية قراءة من الكتب من شدة الورع مخافة أن يخطئوا في أحاديث النبي ﷺ ..

جمع سفيان بن عيينة مع وفرة علمه وتمكنه فيه: صوتاً عذباً، وأداءً أخاذاً، يغري الناس بالجلوس إليه والاستماع منه، وكان لشدة تمكنه لا يكتب إلا شيئاً حفظه قبل أن يكتبه، على عكس ما نحن عليه، فنحن نحفظ المكتوب، وهم يكتبون المحفوظ، حتى لا ينسوه..



قولٌ سديد

و لسفيان قول سديد في الحكمة جدير بأن يُحفظ، ويردد على الأسماع، فمن ذلك قوله:

ليس العالِم الذي يعرف الخير والشر، إنما العالم الذي يعرف الخير فيتبعه، ويعرف الشر فيجتنبه.

أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر..

الغيبة أشد من الدَّين، الدَّينُ يُقضى، والغيبة لا تُقضى..

كان ابن عيينة يتمثل بهذه الأبيات:

إذا ما رأيتَ المرءَ يقتادُه الهوى ... فقد ثكلَتْهُ عند ذاكَ ثواكلُه
وقد أشمَتَ الأعداءَ جهلاً بنفسه ... وقد وجدَتْ فيه مقالاً عواذِلُه
ولن ينزعَ النفسَ اللحوحَ عن الهوَى ... من الناسِ إلا وافرُ العقلِ كاملُه

هذا ولسفيان بن عيينة تفسير للقرآن، وردت بعض نماذجه في كتب الطبقات والتراجم..
وكان سفيان بن عيينة زاهداً عابداً، حج آخر حجة له سنة ١٩٧هـ، فقال: هذه تكمل لي سبعين وقفة بعرفة، ومات في أول رجب من السنة التالية هو ١٩٨هـ، عن إحدى وتسعين سنة، من عمر مديد، خصيب، مبارك العطاء..

كان سفيان بن عيينة زاهداً عابداً، له أقوال سديدة في الحكمة جديرة بأن تُحفظ، وله تفسير للقرآن الكريم، توفي سنة ١٩٨هـ عن إحدى وتسعين سنة، رحمه الله تعالى، وقد حج سبعين مرة.

٦ عبد الرزاق بن همام الصنعاني

إنه عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني، إمام الحديث في صنعاء، كان خزانة علم حسب وصف الذهبي له، إليه كانت تشد الرحال من جميع أصقاع العالم الإسلامي؛ لتسمع منه حديث رسول الله ﷺ، وقد انتظم اسمه عقد كبار الحفاظ العلماء المحدثين، فيُذكر اسمه (عبد الرزاق) مجرداً دون اسم أبيه أو لقبه، وذلك لشهرته وإمامته ومكانته، تماماً مثلما نقول: أحمد، فإنه ينصرف الذهن إلى الإمام أحمد، وإذا قلنا: مالك، ينصرف الذهن إلى الإمام مالك.. وهكذا..

ينتمي عبد الرزاق إلى أسرة علم، احتفلت بحفظ حديث رسول الله ﷺ، فقد كان أبوه وعمه حافظين، فروى عنهما، كما روى عن معمر بن راشد الأزدي البصري، ساكن صنعاء، كما أخذ العلم والحديث عن كبار علماء الأمة ومحدثيها، وساح في الأقطار والأمصار سامعاً ومحدثاً، فروى عن عبيد الله بن عمر بن حفص، حفيد الفاروق عمر t، وعن عبد الله أخي عبيد الله، وعن ابن جريج، والأوزاعي، ومالك، والسفيانيين، وإسماعيل بن عياش وغيرهم..

الإمـام المحـدث عبد الرزاق الصنعاني

عبد الرزاق انتظم اسمه في عقد كبار الحفاظ المحدِّثين، مجرداً دون اسم أبيه أو لقبه، لشهرته وإمامته، فهو إمام الحديث في صنعاء، كان خزانة علم، وإليه كانت تشد الرحال من جميع أصقاع العالم الإسلامي..

حفظه ومكانته

لقد

كان عبد الرزاق منذ حداثته من الفطنة والذكاء، والحفظ والإقبال، بحيث يبشر بمستقبل يجعل منه واحداً من أئمة علماء المسلمين، علماً وفقهاً وحديثاً..

وإن معمر بن راشد البصري المحدِّث، المقيم في صنعاء، يُسأل عمن يأتي إليه من طلّاب الحديث، فيجيب قائلاً: يختلف إلينا أربعة: رباح بن زيد، ومحمد بن ثور، وهشام بن يوسف، وعبد الرزاق..

ثم يصف معمر كل واحد من تلامذته الأربعة فيقول:

فأما رباح فخليق أن يغلب عليه العبادة.. وأما هشام فخليق أن يغلب عليه السلطان.. وأما ابن ثور فكثير النسيان.. وأما عبد الرزاق فإن عاش، فخليق أن تُضرَب إليه أكباد الإبل (أي يأتي طلاب العلم من مسافات طويلة على الإبل إلى صنعاء ليطلبوا منه العلم)..

ويعلق ابن أبي السري على قول معمر بعد أن علا شأن عبد الرزاق قائلاً: فوالله لقد أتعبها، أي أتعب الإبل في أن تُضرب أكبادها إليه..

لقد غصّت صنعاء بالرجال يسمعون من عبد الرزاق ويحفظون حديثه، وكان عبد الرزاق من جلال القدر؛ بحيث روى عنه بعض شيوخه مثل: سفيان بن عيينة، ومعتمر بن سليمان، ثم رحل إليه وسمع منه الإمام أحمد ومعاصروه من العلماء والمحدثين من أمثال: إسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وغيرهم، وقصة رحلة الإمام أحمد إليه في اليمن معروفة، وقد سبقت الإشارة إليها..

لقد صدقت فراسة معمر بن راشد الذي قال عن عبد الرزاق: إن عاش فخليق أن تُضرَب إليه أكباد الإبل، نعم، لقد عاش وضُربت إليه أكباد الإبل حتى أتعبها، روى عنه بعض شيوخه، وكثير من علماء المسلمين وأئمتهم، فقد كان شديد الفطنة والذكاء والحفظ..

٧ علماء آخرون

وتذكر كتب التراجم: أن من شيوخ ابن حنبل كبار القراء، من أمثال يحيى ابن آدم، وسعيد بن الصباح، وإسماعيل بن جعفر، فقد كان إسماعيل قارئ أهل المدينة في عصره، ورحل إلى بغداد وتوفي بها سنة ١٨٠هـ.

ومن العلماء الحفاظ الذين استمع إليهم أحمد في بغداد، وهو على بداية الدرب، المحدِّث الحافظ، أبو بكر بن عياش..

وثمة عالم حافظ آخر ينتظم هذا العقد الثمين من الأئمة والمحدِّثين، الذين أخذ أحمد عنهم علم الحديث في بغداد، وهو الحافظ عمير بن عبد الله بن خالد، المتوفى سنة ١٨٢هـ.

ولقد سمع في بغداد أيضاً من حافظ بصري ثقة، شريف نبيل، هو عبّاد بن عبّاد العتكي، المتوفى ببغداد سنة ١٨١هـ.

وفي بغداد يستمع أحمد إلى محدِّث البصرة وعالمها الكبير: عبد الرحمن ابن مهدي، يقول الإمام أحمد: "قدم علينا عبد الرحمن بن مهدي سنة ثمانين ومائة، وقد خضب وهو ابن خمس وأربعين سنة، وكنت أراه في المسجد الجامع"..

هذا ويعتبر من شيوخ الإمام أحمد كل من تلقى عليه فقهاً، أو أخذ عنهم سنة، أو روى عنهم حديثاً، سواء أكان قد انتقل إليه، أم كانوا معه في بغداد، ولقد أحصى ابن الجوزي في مناقب أحمد شيوخه عداً، فتجاوزت حسبتهم المائة، وقد اكتفينا بذكر أبرز هؤلاء الشيوخ، وأكثرهم تأثيراً في توجيهه وعلمه..

كثُر عدد شيوخ أحمد حتى تجاوز عددهم المائة، ولسنا نستطيع إحصاءهم جميعاً، فاكتفينا بذكر أبرزهم وأكثرهم تأثيراً في أحمد ابن حنبل..



إحسان وعلم

كان عبد الرزاق يعطف على تلاميذه ويساعدهم بالمال، مثلما كان يفعل الإمام أبو حنيفة، ولكن عبد الرزاق كان أقل مالاً من الإمام الأعظم..

إن عامين من إقامة أحمد بن حنبل في صنعاء، والجلوس إلى عبد الرزاق، سببها وفرة علم شيخ صنعاء، وكان أحمد بن صالح المصري يقول لأحمد بن حنبل: أرأيت أحسن حديثاً من عبد الرزاق؟ فيقول أحمد: لا..

إن عبد الرزاق كان ممن جمع، وصنف، وحفظ وذاكر، وكان يحدث من كتاب، وبه تأثر الإمام أحمد بعد ذلك، فكان لا يحدث إلا من صحيفة أو صحف مكتوبة، وكان عبد الرزاق يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث..

وله كتاب: (الجامع الكبير) في الحديث، وكتاب (تفسير القرآن العظيم) وهو تفسير نفيس لا يزال مخطوطاً حتى الآن..

لقد كان عبد الرزاق بفضله وعلمه خليقاً بأن يكون واحداً من شيوخ الإمام أحمد..

كان عبد الرزاق ممن جمع، وصنف، وحفظ، وكان لا يحدث إلا من كتاب، وإن إقامة أحمد بصنعاء، نحو عامين لتدل على وفرة علم هذا الشيخ، بالإضافة إلى إحسانه وعطفه على تلاميذه، ومساعدتهم بالمال، له كتاب في الحديث، وكتاب في التفسير..





الباب الثاني
تميّز الإمام





الباب الثاني

تميّز الإمام

الفصل الأول

الصفات الشخصية



- الإمام أحمد كأنك تراه
- الحالة الاجتماعية والمالية
- رفض الولاية وعطاء الخلفاء



١ الإمام أحمد كأنك تراه

كان الإمام أحمد رجلاً طُوالاً، نحيفاً، أسمر اللون، كثير التواضع، ويقول ابن ذريح العكبري: كان شيخاً مخضوباً، أسمر، شديد السمرة..

ويقول أبو داود: رأيت أحمد بن حنبل رجلاً حسن الوجه، ربعة في الرجال (ليس بالطويل ولا بالقصير)، يخضب بالحناء خضاباً ليس بالقاني، في لحيته شعرات سود..

وقال عبد الله بن أحمد: خضب أبي رأسه ولحيته بالحناء، وهو ابن ثلاث وستين سنة، يلبس ثياباً غليظة إلا أنها بيض، ويعتمَ، ويلبس الإزار..

يقول الميموني: كانت ثياب أحمد بين الثوبين، وكان ثوبه يؤخذ بالدينار ونحوه، ولم تكن له رقة تنكر، ولا غلظ ينكر..

وقال الفضل بن زياد: رأيت على أبي عبد الله في الشتاء قميصين وجبّة ملونة بينهما، وربما لبس قميصاً، وفرواً ثقيلاً، وربما رأيت عليه في البرد الشديد الفرو فوق الجبة، ورأيت عليه عمامة فوق القلنسوة (غطاء للرأس يشبه الطاقية الحالية)، وربما لبس القلنسوة بغير عمامة..

وقال صالح بن أحمد بن حنبل: كانت لأبي قلنسوة، وقد خاطها بيده، فيها قطن، فإذا قام بالليل لبسها..

وقال حميد بن زنجويه: رأيت على أحمد بن حنبل جبة خضراء، فيها رقعة بيضاء من صوف..

وقال المروذي: أعطاني - أي أحمد - خفاً له لأُرمَّه، قد لبسه سبع عشرة سنة، فإذا فيه خمسة مواضع، أو ستة مواضع، الخرز فيه من ظاهره..

كان أحمد رجلاً طويلاً، حسن الوجه، أسمر اللون، رقيقاً، يخضب رأسه ولحيته بالحناء، يلبس ثياباً غلاظاً، إلا أنها بيض، ويضع العمامة فوق القلنسوة..

الإمـام أحمد يمشي طلباً لحديث النبي ﷺ

المظهر العام

وكان أحمد نظيفاً في ملبسه، أنيقاً في هيئته، في نطاق الحفاظ على زهده، فليس ثم تضاد بين أناقة المظهر وسلامة الهيئة، وبين الالتزام بسلوك الزهّاد..

وإن الميموني تلميذ الإمام يصفه قائلاً: ما أعلم أني رأيت أحداً أنظف ثوباً، ولا أشد تعاهداً لنفسه في شاربه وشعر رأسه، وشعر بدنه، ولا أنقى ثوباً وشدة بياض، من أحمد بن حنبل..

ذلك كان المظهر العام للإمام أحمد، نظيف الثياب أبيضها، مرتب الملبس، وضّاء الوجه رغم سمرته، تزين رأسه عمامة جليلة، وهو إلى ذلك كله تعلوه مهابة تذكرنا بهيبة الإمام مالك، على ما بين لون وجهيهما من فرق، فمالك أبيض وهذا أسمر، ولكن المهابة غير مرتبطة بلون أو جنس، وإنما هي هبة من عند الله سبحانه، ينميها سلوك المرء، وتربيها مروءته..

نظيف في ملبسه، أنيق في هيئته، شديد بياض الثياب، شديد التعهد لنفسه، وضّاء الوجه رغم سمرته، تزين رأسه عمامة جليلة، وتعلوه المهابة، ذلك كان المظهر العام للإمام أحمد..

صفة بيته



علي بن المديني: دخلت منزل أحمد بن حنبل، فما شبهت بيته إلا بما وصف من بيت سويد بن غفلة - من كبار التابعين - من زهده وتواضعه..

وقال عبد الملك الميموني: كان منزل أبي عبد الله منزلاً ضيقاً صغيراً..

وقال الحسن بن سيَّار: دخلت إلى أحمد بن حنبل وأنا صبي مع أستاذي، يجصص له بيتاً، فقال له أحمد: جصصه باليد، ولا تمسحه بالمالج (أداة تستخدم ليصبح الجص ناعماً).. ثم فرشناه بالطوابيق (الآجر الكبير) فلما فرغنا استحسنه وقال: هذا نظيف يصلي عليه الرجل.. وليس فيه بارية (الحصير المنسوج) ولا حصير قش..

كان منزل الإمام أحمد ضيقاً صغيراً، متواضعاً، أشبه ما يكون ببيوت الزهاد من التابعين..


منزل الإمام أحمد في بغداد

مطعمه

قال

صالح بن أحمد: ربما رأيت أبي يأخذ الكسرة فينفض الغبار عنها، ثم يصيرها في قصعة، ويصب عليها الماء حتى تبتل، ثم يأكلها بالملح، وما رأيته قط اشترى رماناً ولا سفرجلاً، ولا شيئاً من الفاكهة، إلا أن يكون يشتري بطيخة فيأكلها بخبز، أو عنباً أو تمراً، وربما خُبز له فيجعل في فخارة عدساً وشحماً، وتمرات شهريز، وكان كثيراً ما يأتدم بخلّ، وكان لا يطرح في قدره فلفلاً ولا ثوماً..

قال النيسابوري: قال لي الأمير - وهو إسحاق بن إبراهيم - إذا جاؤوا بإفطاره فأرنيه، فجاؤوا برغيفين خبزاً وخيارة، فأريته الأمير، فقال: هذا لا يُجيبنا، إذا كان هذا يُقنعُه (أي لا مجال لتأثير السلطان عليه ما دام قنوعاً بهذه الدرجة فلن يطمع بما لدى السلطان)..

يأخذ الكسرة فينفض عنها الغبار ويبلها بالماء، ثم يأكلها بالملح، طعام مَنْ؟! إنه طعام الإمام أحمد، لم يكن يهمه ما يأكل، إنها لقيمات يقمن صلبه وحسب، لم يشترِ الفاكهة، إلا بطيخاً أو عنباً، أو تمراً، فيأكلها بخَبز، وكثيراً ما كان يأتدم بِخَلّ..



الإمام أحمد يضع الخبز اليابس في الماء ليأكله

٢ الحالة الاجتماعية والمالية

لم يتزوج الإمام أحمد حتى بلغ من العمر قريباً من الأربعين لفقره ولانشغاله بالعلم، وكانت أولى زوجاته عائشة بنت الفضل، وهي من العرب، من الربض، عاشت مع الإمام أحمد ثلاثين سنة، وأنجبت له ولدهما صالحاً، يقول الإمام أحمد: أقامت معي أم صالح ثلاثين سنة، فما اختلفت أنا وهي في كلمة..

ثم تزوج ريحانة، وهي أم ولده عبد الله..

وبعد وفاة أم عبد الله، اشترى جارية اسمها (حُسْن) فولدت منه (زينب)، ثم ولدت الحسن والحسين توأمين، وماتا بعد ولادتهما، ثم ولدت الحسن ومحمداً، فعاشا إلى نحو الأربعين سنة، ثم ولدت بعدهما (سعيداً)..

هكذا كانت الحياة الأسرية للإمام أحمد، ستة أولاد من زوجتين وأم ولد، خمسة أولاد، وابنة واحدة، نبغ في الفقه منهم صالح وعبد الله، وأما سعيد فقد ولي قضاء الكوفة فيما بعد..

تزوج أحمد عائشة بنت الفضل، وكان قد قارب الأربعين، وأنجبت منه صالحاً، ثم تزوج ريحانة وأنجبت عبد الله، ثم تسرّى بجارية اسمها (حُسْن) وأنجبت منه زينب، والحسن والحسين ماتا بعد ولادتهما، ثم الحسن ومحمداً، وسعيداً.. هذه كانت أسرة الإمام أحمد.

فقير عزيز النفس

عاش أحمد فقيراً، مكدوداً، محدوداً، ولم يعش غنياً ذا مال وفير، وكان يؤثر الخصاصة والفقر على أن يكون ذا مال لا يعرف أنه حلال خالص، أو يكون فيه منّةُ العطاء، وكثيراً ما كانت تضطره حاله أن يعمل بيديه ليكسب، أو أن يؤجر نفسه في عمل يعمله إذا انقطع به الطريق، ولم يكن معه مال، وكان يؤثر ذلك على أن يقبل عطاء، فإن العطاء في مثل هذه الشدة، وممن يعجز عن مكافأته في زمن قريب، لا يستطيع أن يتحمله أحمد العيوف (الذي يدع الطعام والشراب) الأبيّ، وقد حرّر بذلك نفسه، وأتعب جسمه، وتلك كانت حاله دائماً، عندما يتردد بين تعب النفس، وتعب الجسم..

حرّر أحمد نفسه من منّة العطاء، وكان يؤثر الخصاصة على أن يكون له مال لا يعرف أنه حلال خالص، فكان يعيش عيشة الكفاف..

مورد رزقه



أحمد يعيش من أجرة عقار قد تركه له أبوه، جاء في المناقب لابن الجوزي: "كان أحمد رحمه الله قد خلّف له أبوه طرزاً، وكان يأكل من غلة تلك الطرز، ويتعفف بكرائها عن الناس".

ويظهر أنه كانت له دكاكين يؤجرها، فقد جاء في حلية الأولياء: "وقع من يد أحمد بن حنبل مقراض في البئر، فجاء ساكن له فأخرجه، فلما أخرجه ناوله أبو عبد الله مقدار نصف درهم، أو أقل أو أكثر..

فقال الرجل: المِقْراض يساوي قيراطاً، لا آخذ شيئاً، وخرج..

فلما كان بعد أيام قال له: كم عليك من كراء (أجرة) الحانوت (المحل)؟!

قال: كراء ثلاثة أشهر، وكراؤه في كل شهر ثلاثة دراهم، فضرب على حسابه، وقال: أنت في حلّ"..

فهذه القصة فوق دلالتها على أن أحمد ما كان يتحمل منّة، وأنه كان يجزي على المعروف أضعافاً، تدل على أنه كان له حوانيت، وأنها كانت تدر عليه غلة، وإن كانت لا تجعله في بحبوحة من العيش تسد خلته، وتدفع حاجته..

ونرى أيضاً من هذه القصة أن ذلك الأبيّ العفيف، كان يقدر مروءة الرجال حق قدرها، فقد رأى من ذلك الساكن هذه المروءة، ووجده فقيراً في حاجة، إذ عجز عن السداد ثلاثة أشهر، فأعفاه وحفظ مروءته..

ما كان أحمد يتحمل منّة، ولا يقبل عطاء من أحد، وإنما كان يعيش من غلة عقار تركه له أبوه، وطرز، يتعفف بكرائها عن الناس، حيث كانت تدر عليه غلة، وإن كانت قليلة، لا تجعله في بحبوحة من العيش..



العالم الكبير والمفسر الحجة (ابن كثير)

القناعة والصبر

إن الأخبار متضافرة على أن الغلة التي كانت تأتي أحمد لم تكن كبيرة، بل كانت ضئيلة، ولقد ذكر ابن كثير مقدارها، فقال: "وكانت غلته من ملك له في كل شهر سبعة عشر درهماً، ينفقها على عياله، ويتقنع بذلك رحمه الله، صابراً محتسباً"..

وهذه غلة قليلة بلا ريب، وسواء أصح ذلك المقدار أم لم يصح، فالأخبار متضافرة على أنها كانت ضئيلة، لا تكاد تكفي حاجته، لولا فرط القناعة والصبر، واستعداده لأن يطلب عيشهُ بالكد والتعب، ولقد كان يحرص كل الحرص على أن يكون مورد رزقه حلالاً من غير شبهة..

ولذلك يعلن أن ذلك العقار الذي كان يدر عليه ذلك الرزق المحدود يغلب على ظنه أنه ملكه عن أبيه حلالاً، ولو ادعاه شخص لسلمه إليه، جاء في المناقب: "سأل رجل أحمد بن حنبل عن العقار الذي كان يستغله، ويسكن داراً منه، كيف سبيله عنه؟ فقال له: هذا شيء قد ورثته عن أبي، فإن جاءني رجل، فصح أنه له خرجت عنه، ودفعته إليه"..

إن الغلة التي كانت تأتي أحمد ضئيلة، لا تكاد تكفي حاجته، لولا فرط القناعة والصبر، والاستعداد لطلب العيش بالكدّ والتعب، مع الحرص التام على أن يكون مصدر الرزق حلالاً، لا شبهة فيه..

اِعْمَل وتعَفَّف

لم يكن هذا المورد الضعيف من الرزق، يكفي الإمام أحمد لضرورات بيته وأهله، فكان يحاول أن يكسب مالاً حلالاً، ولا يبالي بالعمل الذي يأتيه بالمال مهما يقل فيه، وكان شعاره: اِعْمَل وتعفَّف، ولا تحتج إلى أحد، ولو كان من الأولياء أو أقرب الأقرباء..

وكان يعمل بكل وسيلة على سدّ رمقه، وحاجة عياله، فقد يلتقط بقايا الحبوب والزرع الذي يكون في حكم المباح، فكان ذلك العالم الجليل المحدِّث، يحمل حبله على عاتقه، ويذهب، فيجمع بقايا الزرع الذي يترك في الأرض مباحاً، وقد كان حريصاً على ألا ينزل في أرض أحد إلا بإذنه، وألا يفسد زرع أحد؛ ولذلك روي عنه أنه قال: "خرجت إلى الثغر على قدمي، فالتقطنا، وقد رأيت قوماً يفسدون مزارع الناس، لا ينبغي لأحد أن يدخل مزرعة رجل إلا بإذنه"..

اِعْمَل وتعفَّف كان شعار الإمام أحمد، فمهما كان المال الذي يأتي من العمل قليلاً، فهو أفضل من أن يعيش عالةً على الآخرين، ويأخذ من أعطياتهم..

اليد العليا

كان أحمد رحمه الله، لا يجد غضاضة في أن يعمل، مهما يكن نوع العمل، ما دام فيه نفع للناس، وسدّ لحاجته؛ فكل عمل شريف في ذاته، ما دامت النفس تعلو به، ولا تكون يد صاحبها هي السفلى، فلا صغار في عمل يحله الدين، ما دام يرفع الإنسان عن خسة التناول من أفضال الناس، ويغنيه عن ذل السؤال..

وقد كان يؤجر نفسه للحمل في الطريق، إذا انقطع به السبيل، ولم يجد ما ينفقه سوى هذه الأجرة، وكان يكتب بأجرة إن لم يجد ما ينفق منه.

ليس في العمل غضاضة، مهما كان نوع العمل، ما دام حلالاً، وما دام يرفع صاحبه عن حاجة الناس وذل السؤال، وهذه كانت قناعة الإمام أحمد ومنهاج حياته..

شرف العمل

وكان أحمد ينسج أحياناً، ويبيع ما ينسجه، ويأكل منه، حكى الذهبي عن إسحاق بن راهويه أنه قال: "كنتُ أنا وأحمد باليمن عند عبد الرزاق، وكنتُ أنا فوق الغرفة، وهو أسفل، وكنت إذا جئت إلى موضع اشتريت جارية، فأخبرتني الجارية أن نفقة أحمد انتهت، فعرضت عليه أن أساعده فامتنع، فقلت: إن شئتَ قرضاً، وإن شئت صلة، فأبى، فنظرتُ، فإذا هو ينسج التكك، ويبيع وينفق"..

وترى من هذا أن ذلك الإمام الجليل ما كان يجد في العمل غضاضة، مهما يكن نوع العمل، ما دام حلالاً، وفيه نفع للناس، فهو يقدم للناس ما يسدّ بعض حاجتهم، في نظير أن يأخذ مالاً يسدّ حاجته، وهذا قانون الحياة الإنسانية العاملة الدائبة، ذلك لأن أحمد كان رجلاً صالحاً، لا يهمه نظر الناس بمقدار ما تهمه نزاهة نفسه، وعدم نيلها المال إلا من حلّه، فهو لا يرى في العمل خسة؛ لأن الشرف الذاتي الصحيح، إنما يستمد من نفس صاحبه، وعلوّها عن الدنايا، ومنّة الناس، وإن الذين يجدون العار في صغار الأعمال، هم ضعاف الناس الذين لم يهبهم الله شرفاً ذاتياً في نفوسهم، فيسدون ذلك النقص الإنساني بهذا التعالي المادي، وكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له..

هذه هي النفس العظيمة، لا يضيرها أن تنزل إلى درك عمل ما، قد يستهين به الناس، ما دام حلالاً؛ ويرى ذلك أعلى وأجلَ من أن يمدّ يده بالحاجة إلى غيره، ولو كان أعزّ صديق، فليس في العمل حطّة، وإنما فيه الغنى عن الناس، والترفع عن الدنية، وهذا يجعله أعز بني الدنيا، فلا تستطيع قوة في الأرض أن تخضعه بالحاجة إليها، وهذه هي الحرية التي لا يدانيها حرية، لا من حاكم، ولا محكوم، ولا سيد، ولا مسود..

الشرف الصحيح إنما يُستمد من نفس صاحبه، وعلوها عن الدنايا، ومنّة الناس، والذين يجدون العار في صغار الأعمال، هم ضعاف الناس، فيسدّون النقص الإنساني بالتعالي المادي، فليس في العمل حطة، وإنما فيه الغنى والترفع، وهذه هي الحرية التي لا يدانيها حرية..

الاقتراض

ومن المسالك التي كان يسلكها أحمد لسد حاجته: أن يلجأ إلى الاقتراض، ويظهر أنه لم يلجأ إليه في كل الأحوال، وفي كل الأماكن، بل كان يلجأ إليه حيث تكون الأجرة قريبة، يترقب وجودها، وحيث يستوثق من أن المقرض ما قصد عطاء، وفي الحضر، لا في السفر؛ لأن مظنة الوفاء في الحضر قريبة، حيث الأمن والقرار، وليس السفر كذلك، وفي بعض الأحوال كان يأخذ قرضاً، معتزماً الوفاء في الميسرة، والمقرض قد أعطى على نية ألا يأخذ، فيختلفان ويصر أحمد على إرجاع القرض، فيتم له ما يريد..

كان قد استقرض مرة من أحد معاصريه، أهل التقى (الذين يعرف أن مالهم لم يجمع إلا من حلال) مقدار مائتي درهم، فذهب إليه يردها.

فقال له: يا أبا عبد الله، ما دفعتها إليك، وأنا أنوي أن آخذها منك.

فقال الإمام أحمد: وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوي أن أردها عليك"..

كان أحمد يلجأ إلى الاقتراض أحياناً، لسد حاجته، إلى حين تأتيه غلة قريبة أو مورد منتظر، ويردّ ما أخذ مهما حاول المعطي ألا يأخذ، ويتم له ما يريد..

٣ رفض الولاية وعطاء الخلفاء

هذا هو أحمد الذي شرّق اسمه وغرّب في حياته، والذي لا تزال الأجيال تذكره بعد وفاته بقرون، والذي ترك تلك التركة الثرية من العلم، ولم يترك شيئاً من حطام الدنيا، ولا بقية من بقاياها الفانية، ما ضره العمل ولا أنقص من مقامه، بل زاده رفعة في الأجيال؛ لأن المادة وإن غلبت على نفوس الناس، فإنهم لا يزالون يقدرون المعاني الروحية والعقلية، فإن عجزوا عن تحقيقها في أنفسهم، يعجبون بها في غيرهم، إن كان عندهم بقية من الإنصاف والمعاني الإنسانية..

قد رأينا كيف كان أحمد ضنيناً بنفسه أن تهون بمنة العطاء، وكيف كان شحيحاً بدينه فلا يأخذ المال إلا إذا كان حلالاً طيباً، لا تعلق به شبهة، ولا يتدرن بخبث، وكان عند الزكاة يبالغ في الإيجاب على نفسه، فيختار أشد الأقوال، حتى كان يدفع زكاة عن عقاره الذي يؤجره، وكذلك العقار الذي يسكنه (رغم أنه لا زكاة عليه)، مستأنساً بفتوى لعمر بن الخطاب عندما فتح سواد العراق.

وإذا كان أحمد كذلك في تعففه وبذله بالنسبة لسواد الناس، وأهل العلم والحديث، فهل كان كذلك بالنسبة لمال الخلفاء؟! وهو مال جمع من زكوات المسلمين، ومن فرائض فرضت عليهم، لينفق في المصالح العامة، ولا شك أن إعانة العلماء والمحدثين من مصارف ذلك المال، فإن أخذ فليس أخذه من مال الخلفاء، ولكن من مال الأمة التي صرف كل همته في نشر حديث رسولها ﷺ.

أحمد الذي شرّق اسمه وغرّب، ما غضّ من مقامه العمل، بل زاده رفعة في الأجيال وعبر القرون، لم يقبل عطاء من أحد؛ من شيخ أو صديق مهما كانت مكانته، فهل قَبِلَ عطاء الخلفاء؟!

أعفّ وأزهد

إن أحمد - رحمه الله - كان بالنسبة لمال الخلفاء أعف، وكان فيه أزهد، بل كان يبعده عن نفسه إلى درجة النفور منه، رفض أن يأخذه في عطاء أو من خليفة، بل رفض أن يأخذ من مال من يقبل عطاء الخلفاء، ولقد شدّد في ذلك، حتى لقد كان يمتنع أن ينتفع بأي وجه من أوجه الانتفاع، بأي شيء لشخص قد قبِلَ وقتاً ما بعضاً من مال السلطان..

شدّد أحمد في رفض عطاء الخلفاء، إلى درجة النفور منه، فكان عنه أعف، وفيه أزهد، ولم يقبله بأي صورة من الصور..

لم ترني عندك

ومما يروى بالنسبة للولاية أن الشافعي عندما جاء إلى بغداد في المرة الثانية التي أقام فيها، ونشر مذهبه بها، كان أحمد قد التزم مجلسه، ما كان يفارقه إلا لطلب حديث في السفر أو الحضر، ولاحظ الشافعي أن أحمد كان يرحل إلى اليمن لطلب الحديث عن عبد الرزاق بن همام كما بينا، وكان يلاحظ بعد الشقة، وعظم المشقة التي يعانيها أحمد في هذه الرحلة، بسبب أنه من المال في قل، وكان الشافعي مكيناً عند الخليفة العباسي الأمين، وقد كلّفه أن يختار قاضياً لليمن، فوجد الشافعي أن من باب التسهيل على أحمد أن يكون قاضي اليمن؛ ليسهل عليه السماع من عبد الرزاق من غير مشقة، وعرض على أحمد، فرفض، فكرّر الشافعي العرض، فقال أحمد في حزم للشافعي، وهو شيخه، وله منه التجلة والاحترام: "يا أبا عبد الله، إن سمعتُ منك هذا ثانية، لم ترني عندك"..

رفض أحمد أن يكون قاضي اليمن، مع أن الذي عرض عليه هذا المنصب شيخه وأستاذه الشافعي؛ ليخفف عنه مشقة السفر، ويسهّل عليه السماع من عبد الرزاق، لكنه رفض بحزم، وقال لشيخه الذي يُكنّ له المحبة والاحترام: إن أعدْتَ هذا العرض لم ترني عندك..

يختلف عن شيخه

نرى من هذا: أن أحمد رفض العرض الذي عرضه عليه شيخه؛ لأنه لا يرى العمل لسلطان لا يراه كامل العدالة؛ وهنا نجده يختلف عن شيخه، فالشافعي (مع إدراكه لمقدار عدم عدل الحكام) قبل ولايته باليمن، استمر فيها نحو أربع سنين، فهل كان دونه تورعاً؟!

والجواب: أن الشافعي يرى إقامة العدل واجبة، فلو دُعي لإقامته؛ ولو كان الداعي له غير عدل في ذاته تقدَّم؛ لأنه إن عمل، لا يعمل لحساب من ولّاه، إنما يعمل لله، ولا يغض من عدالته أن يكون من ولّاه غير عادل، فعمر بن عبد العزيز، وهو مَن نعلم إيماناً وتقىً وعدلاً، قَبِلَ ولاية العهد عن سليمان بن عبد الملك، وما كان سليمان إلا كبقية بني أمية، فما دام المُولّى يجد في نفسه الكفاية للعدل تولّى..

هذا نظر الشافعي، أما أحمد ومثله من قبله أبو حنيفة، فقد كان يرى في التولي من قِبَل الظالمين معاونة لهم، وأكلاً من مال جمعوه بغير حلّه، ولذلك رفضا تورعاً، وابتعدا عن كل معاونة لمن لا يرونه عدلاً..

أحمد ومن قبله أبو حنيفة، كان يرى في التولي من قِبَل الظالمين معاونة لهم؛ لذلك رفضا وابتعدا عن كل معاونة لمن لا يرونه عدلاً، أما الشافعي فكان يرى أن إقامة العدل واجبة، ولا يغض من عدالته أن يكون مَن ولّاه غير عادل..

علماء يرفضون عطاء الحكام

ومع رفض أحمد الولاية، كان يرفض كل عطاء يجيئه من قِبَل الخليفة أو الوالي، والحق أن الأئمة كانوا في ذلك منقسمين إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتعفف من مال السلطان والخلافة، ويرفض أن يأخذ، ويشدد في الرفض، ومن هؤلاء أبو حنيفة والثوري، فأبو حنيفة كان يعلم أن في الامتناع عن الأخذ تعريض نفسه للتلف؛ لأن المنصور كان يختبره بقبوله العطاء مقدار ولائه، ومع ذلك يمتنع، ويرجوه بعض رجال المنصور أن يأخذ المال ويتصدق به، ولكنه يأبى أن يدخله في ملكه ساعة من زمان، مهما تكن العواقب..

انقسم الأئمة في قبول عطاء الخلفاء، ورفضه إلى ثلاثة أقسام، فمنهم من تعفّف عن مال السلطان ورفضه، وتشدّد في الرفض، كأبي حنيفة والثوري، ومن سار على منوالهم.. وهذا هو القسم الأول.



الخليفة يبعث للإمام أحمد بعطاء والإمام يرفضه

وعلماء يقبلون عطاء الخلفاء

و

القسم الثاني: يقبل عطاء الخلفاء، ويستعين به في سدّ حاجات المعوزين، وإعانة من يحتاج إلى معونة من أهل العلم، وفي أن يعيش عيشة تليق بكرامة أهل العلم، وأهل الدين، من غير إسراف أو تبذير..

وعلى رأس هذا القسم: الحسن البصري، ومالك، لأنه مال المسلمين، ومن أحق به من أهل العلم والدين الذين وقفوا أنفسهم على تعليم الناس أمور دينهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؟! وهم في ذلك كالجند قد وقفوا أنفسهم لحماية الثغور من الأعداء، لكيلا يثلموا فيها ثلمة ينفذون منها إلى الأمة، فإنه إذا كان الجند كذلك، فإن العلماء يسهرون لمنع الضلال؛ ولئلا يثلم الدين الثلم الذي يصل إلى قلوب الأمة، فتزلّ قدم بعد ثبوتها، وتذوق السوء، وهذا بلا شك من مالك نظر له أساسه ووجهته، ويزكيه أن مالكاً - رحمه الله - كان يحترم الحال الواقعة من نظام الحكومة أياً كان، ومهما يكن حال الحاكم، ساعياً في تغيير نفسه بالإصلاح والموعظة الحسنة، وذلك يقتضي الاتصال لا المقاطعة، والاتصال يوجب عليه أن يقبل العطية ولا يردها..

القسم الثاني قَبِل عطاء الخلفاء، لأنه مال المسلمين، وأهل العلم والدين أحق به، فهم على ثغرة من ثغور الإسلام، ومن هؤلاء الحسن البصري والإمام مالك..

وعلماء وسط بينهما

و

القسم الثالث: وسط بين الأول والثاني، يقبل العمل للخلفاء، ويأخذ العطاء ويتصدق به، وإن كان نصيباً وحقاً مقسوماً وليس عطاء أخذه، ومن هذا القسم الشافعي، فقد تولى الولاية للرشيد، وقَبل عطاءه، ووزعه صدقات، وقَبل أن يأخذ سهم بني المطلب من الغنيمة، وقد كان لهم سهم فيها، لإلحاقهم ببني هاشم، إذ كانوا معهم في السلم والحرب، جاهلية وإسلاماً..

أما القسم الثالث فكان وسطاً بين الأول والثاني، يقبل العمل للخلفاء، ويأخذ العطاء، ولكنه يتصدق به، وكان الشافعي من هذا القسم..

مسلك أحمد

لا

شك أن أحمد اختار مسلك أبي حنيفة، وإن كان حال أحمد تجعل اختياره أعظم ابتلاء، لأنه كان فقيراً، فهو يرفض عطاء الخلفاء وغيرهم، ويؤجر نفسه، ويكتب للناس الكتب بالأجر، فكان في رفضه المتحمل الصبور، وأبو حنيفة كان رجلاً ثرياً، له تجارة تدر عليه الدرّ الوفير، وكان يسدّ به حاجة الفقهاء والمحدثين الذين كانوا على اتصال به، وله على أي حال الفضل الكبير..

كان أحمد يرفض عطاء الخلفاء، ولو كان عاماً للناس ولا يخصه، حتى ولو لم يقصد به شخصه (بل وصفه) حيث يروى أن المأمون دفع إلى شيخ من شيوخ الحديث في عصره مالاً؛ ليقسمه على أصحاب الحديث؛ لأن فيهم ضعفاء أراد أن يعينهم على ما خصصوا أنفسهم له، فما بقي منهم أحد إلا أخذ ما عدا أحمد بن حنبل..

اختار أحمد مسلك أبي حنيفة، مع ما بينهما من الفرق المادي، فأبو حنيفة كان رجلاً ثرياً، بينما كان أحمد فقيراً، فكان في رفضه العطاء، المتحمل الصبور..

إصرار شديد

اختُبر أحمد اختباراً قاسياً على النفس، في عصر المتوكل؛ ذلك أن المتوكل عرض عليه المال الكثير، والدر الوفير، وألح في العرض، وشددت حاشيته على أحمد فيه، فأصرَّ أحمد على الامتناع إصراراً شديداً، ولم يقبل أن يأخذه ويتصدق به، وكان الخليفة يطلب إليه ذلك، ولكن أحمد لم يرد أن يدخل ذلك المال في ملكه ساعة من الزمان إلا مضطراً، فهو في نظره المال الذي لا يقربه أهل النزاهة، لأن غيرهم أولى، إذ هذا المال لسد الثغور، وإعداد العتاد والقوة، والجند، وإغاثة المحتاج والبائس والمعتر، وما كان أحمد يعد نفسه، بفضل ما منَّ الله به عليه من الغلة القليلة، من أهل الفقر والحاجة..

لم يعتبر أحمد نفسه من أهل الفقر والحاجة؛ لذلك كان يصرّ إصراراً شديداً على عدم قبول المال، بأي وجه من الوجوه، وكان يرى أن يتم صرف المال العام في تقوية الدولة..

ألسنة أهل السوء

رد أحمد مال المتوكل ولم يقبله، وإن أكره على قبوله وزعه بين المحتاجين إليه، من ذوي الفاقة والتجمل، وقد كان ذلك الإكراه يحدث أحياناً في أول عصر المتوكل، إذ ألسنة السوء لا تتوقف عن تحريضه عليه، وإغراء العداوة بينهما، حتى لقد فتشت داره بسعاية كاذبة، فكان في مثل هذا الجو الذي تسود فيه الريبة، يأخذ المال مكرهاً، ويوزعه على أهل الحاجة المتجملين، المستترين..

يروى أن وزير المتوكل كتب له: "إن أمير المؤمنين قد وجّه إليك جائزة، ويأمرك بالخروج إليه، فالله الله أن تستعفي، أو ترد المال، فيتسع القول لمن يبغضك"..

فأحمد يضطر للقبول ليقطع ألسنة الوشاة، ولكنه لا يمسه، ويأمر ولده صالحاً أن يأخذه ثم يوزعه في اليوم التالي على أبناء المهاجرين والأنصار، وغيرهم من أهل التجمل والحاجة، وكأنه يرى أنهم أولى بمال المسلمين منه، وقد حرموا عطاءهم..

كانت ألسنة السوء لا تني عن تحريض المتوكل على أحمد، وإغراء العداوة بينهما، كما هي في كل زمان، فكان أحمد يضطر أحياناً أن يأخذ المال مكرَهاً، ولكنه لا يمسه، بل يوزعه على أهل التجمل والحاجة، وأبناء المهاجرين والأنصار حيث توقفت الأعطيات التي كانت لهم من الدولة..

الخليفة العباسي (المتوكل)

ثقة المتوكل

اطمأن المتوكل إلى جانب أحمد كل الاطمئنان، عندما تبين له ما هو عليه من تقى وإيمان، وابتعاد عن الفتن، حتى أنه تبلغه نميمة وسعاية، فيقطعها المتوكل قطعاً حاسماً، إن قوماً من دعاة الشر، قالوا للمتوكل: "إن أحمد لا يأكل من طعامك، ولا يجلس على فراشك، ويحرم هذا الشراب الذي تشربه"..

فيقول المتوكل للنمام الواشي قولاً حاسماً قاطعاً لكل مشّاء بنميم: "لو نُشر المعتصم من قبره، وقال لي شيئاً فيه لم أقبله".. (والمعتصم والده)..

وعندما بلغ أحمد هذه المنزلة من ثقة المتوكل؛ سكت الوشاة، وأعطاه المتوكل حريته كاملة في أن يقبل العطاء أو يرده، فكان يرده، ولو كان قد أرسله ليوزعه على أهل الحاجة والمعوزين، فإنه روي أن المتوكل وجّه إليه ألف دينار، ليوزعها على أهل الحاجة، فقال – رحمه الله – : "أنا في البيت منقطع عن الناس، وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره، وهذا مما أكره"..

استطاع أحمد بإيمانه وتقواه، وابتعاده عن الفتن، أن ينال ثقة المتوكل، حتى لم يعد يقبل فيه أية وشاية؛ بل يقطعها قطعاً حاسماً، كما أعطاه الحرية الكاملة في قبول العطاء أو رده، فكان يرده..

لم يهدأ باله

ومع أن أحمد قد عفّ عن مال الخليفة، وأراحه هذا من الاستطالة عليه لحمله على الأخذ مكرهاً، إلا أن ذلك العالم الجليل التقي، لم يهدأ باله كاملاً، لأن أولاده وذوي قرباه كانوا يأخذون من مال الخليفة، وكان ينهاهم فلا ينتهون، ويقول لهم: "لِمَ تأخذونه، والثغور معطلة غير مشحونة، والفيء غير مقسوم بين أهله؟!"..

ثم إنه يقاطعهم ولا يؤاكلهم، ولا يشاربهم، حتى إنه لا يأكل الخبز الذي يُخبز في تنورهم، وبنارهم، فإنه يُروى: أنه قد خُبز له خبز في تنور مسجر في بيت ولده، فرفض تناوله، لأنه يأخذ جوائز السلطان، ويبلغ الخليفة ذلك، فلا يغضب ولا ينقم، إذ عرف إيمانه وإخلاصه، ويقول: "إن أحمد ليمنعنا من بر ولده".. ويأمر بإعطاء أقاربه وأولاده خفية عنه..

لم يهدأ بال أحمد كاملاً، لأن أولاده وأقاربه يأخذون من مال الخليفة، وكان ينهاهم فلا ينتهون، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم..

تنزّهتُ عنه

ومع تشدد أحمد في الامتناع عن الأخذ من مال السلطان، إلا أنه لم يُعلن أنه كسب حرام، بل يتشكك فقط، والشك بالنسبة إليه كافٍ ليمتنع، ولينزه نفسه، وألا ينتفع ممن أخذ عنه، مؤمناً أنه ليس بحرام..

يروى في ذلك: أنه دخل عليه ابنه يعوده وهو مريض، فقال له: يا أبت عندنا شيء بقي مما كان يبرنا به الخليفة المتوكل، أفأحج منه؟

قال الإمام أحمد: نعم..

قال ولده: فإذا كان عندك هكذا، فلمَ لا تأخذه؟ (أي ما دمت تجيز أن يستعمل هذا المال نفقة للحج).

فقال: "يا بني، ليس هو عندي بحرام، ولكني تنزهتُ عنه"..

إذن فأحمد ما كان يقطع بأن قبول العطاء من الخلفاء حرام، ولكنه كان يشتبه، وحيثما اشتبه فإنه ينزه نفسه، ذلك أنه من الزهّاد الذين يؤثرون الخصاصة مع نفس نزيهة، على المال والثراء والنعمة، لمجرد شكهم بأنها حلال خالص، فهم يتركون ما يريب إلى ما لا يريب، وكذلك كان في فكره وقلبه وإيمانه..

لم يُعلن أحمد أن مال السلطان حرام، لكنه يشتبه فيتنزه عنه، وكذلك كان يتنزه عن كل ما يريب..



الباب الثاني

تميّز الإمام

الفصل الثاني

القدوة الحسنة



- أخلاق رفيعة
- سلوكه الاجتماعي
- العابد المتبتل
- الشخصية الفذّة

١ أخلاق رفيعة

كان الإمام أحمد أحد القلة النادرين في جميع العصور، من زمن التابعين إلى يوم الناس هذا، ممن جعل حياته كلّها بأحاسيسها، ونوازعها، وشهواتها، وأفكارها، بالخفي منها والظاهر، مع الناس أو مع نفسه، رهناً لشريعة الله، كان لا يتكلم ولا يفكر ولا يحس، ولا يأكل ولا يشرب، ولا ينام، إلا إذا أذن له الشرع بذلك، أو أن قدوته رسول الله ﷺ أقرّ ذلك أو فعله..

كان أحمد من القلة النادرة التي جعلت حياتها كلها رهناً لشريعة الله سبحانه، وجعل قدوته رسول الله ﷺ في كل حركة وفعل..

لم يبقَ أحد من معاصري أحمد إلا وشهد له بالاتباع والتمسك بسنة النبي ﷺ، فما رُئِيَ أحد أشدّ اتباعاً، وتعلقاً، وتعظيماً لسنة رسول الله ﷺ منه..

الاقتداء بالمصطفى ﷺ

كان الإمام أحمد أعلم أهل عصره بسنّة رسول الله ﷺ، وأشدّهم لها اتباعاً، وبها تعلقاً، وأعرف أهل عصره بفقه الصحابة والتابعين، وما كانوا عليه من تقوى وصلاح واتباع، فإن لم يجد ما يتبعه بالسنّة، ووجده عند الصحابة والتابعين عمل به مطمئناً راضياً، وكان رحمه الله أشدّ ما يكون على المبتدعة، ولو ظنّوا أن بدعتهم عبادة وطاعة..

ومن عظيم اتباعه: أنه كان يفعل ما كان النبي ﷺ يفعله، ولا يفعل ما لم يفعله، حتى أنه كان إذا احتجم (الحجامة: إخراج الدم الفاسد من الرأس أو الجسم) أعطى الحجام ديناراً (وهو مبلغ كبير لأنه من ذهب)، لأنه روي أن رسول الله ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، وأنه تسرّى (معاشرة الجارية المملوكة) مع عدم رغبته فيه؛ بل لأنه علم أن النبي ﷺ تسرّى، وقد استأذن زوجته في ذلك، فأذنت له لتعينه على الاتباع..

بل أكثر من ذلك في حرصه على الاقتداء حيث قال إبراهيم بن هانئ لما كانت فتنة خلق القرآن: اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام، ثم قال: اطلب لي موضعاً حتى أتحول إليه..

قلت: لا آمن عليك يا أبا عبد الله..

قال الإمام أحمد: إذا فعلت أفدتك (أي سأعطيك علماً مفيداً)..

فطلبت له موضعاً..

فلما خرج، قال لي: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم تحوّل، وليس ينبغي أن نتبع رسول الله ﷺ في الرخاء ونتركه في الشدة..

وقيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: أحياك الله يا أبا عبد الله على الإسلام، قال: والسنّة..

وكان رحمه الله يقول: من ردّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة..

وكان يقول أيضاً: ما كتبتُ حديثاً عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به..

وقال أبو بكر المروذي: قلتُ لأبي عبد الله: مَنْ مات على الإسلام والسنة مات على خير؟

فقال لي: مَنْ مات على الإسلام والسنة مات على الخير كله..

يقول عبد الملك الميموني: ما رأتْ عيني أفضل من أحمد بن حنبل، وما رأيتُ أحداً من المحدِّثين أشدّ تعظيماً لحرمات الله عز وجل وسنّة نبيه ﷺ إذا صحت عنده، ولا أشدّ اتباعاً منه..

وقال أيضاً: قال لي أحمد بن حنبل: يا أبا الحسن إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام (إي علم من نص أو عالم)..

وفي هذا تحذير للشباب الذين يتبعون جماعات ليس فيها أحد من العلماء، فهم على خطر كبير، إذ قد ينحرفون دون أن يعلموا..

الورع: دَعْ ما يريبك

إن الـورع فـي الأصـل: الـكـفّ عـن المحـارم، والـتـحـرُّج منها، ثـم استعير للكفّ عن المشتبه، قال أبو بكر الصديق t: "كنا ندع سبعين باباً من الحلال، مخافة أن نقع في باب من الحرام"..

وأساس كل ذلك: قوله عليه الصلاة والسلام: "الحـلال بـيّن، والحـرام بـيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعرفهنّ كثير من الناس، فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومـن وقـع فـي الـشـبـهـات وقـع فـي الحــرام.. ..الحديث"..

وقوله ﷺ: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"..

وإذا ما عددنا أصحاب الـورع الأتقياء، كان أحمد بن حنبل في مقدمتهم، فكان رحمه الله يَـدعُ الشبهة مهما خفي أمـرُهـا حتى على أصحاب الـورع؛ لقد عاش فقيراً، كثير العيال، ولم يكن له من غلّة، إلا ملكٌ ورثه عن أبيه، يؤجره في شهر بسبعة عشر درهماً، ينفقها على عياله، ويقنع بذلك رحمه الله صابراً محتسباً، وربما اضطر فنسخ بالأجرة، ومع كل هذه الحاجة، كان لا يستطيب مال السلطان، ولا طعامه؛ لأنه يظن أن أكثره من التسلط والغصب والباطل..

وكان يمتنع عن الطعام عند من يأخذ جائزة السلطان؛ بل كان يقاطعه، ولا يصلي وراءه إن صلى إماماً، ولو كان أقرب الناس إليه..

أَخْذُ الإمام أحمد بالورع أَخْذُ أصدق الناس زُهداً، فإن ظهرت له شبهة في أمر، تركه وابتعد عنه، مهما كانت الشبهة خفية ودقيقة، ومن هذا الباب كان تركه لمال السلطان والابتعاد عنه..

ورع في الفقه

أما ورع أحمد في الفقه، فقد كان في ذلك مضرب المثل، فإنه إذا صحت لديه روايات متعددة عن الصحابة، لم يحاول أن يرجح بينها، بل أثبتها كلها، ورويت عنه جميعها من غير ترجيح، وليس ذلك عجزاً منه عن الترجيح، وإنما كان يتورع أن يلتزم بقول أحد منهم أوعمله، ويكون الحق والصواب مع آخر..

وكذلك كان ورعه في فتاويه، فإذا كان هناك من يجيب المستفتي فبها ونعمت، ويُكفَى الحرج، وإلا شدّد في الاحتياط لدينه؛ وردّ الفتوى إلى ما قال الله ورسوله ﷺ ، فإن لم يجد ردّها إلى الصحابة رضي الله عنهم، أو ردّها إلى التابعين..

وأما ورعه في أخذ الحديث وإعطائه، فإنه - مع حفظه المتين لمئات الألوف من الأحاديث - لم يكن يلقي الأحاديث إلا من كتاب..

لقد كان أحمد مضرب المثل في ورعه، ففي الفقه يتورع عن الترجيح بين الروايات الصحيحة؛ مخافة أن يجانبه الصواب، وفي الحديث لا يلقي إلا من كتاب، خوفاً من الوقوع في الخطأ، رغم حفظه المتين..



الإمــام أحمد يتـورع فــي إصـدار الفتـاوى

ورع عن أموال الحكام

قال عبد الله بن أحمد: مكث أبي بالعسكر عند الخليفة - المتوكل - ستة عشر يوماً، لم يأكل فيها إلا ربع مُدٍّ سويقاً، يفطر بعد كل ثلاث ليالٍ على سفة منه، حتى رجع إلى بيته، ولم ترجع إليه صحته إلا بعد ستة أشهر، وقد رأيتُ موقيه (عينيه) دخلا في حدقتيه..

قال البيهقي: وقد كان الخليفة يبعث إليه بالمائدة فيها أشياء كثيرة من الأنواع، وكان أحمد لا يتناول منها شيئاً..

وقال البيهقي: وبعث المأمون مرةً ذهباً يُقسَم على أصحاب الحديث، فما بقي منهم أحد إلا أخذ إلا أحمد بن حنبل، فإنه أبى..

وروي أنه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق، ولا خلف بنيه، ولا يكلمهم أيضاً؛ لأنهم أخذوا جائزة السلطان..

وقال أحمد بن محمد القشيري: ذكروا أنه - يعني أحمد بن حنبل - مكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله حتى بعث إلى بعض أصحابه، فاستقرض منه دقيقاً، فعرف أهله حاجته إلى الطعام، فعجلوا، وعجنوا، وخبزوا له سريعاً..

فقال: ما هذه العجلة! كيف خبزتم؟

فقالوا: وجدنا تنور بيت صالح (ابنه) مسجوراً (أي جاهزاً مشتعلة النار فيه)، فخبزنا لك فيه..

فقال: ارفعوا، ولم يأكل؛ وأمر بسدِّ الباب الذي بين بيته ودار صالح..

قال البيهقي: لأن صالحاً أخذ جائزة السلطان..

ستة عشر يوماً تمرُّ على أحمد عند الخليفة، ولا يأكل فيها إلا ربع مُدٍّ سويقاً، أي ما يمسك رمقه فقط، وخبز له في تنور ابنه صالح بعد ثلاثة أيام قضاها دون طعام، فرفض أن يأكل لأن صالحاً أخذ جائزة السلطان!!
فأي ورع كان لدى هذا الإمام العظيم؟!

إنكار المنكر

قال صالح بن أحمد: كان أحمد بن الحكيم العطار يذهب مع خلف المخرمي إلى عفّان، فختن بعضَ ولده، فدعا يحيى وأبا خيثمة، وجماعة من أصحاب الحديث إلى وليمة، وطلب من أبي أن يحضر، فمضوا ومضى أبي بعدهم، وأنا معه، فلما دخل أُجلِسَ في بيت، ومعه جماعة من أصحاب الحديث، ممن كان يختلف معه إلى عفان، فكان فيهم رجل يكنى بأبي بكر، يُعرف بالأحول، فقال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، ههنا آنية فضة، فإذا كرسي من فضة (ومعلوم تحريم صنع الآنية من الفضة).. فقام وخرج، وتبعه مَن كان في البيت..

وسأل مَن كان في الدار عن خروجه، فأخبروا، فتبعه منهم جماعة، وأخبر الرجل صاحب الوليمة، فلحق أبي، وجاء الرجل عفان، فقال له: يا أبا عثمان، اطلب إلى أبي عبد الله يرجع، فكلمه عفان، فأبى أن يرجع، ونزل بالرجل أمر عظيم (من الحزن على تصرفه بارتكابه المحرم وإغضاب الإمام أحمد)..

كان أحمد لا يُداهن ولا يجامل، فإذا رأى شيئاً مخالفاً للشرع أنكره، ويأبى الجلوس في أي مكان فيه منكر..

الزهد الحقيقي

الزهد هو الإعراض بالقلب عن الدنيا، حتى لو كانت الأموال الطائلة في يده، وهو رأس كل طاعة، فبه فراغ القلب من مشاغل الدنيا، والاستعزاز بالله وحده، والاستغناء عن جميع المخلوقات، والتلذذ بالمناجاة، والسلامة من التبعات..

والزهد زهدان: زهد في الحرام، وهو واجب، وزهد في الحلال، وهو فضيلة، وأساس ذلك قوله تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى)(النساء: من الآية٧٧)

ولا يكون زهد بلا ورع، قال الإمام أحمد في الزهد: إنه عدم فَرَحه بإقبالها - أي الدنيا - ولا حزنه على إدبارها؛ فإنه سُئل عن الرجل يكون معه ألف دينار، هل يكون زاهداً؟

فقال: نعم، على شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.. وبهذا يتبين أن الزهد لا يشترط معه الفقر لأنه ليس مطلباً شرعياً بل هو عدم الركون للدنيا.

والإمام أحمد سبق بزهده المشروع كثيراً من الزهاد، وقد صنف أحمد في الزهد كتاباً حافلاً عظيماً، لم يُسبق إلى مثله، لم يلحقه أحد فيه، والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يعمل بما في كتابه، رحمه الله..

الزهد رأس كل طاعة، ويعرّفه أحمد بأنه عدم الفرح بإقبال الدنيا، وعدم الحزن على إدبارها، وقد صنّف في الزهد كتاباً عظيماً، وعمل بما أمكنه منه..

أحمد الزاهد

قال أبو داود: كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة، لا يُذكر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيتُ أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط..

وقال إسحاق بن هانئ: بكرتُ يوماً لأناقش أحمد بالزهد، فبسطتُ له حصيراً ومخَدة، فنظر إلى الحصيرة والمخدة، فقال: ما هذا؟

قلت: لتجلس عليه..

فقال: ارفعه، الزهد لا يحسن إلا بالزهد.. فرفعتُه، وجلس على التراب..

وقال صالح بن أحمد: وقال لي يوماً - يعني أباه - : أنا إذا لم يكن عندي قطعة - من النقد - أفرح..

وقال نصر بن علي: أحمد بن حنبل أمره بالآخرة كان أفضل، لأنه أتته الدنيا، فدفعها عنه..

وقال إبراهيم بن متة السمرقندي: سألتُ أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن، عن أحمد بن حنبل، قلت: هو إمام؟ قال: إي والله، قال: أحمد بن حنبل صبر على الفقر سبعين سنة..

أحمد بن حنبل أتته الدنيا، فدفعها عنه، وصبر على الفقر سبعين سنة، وكانت مجالسه مجالس الآخرة، لا يذكر الدنيا قط، ويفرح إذا لم يكن عنده أي قطعة من النقود..

إمام الورع

يقول سليمان بن داود: حضرت أحمد وقد رهن سطلاً له عند فامي (بائع الفول والحمص، وكذلك الأواني) باليمن، فلما جاءه الإمام أحمد بفكاكه (المبلغ مقابل فك الرهن)، أخرج له الرجل سطلين، فقال للإمام: خذ متاعك منهما (حيث أن الرجل لم يعرف أيهما للإمام أحمد)..

فاشتبه على الإمام أيهما له، فقال: أنت في حلّ منه ومن الفكاك، وتركه وذهب..

قال سليمان: فقلت للفامي: أخرجتَ سطلين إلى رجل من أهل الورع، والسطول تتشابه، حتى شك فيه؟!

فقال: والله إنه لسطله بعينه..

وقال قتيبة بن سعيد الأصم: لا تضم إلى أحمد أحداً، ولولا أحمد لمات الورع، ما أعظم منّة أحمد على جميع المسلمين، وما أحقّ على كل مسلم أن يستغفر له..

حــق لمن

قال: لولا أحمد لمات الورع.. أن يقوله، فما أعظم هذا الرجل! يرهن سطلاً لشدة حاجته، وعندما يأتي لفكاكه، يشتبه عليه؛ فيترك السطل، والفكاك معاً..

قدواته في الزهد

قال أبو بكر المروذي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما أعدل بالفقر شيئاً، أتدري الصبر على الفقر، أي شيء هو؟

قد رأيت قوماً صالحين: قد رأيت عبد الله ابن إدريس، وعليه جبة لبود (ثوب صوف)، وقد أتى عليه السنون والدهور..

ولقد رأيت أبا داود الجعفي، وعليه جبة مخرّقة (ثوب بالي)، وقد خرج القطن منها، يصلي بين المغرب والعشاء، وهو يترجح من الجوع..

ورأيت أيوب بن النجار بمكة، قد خرج مما كان فيه، ومعه رشاء (وعاء يشرب به) يستقي به بمكة، وقد خرج من كل ما يملكه (ترك كل ما يملكه)، وكان من العابدين، وكان في دنيا فتركها بين يدي يحيى القطان، وقد رأيت ابن بجالة العابد، وكنت أسمع صوت خفه في الطواف بالليل..

ولقد كان في المسجد رجل يقال له: العرفي، يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي، قال: فاشتهيتُ النظر إليه، فإذا هو شاب مصفرّ..

ولقد رأيت حسيناً الجعفي، وكان يشبَّه بالراهب، ما رأيت بالكوفة أفضل من حسين الجعفي، وسعيد بن عامر بالبصرة..

إن هؤلاء القوم تركوا الدنيا، ولم يبالوا بظاهرها، فكان همهم وشغلهم الشاغل هو الآخرة، والخوف من الحساب..

الفقر والتعفف

قال أحمد بن حنبل: الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر..

وقال: الفقر أشرف من الغنى، فإن الصبر عليه مرارة، وانزعاجه أعظم حالاً من الشكر..

وقال: لا أعدل بفضل الفقر شيئاً..

وكان يحب التقلل من الدنيا لأجل خفة الحساب.

ويقول: إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب، فدُم له على ما يحب..

الإمام أبو بكر المروذي

قال صالح بن أحمد بن حنبل: دخلتُ على أبي في أيام الواثق - والله يعلم في أي حالة نحن - وقد خرج لصلاة العصر، وقد كان له لبد (بساط) يجلس عليه، قد أتت عليه سنون كثيرة حتى بلي، فإذا تحته كتاب كاغد (ورق)، وإذا فيه: بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق، وما عليك من الدين، وقد وجهت لك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان، لتقضي بها دينك، وتوسع بها على عيالك، وما هي من صدقة ولا زكاة، وإنما هي شيء ورثته من أبي..

فقرأتُ الكتاب ووضعته..

فلما دخل قلت: يا أبت ما هذا الكتاب؟

فاحمرَ وجهه، وقال: رفعته منك (أي أخفيته عنك)..

ثم قال: تذهب بجوابه.. فكتب إلى الرجل: وصل كتابك إليّ، ونحن في عافية؛ فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا، وأما عيالنا فهم في نعمة والحمد لله..

فذهبتُ بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فقال: ويحك! لو أن أبا عبد الله قَبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في دجلة؛ لكان مأجوراً، لأن صاحب هذا المال لا يُعرف له معروف..

ويقول صالح: قلت لأبي، وقد مضى على ذلك سنة أو أقل أو أكثر: لو كنا قبلنا هذا المال؟

فقال: لو كنا قبلناها لكانت ذهبت..

رقّ للإمام قلبُ من لا يعرف المعروف، ومع ذلك لم يرَ لنفسه مبرراً أن يأخذ مالاً لا يَدَ له في تحصيله؛ ولو أنه فتح باب قبول العطاء قليلاً، لكان من أغنياء عصره، ولكن أبتْ شيمُه المسلمة أن يُزهق عفته، ويُظهر حاجته..

دعْنا نكن أعزاء

قال أحمد بن محمد التستري: كان غلام غني من الصيارفة يزور أحمد بن حنبل، فناوله يوماً درهمين، وقال: اشتر بهما كاغداً (ورقاً)..

فخرج الغلام، واشترى له الورق، وجعل في جوف الكاغد خمسمائة دينار هدية للإمام، وشدّه وأوصله إلى بيت أحمد..

فلما فتحه الإمام تناثرت الدنانير، فردّها في مكانها، وسأل عن الغلام، حتى دل عليه، فوضع المال والكاغد بين يديه..

فكان الغلام يقول: الكاغد بدراهمك، خذه (أي خذ الورق على الأقل فقد اشتريته بالدرهمين وهما من مالك).

فأبى الإمام أن يأخذ الكاغد أيضاً..

وقال محمد بن موسى بن حماد البربري: حُمِل إلى الحسن بن عبد العزيز الجروي ميراثه من مصر (مائة ألف دينار) فحمل إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس، كل كيس ألف دينار، فقال: يا أبا عبد الله، هذه من ميراث حلال، فخذها، فاستعن بها على عَيْلتك..

قال: لا حاجة لي بها، أنا في كفاية، فردّها، ولم يقبل منها شيئاً..

وقال محمد بن سعيد الترمذي: قدم صديقٌ لنا من خراسان، فقال: إني اتخذت بضاعة، ونويتُ أن أجعل ربحها لأحمد بن حنبل، فخرج ربحُها عشرة آلاف درهم، فأردتُ حملها إليه، ثم قلت: حتى أذهب إليه فأنظر كيف الأمرُ عنده، فذهبت إليه فسلمت عليه، فقلت: فلان، فعرفه، فقلت: إنه أبضع بضاعة، وجعل ربحها لك، وهو عشرة آلاف درهم..

فقال الإمام: جزاه الله عن العناية خيراً، نحن في غنىً وسعة، وأبى أن يأخذها..

وفي رواية المروذي: فراجعه - أي التاجر - فقال: دعنا نكن أعزاء..

العفة: قطع الطمع عما في أيدي الناس، ولو في شدة الفقر، والعالم المتعفف يجد إجلالاً ومحبة وتقديراً من الخاصة والعامة، فالعفة والقناعة عز، والطمع والرغبة ذل، وهكذا كان الإمام أحمد، وهكذا قهرتْ عفتُه كلَّ طمع، حتى عند أمسّ الحاجة..

جواب واحد

لقد تنوعت على أحمد أساليب العطاء، من الأمراء ومن العلماء والعامة، من شيوخه وإخوانه، وكلهم كان لهم منه جواب واحد: إنه بخير، وإنه في كفاية، وفي غنىً وسعة..

هذه هي الرجولة الكاملة، العزيزة، التي لا يذلها شيء، وهذه هي الإرادة الصلبة الصادقة، التي لم يزحزحها أقوى المغريات جاذبية: المال، المال مع شدة الحاجة إليه، المال الذي أخضع الملايين من الرؤوس الشامخة، المال الذي هُدِرَتْ من أجله الكرامة والمروءة، والشرف والدين، ولم يثبت أمام خيله ورَجِله إلا القلة من الرجال المتسلحين بعزة الله وحوله وقوته..

هذه هي الرجولة الكاملة العزيزة، والإرادة الصلبة الصادقة، التي لا تزحزحها المغريات المادية التي لا يصمد أمامها إلا أولو العزم من الرجال، وكذلك كان أحمد..

٢ سلوكه الاجتماعي

كان الإمام أحمد بن حنبل مَثَلاً أعلى للرجال في سلوكه، وقمة في سجاياه، إنّ أحداً لم يره إلا في مسجد مصلياً معلّماً، أو في جنازة معزياً مواسياً، أو يعود مريضاً مؤنساً داعياً، وكان يترفع عن المشي في الأسواق..

لقد كان أحمد بن حنبل من الأدب بحيث كان بعض الناس يجلسون إليه السنوات الطوال، لا ليسمعوا منه الحديث، ولكن لكي يتعلموا أدبه، يقول أبو بكر يعقوب بن يوسف المطوعي: جلستُ إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، ثلاث عشرة سنة، وهو يقرأ المسند على أولاده، ما كتبتُ منه حرفاً واحداً، وإنما كنتُ أكتب آدابه وأخلاقه وأتحفظها، وكان يعقوب يكرر هذا المعنى في قول آخر: كنتُ أختلفُ إلى أحمد ابن حنبل ثلاث عشرة سنة، لا أكتب عنه وهو يقرأ المسند، وإنما كنتُ أنظرُ إلى هديه أتأدب به..

وليس معنى الجد الذي أخذ به الإمام أحمد نفسه، أن يكون خشناً مع الناس، بعيداً عنهم، قالياً لمجتمعاتهم، بل على العكس من ذلك تماماً، لقد كان أحمد رقيق الحاشية، محباً للناس، مشاركاً في أفراحهم ما كانت متمشية مع الشرع، ودوداً لإخوانه، سائلاً عنهم، زائراً من غاب منهم، ولو لاقى في ذلك الصعاب، يكرم ضيفه، ويخص إخوانه بالتقدم، ويؤثرهم على نفسه..

وهو بعد ذلك متسامح مع من يسيء إليه، ولا يذكر المسيء بكلمة سوء واحدة..

مع ما اتسمت به حياة أحمد من الجد؛ إلا أنه لم يكن خشناً مع الناس، بعيداً عنهم، بل على العكس كان محباً للناس، يشاركهم أفراحهم، ودوداً لإخوانه، متسامحاً مع من يسيء إليه.. فكان مَثَلاً أعلى للرجال في سلوكه، قمة في سجاياه، حتى أن بعض الناس كانوا يجلسون إليه السنوات الطوال ليتعلموا آدابه وأخلاقه..

الاحتفالات الاجتماعية

الزواج والختان والولادة، من المناسبات الاجتماعية التي كثيراً ما يجعل الناس لها احتفالات يجتمعون فيها، وكان الإمام أحمد يشارك الناس في هذه الاحتفالات، بل إنه يُجامل بالمال أو بما نسميه في زماننا: (النقوط).. يقول المروذي: رأيت أبا عبد الله وقد ألقى لختّان درهمين في الطست..

وحضر حفل ختان مع حفيده علي بن صالح، وأعطى الحجّام الذي قام بالختان درهماً، وأعطى الصبي درهماً أيضاً..

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الإمام كان إنساناً متواضعاً يحب أفراح الناس، ويشارك فيها، ما كانت المشاركة تسرهم، وما كانت المناسبة وقورة خالية من الإسراف..

وفي حفل ختان حفيده بعث إلى ولده صالح، أن يبدأ بالفقراء والضعفاء فيطعمهم، وهكذا يكون الحفل وسيلة للخير وبرّاً بالفقراء، وذلك على النقيض مما يحدث في زماننا، فمثل هذه المناسبات لا ينال الفقراء منها شيئاً، وإنما يزداد المتخمون فيها تخمة على تخمتهم..

كان الإمام أحمد يشارك الناس في المناسبات الاجتماعية، كالزواج والختان، ويجاملهم بالمال، ويرى أن يُدعى الفقراء والضعفاء إلى هذه الاحتفالات، لتكون وسيلة للخير، على عكس ما يحدث في زماننا، حيث لا ينال الفقراء منها شيئاً..

يقبل الهدية ويجازي بها

كان الإمام أحمد يقبل الهدية، ويجازي عليها، يقول أبو بكر المروذي: رأيتُ أبا عبد الله، وقد أهدى إليه إنسان ماء زمزم، فأرسل إليه سويقاً وسكراً..

وأمرني أن أشتري لإنسان هدية بقريب من خمسة دراهم، وقال: اذهب بها إلى صبيانه، فإنه قد وهب لسعيد شيئاً..

وقال إسحاق بن إبراهيم: أهدى جوين - جارُ الإمام أحمد - إلى أبي عبد الله شيئاً من جوز وزبيب وتين في قصعة ما يساوي ثلاثة دراهم أو أقل، فأعطاني أبو عبد الله ديناراً وقال: اذهب فاشترِ بعشرة دراهم سُكَّراً، وبسبعة دراهم تمراً، واذهب به إليه في الليل.. ففعلت.

وقال إبراهيم بن هانئ: قدم رجلٌ من سمرقند، وكتب له عبد الله بن عبد الرحمن إلى أبي عبد الله، فجعل له مجلساً، فأهدى يوماً إلى أبي عبد الله ثوباً، فكتب أبو عبد الله لي، فقال: اذهب به إلى السوق فقوّمه، قال إبراهيم: فذهبت إلى قطيعة الربيع، فقوَّمته نيفاً وعشرين درهماً، فرجعت، فقلت له، فحجبه أبو عبد الله حتى اشترى له ثوبين ومقنعتين، وبعث بها إليه، ثم أذن له فحدّثه..

مما يقوي العلاقات الاجتماعية، والروابط الأخوية، تبادل الهدايا، ففي الحديث: تهادوا تحابوا، ومن هنا كان أحمد يقبل الهدية، ويكافئ عليها..

حسن الاستقبال

وإذا زار زائرٌ الإمامَ في بيته، خلعَ عليه أسباب التكريم، وأحاطه بألوان الترحيب، وأجلسه في مكان الصدارة، وجلس هو دونه، وكثيراً ما كان الضيف يشعر بالحرج، لأنه يعرف قدر الإمام عند الناس أجمعين، ويحاول هو أن يجلس بين يدي الإمام، ولكن الإمام أحمد الذي رُبيَّ على الأدب، وجُبل على اللباقة، يصرُّ أن يأخذ ضيفه حقّه من الترحيب، ونصيبه من التكريم..

والإمام أحمد على رقة حاله يكرم ضيفه قدر استطاعته، ويأمر بتقديم ألوان من الطعام، ويقول: يؤكَل الطعام بثلاث: مع الإخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة..

ويقول في معنى الجود والإيثار: لو أن الدنيا تقلّ حتى تكون في مقدار لقمة، ثم أخذها امرؤ مسلم، فوضعها في فم أخيه المسلم ما كان مسرفاً..

وربما أضاف الإمام أحمد بسجاياه، وأدبه، شيئاً جديداً إلى آداب المجتمع الذي عاش فيه، فقد كانت طبيعة الناس أن ينصرفوا من المجتمعات انصرافاً عفوياً، أما الإمام أحمد فقد سنّ في ذلك سنة حميدة، فلم يكن ينصرف من مجتمع هو فيه، حتى يتوجّه إلى جلسائه، قائلاً: إذا شئتم..

إن حسن الاستقبال، وإكرام الضيف، من أخلاق الإسلام وآدابه، وأحمد أكثر الناس تمسكاً وتطبيقاً للإسلام، فكان ضيفه يجد عنده من الحفاوة والترحيب والإكرام، مع ما هو عليه من الفقر ورقة الحال.. وأضاف أدباً آخر في الانصراف، فلا ينصرف حتى يقول لجلسائه: إذا شئتم..

البرّ بالإخوان

وكان الإمام من الرفق بإخوانه الذين يسكنون دياراً بعيدة، بحيث يذهب هو إليهم ليراهم ولا يكلفهم مشقة السفر، والمجيء إليه، كان الإمام مرتبطاً بإسحاق بن راهويه إمام خراسان والمشرق، برباط الأخوة في العلم، والمحبة في الله، وعندما خرج الإمام من السجن بعد فتنة خلق القرآن؛ رأى أن يزور إسحاق ويطمئن عليه، ويطمئنه على نفسه، وكان قد مرَ زمان على افتراق أحمد وإسحاق، وغيّرت السنون الطوال منهما؛ بحيث إذا رأى أحدهما الآخر لا يعرفه..

يقول عبد الله بن أحمد: لما أُطلق أبي من المحنة، خشي أن يجيء إليه إسحاق بن راهويه، فرحل أبي إليه، فلما بلغ الرَي دخل إلى مسجد هناك، فجاء مطرٌ كأنه أفواه القرب، فلما كانت العتمة، قال له خدم المسجد: اخرج، فإنا نريد أن نغلقه.

فقال لهم: هذا مسجد الله، وأنا أعبُد الله..

فقالوا له: أيهما أحب إليك، أن تخرج أو تجرّ برجلك؟..

قال الإمام: فقلتُ سلاماً، فخرجت من المسجد، والمطر والرعد والبرق، فلا أدري أين أضع رجلي، ولا أين أتوجه!

فإذا رجل قد خرج من داره، فقال لي: يا هذا، أين تمر في هذا الوقت؟

قلت: لا أدري أين أمرّ..

فقال لي: ادخل، فأدخلني داراً، ونزع ثيابي، وأعطاني ثياباً جافة، وتطهرت للصلاة، فدخلت في غرفة فيها كانون وفحم ولبود ومائدة منصوبة..

فقيل لي: كُلْ، فأكلتُ معهم..

ثم قال لي الرجل: من أين أنت؟

قلت: أنا من بغداد..

فقال لي: تعرف رجلاً يُقال له أحمد ابن حنبل؟

فقلت: أنا أحمد بن حنبل..

فقال لي: وأنا إسحاق بن راهويه..

ذلك هو البرّ الذي كان يحمله الإمام أحمد لإخوانه، مهما بعدت الديار، فيتجشم الرحلة ويقتحم متاعب السفر ليطمئن عليهم، ولكي يطمئنهم على نفسه..

يخرج أحمد من سجنه بعد المحنة، فيذكر أخاً له في العلم، يحبه في الله، ولكنه في الري، فيرحل إليه أحمد، حتى لا يكلفه عناء السفر، يا لها من أخلاق!! فأي محبة هذه؟ وأي رفق وبرّ هذا؟!

الإمـــام أحمد مسافراً

التواضع رفعة

التواضع من شرف الكبار، وقديماً قيل: تواضعُك في شرفك أعظم من شرفك، وقيل: خير الناس مَن تواضع عن رفعة، وزَهد عن قدرة..

ولقد كان الإمام أحمد في ذروة التواضع، إن صح أن يكون للتواضع ذروة، فقد ملأت شهرته الدنيا، إلى المدى الذي كان المحاربون الغزاة في الثغور ينطقون باسمه، وهم يضربون المنجنيق، فكان الإمام إذا سمع هذا يقول: ليته لا يكون استدراجاً..

يقول عباس بن محمد الدوري: سمعت يحيى بن معين يقول: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة، ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير..

وقيل لأبي عبد الله: جزاك الله عن الإسلام خيراً، فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيراً، ثم قال: ومن أنا؟ وما أنا؟

وكان الإمام وقد أحاطت به الشهرة من كل جانب يقول: أريد أن أكون في بعض تلك الشعاب بمكة حتى لا أُعرف، قد بُليتُ بالشهرة..

وكان يقول في مناسبة أخرى: لو وجدت السبيل لخرجتُ حتى لا يكون لي ذكر..

هكذا كان الإمام من التواضع، بحيث يرى أن الشهرة بلوى، مع أن شهرته كانت شهرة العلماء الأجلاء، العاملين، المجاهدين..

التواضع شرف ورفعة، وخير الناس من تواضع عن رفعة، وأحمد قد بلغ الذروة في التواضع، في حين قد ملأت شهرته الآفاق، ويتمنّى لو يجد سبيلاً للخروج حتى لا يكون له ذكر..

حبُّه للفقراء

كان أهل الدنيا لا يعظّمون إلا مَن نال منها حظاً كبيراً، ولو لم ينتفعوا من دنياه بشيء، ولكن محبتهم لها، وشغلهم الشاغل بها، يجعلهم يتمسحون بأهلها، ولو كان أولئك الأغنياء أفقرَ الناس من الرحمة والدين والعقل والنبل، وينظرون إلى الفقراء نظر المتكبر، المطل من علوٍّ، إلى حشرة يخشى عَدْواها، ويشمئز من هيئتها!!

أما الزاهدون فيها، والموقنون بالرحيل عنها، فهم العقلاء الذين يعيشون وفق ما يكون، ويقطعون كل طمع بما لا يكون، فهؤلاء هم الفقراء، الراضون، وهم الذين يؤثرهم الإمام أحمد بمحبته وإعزازه وعنايته..

يقول أبو بكر المروذي: لم أرَ الفقير في مجلس أعزّ منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلاً إليهم، مُقصراً عن أهل الدنيا..

ويقول: قال لي أبو عبد الله - وذكر رجلاً فقيراً مريضاً - : اذهب إليه وقل له: أيَّ شيء تشتهي، حتى نعملَ لك؟ ودفع إليَّ طيباً، وقال لي: طيِّبه..

وقال أحمد بن حنبل: ما أعدل بالفقر شيئاً! ما أعدل بالفقر شيئاً! أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء..

كان الإمام أحمد يحب الفقراء، ويؤثرهم بعنايته ورعايته، بخلاف ما عليه أهل الدنيا من محبة الأغنياء ولو كانوا فقراء في الدين والخُلُق..
ولم يكن الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس أحمد، وكان يتفقد الفقراء، ويطيّب خاطرهم..

٣ العابد المتبتل

إن الصلاة ليست عبارة عن قيام وركوع، وسجود، وقراءة، وتسبيح، فهذا هيكل الصلاة، أما روحها ومعناها فهو الحضور والعبودية والخشوع، حضور مَن يريد مناجاة الخالق العظيم، مَن بيده الأمر كله، حين يخاطبه بـ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة:٥)
وهذا ما عُرف به الإمام أحمد، إذا دخل في صلاته لا يدري ما يجري وراءه. وكان كثير الالتجاء إلى الصلاة؛ لأنها ملاذُ العبد، ورفعته، وإخصاب روحه، وكان شيخه عبد الرزاق يقول عن صلاته: "كان أحمد بن حنبل إذا صلى يذكرني شمائل السلف"..
وقال عبد الله أيضاً: كان أبي لا يفتر عن الركعات بين العشائين (أي صلاتي المغرب والعشاء)، ولا بعدها في ورده من صلاة الليل..
وقال عبد الله أيضاً: رأيت أبي لما كبر وأسنَ اجتهد في قراءة القرآن، وكثرة الصلاة بين الظهر والعصر، فإذا دخلتُ عليه، انفتل من الصلاة، وربما تكلَم، وربما سكت، فإذا رأيتُ ذلك، خرجتُ فيعود لصلاته..
وكان ساعة يصلي العشاء الآخرة، ينام نومة خفيفة، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو..
وقال إبراهيم بن شمَاس: كنتُ أعرف أحمد بن حنبل - وهو غلام - وهو يحيي الليل..
وكان الإمام كثير الصيام، وقد عُذّب بضرب السياط وهو صائم، وصلى بعد الجَلْد، وجسمه يثغب دماً، وبقي أياماً صائماً دون إفطار إلا على الماء أو السويق (نوع من التمر الرديء)..
كان أحمد بن حنبل كثير الالتجاء إلى الصلاة؛ لأنها ملاذ العبد، حاضر القلب، خاشعاً، إذا دخل في الصلاة لا يدري ما يجري وراءه.. يصلي في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة، ويحيي الليل منذ كان غلاماً.. وكان كثير الصيام..



مع ما كان عليه الإمام أحمد من انكباب على العلم فإن ذلك لم يشغله عن الصلاة والعبادة وقيام الليل، وكان إذا صلى لا يدري ما يجري وراءه.

الإمام أحمد يقيم الليل بالعلم والمذاكرة

أجَلُّ الذكـر

كانت قراءة القرآن عند السلف من أجلّ الذكر، وكانوا يتبادرون إلى ذلك، ولا يرضون من تلاوة كلام الله أيَّ ذكر، إلا ما لَهُ وقت معلوم..

وكانوا يُدركون ما يقرؤون، وقد يستنبطون ويحصون آيات تتعلق بحكم أو معنى..

وكان أحمد قد أخذ نفسه بأن يختم القرآن مرة كل أسبوع، لم ينقطع عن ذلك طوال حياته، إلا حينما أثخنته الجراح، وحالت بينه وبين ذلك آلامه، ولكنه كان مع الله دائماً، لسانه رطب بالتسبيح وبالذكر، ويعيد السكينة إلى قلبه بالدعاء والابتهال..

يقول عبد الله بن أحمد: وكان أبي يقرأ في كل يوم سُبعاً (أي سُبع القرآن)، يختم في كل سبعة أيام، وكانت له ختمة في كل سبع ليال، سوى صلاة النهار..

قال جعفر بن أبي هاشم: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ختمتُ القرآن، فعددتُ موضع الصبر، فإذا هو نيِّف وتسعون..

وقال عبد الله بن أحمد: وكان - يعني أباه - يُسرّ بالقرآن، وربما جهر به..

أخذ أحمد نفسه بأن يختم القرآن مرة كل أسبوع، ولم ينقطع عن ذلك إلا حينما أثخنته الجراح، وأحياناً يختمه في ركعات يصليها من الليل، وذلك لأنِ قراءة القرآن من أجل الذكر وأفضله..

دعاؤه

عن أبي جعفر محمد بن يعقوب الصفار قال: كنا مع أحمد بن حنبل بسُرَّ من رأى، فقلنا: ادعُ الله لنا..

فقال: اللهم إنك تعلم أنك على أكثر مما نحب، فاجعلنا على ما تحب دائماً.. ثم سكت.

فقلنا: زدنا..

فقال: اللهم إنا نسألك بالقدرة التي قلتَ للسماوات والأرض :"ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين" اللهم وفقنا لمرضاتك، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ونعوذ بك من الذل إلا لك، اللهم لا تُكثر لنا فنطغى، ولا تقلّ علينا فننسى، وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغاً لنا في دنيانا، وغنى من فضلك..

وكان أحمد يدعو في السجود: اللهم مَن كان من هذه الأمة على غير الحق، وهو يظن أنه على الحق، فردَّه إلى الحق، ليكون من أهل الحق..

وكان يقول: اللهم إن قبلتَ عن عصاة أمة محمد ﷺ فداء، فاجعلني فداء لهم..

وكان يدعو فيقول: اللهم لا تشغل قلوبنا بما تكفّلت لنا به، ولا تجعلنا في رزقك خَوَلاً لغيرك، ولا تمنعنا خير ما عندك بشرِّ ما عندنا، ولا تَرَنا حيث نهيتنا، و لا تفقدنا من حيث أمرتنا، أعزنا ولا تذلنا، أعزنا بالطاعة، ولا تذلنا بالمعصية..

الدعاء مخ العبادة، والله سبحانه يحب أن يسمع صوت عبده، ويحب العبد اللحوح، لذلك كان أحمد ابن حنبل كثير الالتجاء والتضرع إلى الله عز وجل..

تُكثر من هذا

قال عبد الله بن أحمد: كنتُ أسمع أبي كثيراً يقول في دُبُر كل صلاة: اللهم كما صُنْتَ وجهي عن السجود لغيرك فصُنْ وجهي عن المسألة لغيرك..

فقلتُ له: أسمعك تكثر من هذا الدعاء، فعندك فيه أثر؟

فقال لي: نعم، كنت أسمع وكيع بن الجراح كثيراً يقول هذا في سجوده، فسألته كما سألتني..

فقال: كنت أسمع سفيان الثوري يقول هذا كثيراً في سجوده..

فسألته فقال: كنت أسمع منصور بن المعتمر يقوله..

اللهم كما صُنْتَ وجهي عن السجود لغيرك، فصُنْ وجهي عن المسألة لغيرك.. كان أحمد يُكثر من هذا الدعاء في دُبُر كل صلاة.

زودني دعوةً

يقول القاسم بن الحسين الورّاق: أراد رجل الخروج إلى طرسوس، فقال لأحمد: زودني دعوةً، فإني أريد الخروج، فقال له: قل: "يا دليلَ الحيارى دلّني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين".. قال: فخرج الرجل فأصابته شدّة، وانقطع عن أصحابه، فدعا بهذا الدعاء، فلحق أصحابه، فجاء إلى أحمد، فأخبره بذلك، فقال له أحمد: اكتمها عليّ..

يقول طلحة بن عبيد الله البغدادي - وكان يسكن مصر - : وافق ركوبي ركوب أحمد بن حنبل في السفينة، فكان يطيل السكوت، فإذا تكلم قال: "اللهم أمتنا على الإسلام والسنّة"..

أراد رجل الخروج، فطلب من الإمام أحمد أن يعلّمه دعوة تفيده في سفره، فعلّمه دعوة دعا بها، فلحق أصحابه، بعد أن أصابته شدة، وانقطع عنهم..

مُجاب الدعوة

روى البيهقي أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد، فقال: إن أمي زمنة (مريضة بمرض دائم) مقعدة منذ عشرين سنة، وقد بعثتني إليك لتدعو لها، فكأنه غضب من ذلك، وقال: نحن أحوج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها.. ثم دعا الله عز وجل لها، فرجع الرجل إلى أمه، فدق الباب، فخرجت إليه على رجليها، وقالت: قد وهبني الله العافية، وهذه من الكرامات بقدرة الله القادر على كل شيء سبحانه..

يقول إبراهيم بن هانئ: حدثني ساكنٌ لأبي عبد الله قال: كنتُ أشتكي، فكنتُ أئنُّ بالليل، فخرج أبو عبد الله في جوف الليل، فقال: مَنْ هذا عندكم يشتكي؟ فقيل له: فلان.. فدعا له وقال: اللهم اشفه، فكأنه كان ناراً صُبّ عليه ماءٌ..

وقال محمد بن عليّ السمسار: رأيتُ أبا عبد الله جاء بالليل إلى منزل صالح، وابن صالح تسيل الدماء من منخريه، وقد جمع له الطب، وهم يعالجونه بالفُتُل وغيرها، والدم يغلبهم، فقال له أبو عبد الله: أي شيء حالُك يا بني؟ قال: يا جدّي هو ذا أموت، ادْعُ الله لي، فقال له: ليس عليك بأس، ثم جعل يحرِّك يده، كأنه يدعو له، فانقطع الدم، وقد يئسوا منه؛ لأنه يرعف دائماً..

استجابة الدعاء من الكرامة، ولا تكون هذه الكرامة إلا لعبد مؤمن متقٍ، لم يجد لنفسه أمام ربه حولاً ولا قوة، ويتكل على الله، ويفوّض الأمر كله لله، وكذلك كان الإمام أحمد، فأكرمه الله بأن يُجيب دعاءه..

من إكرام الله تعالى له

أنـه وقع حريق في بيت ابنه صالح - وكان قد تزوج إلى قوم مياسير - فحملوا إليه جهازاً شبيهاً بأربعة آلاف دينار، فأكلته النار، فجعل صالح يقول: يا غمتي! ما ذهب مني إلا ثوب لأبي كان يصلي فيه، أتبرك به، وأصلي فيه.. فطفئ الحريق، فدخلوا، فوجدوا الثوب على سرير قد أكلت النار ما حواليه، والثوب سليم..

ويقول ابن الجوزي صاحب المناقب: قلت: لما وقع الغرق ببغداد في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وغرقت كتبي، سَلِم لي مجلد فيه ورقتان بخط الإمام أحمد رحمه الله تعالى

بِمَ تلين القلوب

قال أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسي: ذهبتُ أنا ويحيى الجلّاء إلى أبي عبد الله، فسألته، فقلت: رحمك الله يا أبا عبد الله، بِمَ تلين القلوب؟

فأبصر إلى أصحابه فغمزهم بعينه، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: يا بني، بأكل الحلال..

فمررتُ كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث، فقلت: يا أبا نصر، بِمَ تلين القلوب؟

قال: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"..

قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله..

فقال: هيه، إيش قال لك أبو عبد الله؟

قلت: بأكل الحلال..

فقال: جاء بالأصل..

فمررتُ إلى عبد الوهاب بن أبي الحسن، فقلت: يا أبا الحسن، بِمَ تلين القلوب؟

قال: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"..

قلت: فإني جئتُ من عند أبي عبد الله..

فاحمرّت وجنتاه من الفرح، وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟

قلت: قال: بأكل الحلال..

فقال: جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال..

سُئل الإمام أحمد : بِمَ تلين القلوب؟ فقال: بأكل الحلال، وسُئِل غيرُه، فقال: بذكر الله، لا شك أن ذكر الله يلين القلوب ويرققها، إن كانت نبتت من حلال، فأحمد رحمه الله جاء بالأصل والجوهر، لأن أيما جسم نبت من سُحت (حرام) فالنار أولى به، فلا يرق قلبه ولا يلين..

الرياء

دبيب الرياء إلى القلب أخفى من دبيب النمل، وما تغلّب عليه إلا أولئك الذين تحققوا أن لا إله إلا الله، فلا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلا هو سبحانه..

قال أبو بكر المروذي: سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله - وذكر له الصدق والإخلاص - فقال أبو عبد الله: بهذا ارتفع القوم..

وقال المروذي: كنتُ مع أبي عبد الله نحواً من أربعة أشهر بالعسكر، ولا يَدَع قيام الليل، وقراءات النهار، فما علمتُ بختمة ختمها، وكان يُسِرُّ ذلك، وكل ذلك خشية أن يتسرب إليه شيء من الرياء..

يقول ابن السماك: سمعتُ أحمد يقول: إظهار المحبرة من الرياء (أي إبراز أدوات الكتابة أمام الناس قد يؤدي إلى التفاخر بالعلم فيكون رياءاً)..

وكان يتمنّى - خوفاً من الرياء - خمولَ الذكر (أي عدم الشهرة)، فقد دخل رجل على أحمد بن حنبل، ويده تحت خده، فقال له: يا ابن أخي، إيش هذا الغم؟ لأي شيء هذا الحزن؟

فرفع الإمام أحمد رأسه، وقال: طوبى لمن أخمل الله ذكره..

وكان يقول: الزهد ترك حب الثناء..

وقيل له مرة: هذا العلم تعلّمته لله؟

فقال أحمد: هذا شرطٌ شديد، لكن حُبِّبَ إليَّ شيء فجمعتُه..

الإخلاص روح العمل، والعمل بغير روح عملٌ ميت، فلا اللهُ يقبله، ولا هو بمُنْجٍ من النار؛ لذلك حرص أحمد حرصاً شديداً على إخفاء عمله، خشية أن يتسرّب إليه شيءٌ من الرياء فيحبطه؛ فالرياء أخفى من دبيب النمل، وقلّ مَنْ تغلّب عليه..

وصية ثمينة

يقول أحمد - رحمه الله - بعد كلام: وجاء في الحديث أن العبد إذا افتتح الصلاة، استقبله الله بوجهه، فلا يصرفه عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، أو يلتفت يميناً وشمالاً..

وجاء في الحديث: أن العبد ما دام في صلاته، فلَهُ ثلاثُ خصال: البرُّ يتناثر عليه من عنان السماء إلى مفرق رأسه، وملائكةٌ يحفّون به من لَدُن قدميه إلى عَنان السماء، ومنادٍ ينادي: لو يعلمُ العبدُ مَنْ يناجي ما انفتل..

فرحم الله من أقبل على صلاته، خاشعاً، خاضعاً، ذليلاً لله عز وجل، خائفاً، داعناً، راغباً، وجلاً، مشفقاً، راجياً، وجعل أكثر همِّه في صلاته لربه، ومناجاته إياه، وانتصابه بين يديه قائماً وقاعداً، أو راكعاً وساجداً، وفرّغ لذلك قلبه وثمرة فؤاده، واجتهد في أداء فرائضه، فإنه لا يدري هل يصلي صلاة بعد التي هو فيها، أو يعاجَل قبل مقامه بين يدي ربه عز وجل، محزوناً مشفقاً، يرجو قبولها، ويخاف ردّها؛ إن قبلها سَعِد، وإن ردّها شقي، فما أعظمَ خطرك - يا أخي - في هذه الصلاة، وفي غيرها من أعمالك، وما أولاكَ بالهم والحزن، والخوف والوجل فيها، وفيما سواها مما افترض الله عليك، إنك لا تدري هل تُقبَل منك صلاةٌ قط أم لا، ولا تدري هل تُقبَل منك حسنة قط أم لا، وهل غُفِرَ لك سيئة قط أم لا..

ثم أنت مع هذا تضحك وتغفل، ولا ينفعُك العيش إذ جاءك اليقين أنك وارد النار، ولم يأتك اليقين أنك صادر عنها، فمَنْ أحقُّ بالبكاء وطول الحزن منك حتى يتقبل الله منك؟!

ثم - مع هذا - لا تدري لعلك لا تُصبح إذا أمسيت، ولا تُمسي إذا أصبحتَ، فمُبشَّر بالجنة، أو مُبَشَّر بالنار..

وإنما ذكرتك - يا أخي - هذا الخطر، إنك لمحقوق أن لا تفرح بأهل ولا مال، وإن العجب كل العَجَب من طول غفلتك، وطول سَهْوِك ولهوك عن هذا الأمر العظيم، وأنت تُساق سوقاً عنيفاً في كل يوم وليلة، وفي كل ساعة وطرفة عين..

فتوقّع أجلك - يا أخي - ولا تغفل عن الخطر العظيم الذي قد أظلك، فإنك لا بدّ ذائق الموت ولاقيه، ولعله ينزل في ساحتك في صباحك أو مسائك، أيسر ما تكون عليها إقبالاً، فكأنك قد أُخرجتَ من ملكك كله، وسُلبتَه، فإما إلى الجنة وإما إلى النار.. انقطعت الصفات، وقصُرت الحكايات عن بلوغ صفتها ومعرفة قدرها والإحاطة بغاية خيرها..

أما سمعتَ - يا أخي - قول العبد الصالح: عجبتُ للنار كيف ينام هاربها، وعجبتُ للجنة كيف ينامُ طالبها؟!

إلى أن قال: واعلموا رحمكم الله أن الإسلام في إدبار وانتقاص، واضمحلال ودروس، جاء الحديث: ترذلون في كل يوم، وقد أُسرع بخياركم؟!

أقوال ووصايا

قال صالح بن أحمد: - وذُكر عنده يوماً رجلٌ - فقال: "يا بني الفائز من فاز غداً، ولم يكن لأحد عنده تَبعة"..

- سُئل أحمد عن الحب في الله فقال: أن لا يحبه لطمع دنيا..
- ودّعه علي بن المديني فقال له: يا أبا عبد الله، توصيني بشيء؟
  فقال: نعم، "أَلْزم التقوى قلبَكَ، وانصب الآخرةَ أمامَك"..
- قال المروذي: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: "إن لكل شيء كرماً، وكرمُ القلوب الرضا عن الله عز وجل"..
- ويقول أحمد: "سبحانك! ما أغفل هذا الخلق؛ الخائف منهم مقصِّر، والراجي منهم متوانٍ"..
- قال عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر: بتُّ عند أحمد بن حنبل، فوضع لي ماء، فلما أصبح وجدني لم أستعمله..

فقال: صاحبُ حديثٍ لا يكونُ له وِرْدٌ في الليل؟!

قلت: أنا مسافر، قال: وإن كنتَ مسافراً! حجّ مسروق فما نام إلا ساجداً..

- قال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي يوماً: أوصني يا أبت..
  فقال: يا بني، انْوِ الخير، فإنكَ بخيرٍ ما نويتَ الخير..

أقوال ووصايا يوصي بها أحمد أولاده وأصحابه، تفيض بالمعاني العظيمة الرائعة، التي تفيد الإنسان في دنياه وآخرته..

إنها وصية ثمينة مليئة إيماناً وخشية وإنذاراً، يوصي بها أحمد إخوانه المسلمين، محذراً إياهم من الغفلة، والانشغال بالدنيا، وأن يجعلوا الموت نصب أعينهم، فإنه لا يدري أحد متى يأتيه، وأن يُقبل الإنسان على ربه في صلاته، خاشعاً، خاضعاً، يرجو قبولها ويخاف ردّها..

٤ الشخصية الفذّة

اتصف أحمد بصفات، كانت هي السبب في هذه الشهرة التي اكتسبها، وفي ذلك العلم الغزير الذي خلفه من بعده، وسارت الركبان بذكره، وهذه الصفات بعضها هبات من الله العلي القدير، يهبها لمن يشاء من خلقه، وبعضها صفات اكتسبها بالتربية، والمران، والنشأة، والتوجيه، والنزوع إليها بعون الله تعالى..

أولاً: الحافظة القوية الواعية

من أولى هذه الصفات: الحافظة القوية الواعية، وهي صفة عامة في المحدثين، وأهل الإمامة منهم بشكل خاص، ولقد اتصف بها مالك، واتصف بها الشافعي من الفقهاء الذين تركوا ثروة من الفقه والنظر والاستنباط..

وهذه الحافظة هي الأساس لكل علم ونظر، فلا بد لأهل العلم أن تكون عندهم طائفة حفظوها، يبنون عليها، ويستنبطون منها، وإن العلماء بالنفس في عصرنا الحاضر، كما كان الناس في الغابر، يردون عناصر الذكاء إلى الذاكرة المدركة، والحافظة الواعية، والبديهة الحاضرة، التي تثير المعلومات التي حفظت في أوقاتها المناسبة..

ولقد آتى الله أحمد من هذه الصفة حظاً وفيراً، والأخبار في ذلك متضافرة، يؤيد بعضها بعضاً، فمن ذلك: ما يروى عنه، فهو يقول: "كنتُ أذاكر وكيعاً بحديث الثوري، فكان إذا صلّى العشاء خرج من المسجد إلى منزله، فكنتُ أذاكره، فربما ذكر تسعة أحاديث، أو العشرة فأحفظها، فإذا دخل، قال لي أصحاب الحديث: أملِ علينا، فأمليها عليهم، فيكتبونها"..

ولقد شهد بقوة حفظه معاصروه، حتى عُدّ أحفظهم، وقد قيل لأبي زرعة معاصره: "مَنْ رأيت من المشايخ والمحدثين أحفظ؟ قال: أحمد بن حنبل"..

الذاكرة المدركة، والحافظة الواعية القوية، والبديهة الحاضرة، هي الأساس لكل علم ونظر، وهي صفة عامة في المحدثين، وأهل الإمامة بشكل خاص، وقد أوتي أحمد من هذه الصفة حظاً وفيراً، حتى عُدّ أحفظ معاصريه..

العارف المستنبط

لم يكن أحمد حافظاً واعياً فقط، بل كان ينقل ما ينقل، فيحفظ أحاديث رسول الله ﷺ، وفتاوى أصحابه، وفتاوى التابعين الذين اشتهروا بالورع والفقه والإفتاء، ويتفهم كل ذلك تفهم العارف المستنبط، الذي يبني على ما عرف، ولقد امتاز بهذا الفهم على سائر محدثي عصره، فقد كانوا يكتفون بالرواية دون الفقه والدراية، وكأنهم تركوا الاستنباط للفقهاء، الذين كانوا مختصين بصناعة الاستنباط، وانطبق عليهم تشبيه أبي حنيفة الذي شبَّه فيه المحدثين بالصيادلة، والفقهاء بالأطباء، أما أحمد فكان يُعنى بفهم فقه الآثار، كما كان الحافظ الراوي الذي بلغ الشأو البعيد في الرواية..

ويقول في ذلك معاصره إسحاق بن راهويه: "كنتُ أُجالسُ بالعراق أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأصحابنا، فكنا نتذكر الحديث من طريق، وطريقين، وثلاثة، فأقول: ما مراده؟ ما تفسيره؟ ما فقهه؟ فيقفون كلهم إلا أحمد بن حنبل"..

وقد كان علمه بالحديث والسنة، وفتاوى التابعين، واستنباطه الأحكام منها، سبباً في أن كان إماماً في الحديث وإماماً في الفقه، حتى لقد قال في ذلك تلميذه إبراهيم الحربي: "أدركتُ ثلاثة لم يُرَ مثلهم: رأيتُ أبا عبيد القاسم بن سلام، ما أمثله إلا بجبل نفخ فيه روح، ورأيت بشر بن الحارث، فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلاً، ورأيت أحمد بن حنبل، فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف، يقول ما شاء، ويمسك ما شاء"..

كان أحمد إماماً في الحديث، وإماماً في الفقه، فلم يكن الحافظ الواعي الذي يحفظ الأحاديث وفتاوى الصحابة والتابعين وحسب، بل كان يتفهم كل ذلك تفهم العارف المستنبط، الذي يبني على ما عرف، وقد امتاز بذلك على سائر محدثي عصره الذين اكتفوا بالرواية..

ثانياً: قــوة الإرادة

الصفة الثانية، وهي أبرز صفات أحمد، وهي التي أذاعت ذكره، ونشرت خبره، وهي صفة الصبر والجَلَد وقوة الاحتمال، وهي مجموعة من السجايا الكريمة أساسها قوة الإرادة، وصدق العزيمة، وبُعْد الهمة، مهما يتعب الجسم في ذلك، ولقد كانت هذه الصفة المزاج الخلقي الذي اختص به أحمد، فجمع بها بين الفقر والجود والعفة، وعزة النفس، والإباء، وبين العفو، واحتمال الأذى، وهي التي جعلته يتحمل ما يتحمل في طلب العلم، غير وانٍ ولا راضٍ بالقليل منه، يجوب الأقطار، ويقطع الفيافي والقفار، راكباً إن أسعفته الحال، وماشياً إن ضاقت به النفقة، فهو يرحل إلى البصرة، والكوفة، واليمن، والحجاز، ويكرر رحلاته طلباً للحديث، وليتلقى من رجاله، ويؤجر نفسه لحمل الأمتعة، لينال ما يسدّ به رمقه في الطريق، كما يكتب بأجر، وينسخ عندما يحط الرحال، وتضيق به الحال، بل يصنع بعض ما يعرف من الصناعات: ليأكل من عمل يده، اقتداء بالنبيين، واتباعاً لمنهج الصالحين، ويفضل ذلك على العطاء، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى..

والقوة التي كانت تمده بالعون هي هذه الصفة السامية، الصبر والجَلَد، وقوة الاحتمال، وقوة الإرادة والعزيمة، وبُعد الهمة، مع الفقر وشدة الحاجة..

الصبر والجَلَد، وقوة الاحتمال، ثمرة لعدد من السجايا الكريمة، أساسها قوة الإرادة، وصدق العزيمة، وبُعْد الهمة، والصبر أبرز صفات أحمد، وهو الذي أذاع ذكره، ونشر خبره..

الإرادة في الرخاء والشدة

ولما صار لأحمد شأن كبير، وتصدى للدرس والإفتاء، نزل به البلاء الأكبر، والمحنة العظمى، فكانت تلك الصفة هي عدته، وبها كانت أهبته، فقد صبر وصابر الذين آنزلوا به الأذى، حتى ملّوا الأذى، ولم يهُن ولم يستكن، ولم يخضع لهم، أو يجبهم إلى قولهم، وما كان ذلك الاحتمال إلا بقوة الإرادة والعزيمة، وقوة الاحتمال والجَلَد، ولما منَ الله عليه بالرخاء بعد الشدة، ابتلي بالنعمة بدل النقمة، وكان لا بد أن يحسن البلاء فيها، كما أحسن البلاء في الشدة، قدم إليه العطاء كثيراً موفوراً، وهو في الحاجة التي تشبه المخمصة، وأولاده وأحفاده حوله يقاسون ما يقاسي من هذه الحاجة، ولكنه علا على ذلك كله بقوة إرادته، وصدق عزيمته، وبُعد همته، فردَ كل عطاء بنزاهة نفسه، وليبقى هو لله خالصاً، لا لأحد من عبيده، فكانت تلك الصفة في هذا أيضاً عدته، وجهاده هنا لا يقل عن جهاده الأوَل، بل هو مثله، وإن لم يكن من نوعه، ولكنه أنبل وأسمى، وأعلى، فرضي الله عنه..

ومما لا شك فيه أن هذه الصفة هي التي كونت له تلك السمعة الذائعة، وتلك الشخصية الرائعة، وهي أبرز صفاته، ومفتاح عظمته، وسرها وعنوانها..

إن مفتاح عظمة أحمد وسرها وعنوانها تلك الصفة التي كانت عدته في الرخاء والشدة، فبقوة إرادته وصبره وصدق عزيمته استطاع أن يصمد في المحنة التي نزلت به، وبها استطاع أن يرد كل عطاء وهو في أمس الحاجة له؛ ليبقى خالصاً لله، لا لأحد من عبيده..

الصبر الجميل

من الحق علينا أن نذكر أن صفة الصبر التي امتاز بها أحمد، هي من نوع الصبر الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، ودعا إليه يعقوب عليه السلام بنيه فيما حكى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: "فصبر جميل"..

والصبر الجميل هو الصبر من غير أنين، ولا شكوى ولا ضجر، وكذلك كان أحمد رضي الله عنه؛ فلقد نزل به الأذى، فما أنَ وما ضج بالشكوى، وكان فيه صاحب الجنان الثابت الذي لا يطيش، ولا يذهب..

وهذا خبر يدل على قوة جنانه وثباته، فإنه مما يُروى: أنه أُدخل على الخليفة في أيام المحنة، وقد هوّلوا عليه لينطق بما ينجيه ويرضيهم، وقد ضربوا عنق رجلين في حضرته ليرهبوه، ولكنه في وسط ذلك المنظر المروع وقع نظره على أحد أصحاب الشافعي، فسأله: أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح على الخفين؟ فأثار ذلك دهشة الحاضرين، وراعهم ذلك الجنان الثابت الذي ربط الله على قلب صاحبه، حتى لقد قال خصمه ابن أبي دؤاد متعجباً: انظروا الرجل هو ذا يقدم لضرب عنقه، فيناظر في الفقه..

ولكنها الإرادة القوية والإيمان العميق، والنفس المفوضة المسلمة لقضاء الله وقدره، وهو الصبر الجميل الذي أخذ نفسه به، حتى أنه لم يئن عند المرض خشية ألا يكون صبره على أمر الله جميلاً..

الصبر الجميل: هو الصبر من غير أنين، ولا شكوى، ولا ضجر، وكذلك كان صبر أحمد، فما أنّ، ولا ضجّ بالشكوى، بل كان صاحب الجنان الثابت، والإيمان العميق..

اعتزاز بالله

قد نتساءل عن سرّ هذه القوة التي جعلت الإمام يحتمل ما احتمل، ويعلو على الشدائد، وإن السرّ في ذلك أن هذا الرجل العظيم قد اعتز بالله تعالى وحده، وتوكل عليه وحده، ونظر إلى ما عنده، ولم ينظر إلى ما عند الناس، ولم يحس بعظمة أحد سواه؛ ولامتلاء نفسه بهذا الوجدان العظيم، استهان بكل شيء؛ استهان بالشدائد، واستهان بمُنزليها، واستهان بمفاخر الحياة وزينتها، ورضي من متاعها بالقليل، ولم يقنع من العمل لله بغير الكثير الوفير، وقد أعطاه ذلك الاعتزاز علواً عن سفساف الأمور، فلم يعلق بنفسه درن من حقد، أو حب انتقام، ولذلك كان كثير العفو عمن يسيء إليه..

ولاعتزازه بالله كان متواضعاً، ليناً مع عامة الناس، مقيلاً لعثراتهم، فإن المعتز بغير الله، يكون غليظ العنق مستكبراً، والمعتز بالله يكون طيب القلب ليناً، ولقد حكى عنه تلميذه المروذي، فقال: "لم أرَ الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلاً إليهم، مقصراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعجول، وكان كثير التواضع، تعلوه السكينة والوقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يُسأل، وإذا خرج إلى مسجده لا يتصدر، ويقعد حيث انتهى به المجلس..

إن سرّ القوة التي جعلت أحمد يعلو على الشدائد، ويحتمل ما احتمله؛ هو اعتزازه بالله وحده، وتوكله عليه، فجعله يستهين بكل شيء، بالأذى، وبالحياة وزينتها، واعتزازه بالله جعله متواضعاً طيب القلب مع عامة الناس، غير مستكبر ولا غليظ...



الإمام أحمد صاحب النفس العزيزة مع القلب الطيب مع الناس

ثالثاً: النزاهة المطلقة

الصفة الثالثة من صفات أحمد رحمه الله تعالى التي امتاز بها: النزاهة بأدق معانيها، وجميع صورها وأشكالها، فهو منزه النفس لم يأخذ لا قليلاً ولا كثيراً من مال غيره، وكان عفيفاً في أعلى درجات العفة، لا يخضع لهوى، ولا تسيره شهوة، عيوفاً عن أموال الناس في أكمل ما يكون عليه الرجل الكامل، وكان نزيهاً في إيمانه، فلم يجعل لأحد غير الله تعالى عليه سلطاناً، ولم يطق أن ينطق بغير ما يعتقد، ولا أن يواري ويداري، ولو كان السيف يبرق في يد من يرعد به، ورضي بإنزال الأذى الشديد عن أن ينطق بكلمة واحدة فيها مداهنة وكذب، فما كان يرضى بالدنية في دينه، وكان نزيهاً في عقله وتفكيره، فلم يقبل أن يخوض في أمر لم يخض فيه السلف الصالح، وكذلك سلك في فقهه، فوجد أن من نزاهة العقل ألا يفتي حيث علم أن لأحد الصحابة فتوى في المسألة التي سُئل فيها، بل كان إذا وجد الصحابة اختلفوا في مسألة؛ لم يوازن بين أقوالهم ويختر واحداً منها؛ على ضوء ما تؤدي إليه الموازنة المستقيمة، والقياس الدقيق إذا لم يكن نص أو خبر صحيح؛ بل يجعل المسألة ذات أقوال، وللمبتلى أن يختار أيها شاء إذا لم يكن أحدها أقرب إلى النص من غيره، فنزاهة الفكر أو الفقه عنده توجب عليه الاتباع المطلق للسلف الصالح، وليس من شأن الاتباع المطلق أن يخطّئ هذا، ويصوّب ذاك من غير نص، إذ كل واحد منهم من رسول الله ﷺ ملتمس..

الصفة الثالثة من صفات أحمد التي ميّزته ورفعته؛ النزاهة المطلقة في أدق معانيها، وجميع صورها وأشكالها، نزاهة النفس، فلم يقبل عطاء قليلاً أو كثيراً، ونزاهة الإيمان، فلم ينطق بغير ما يعتقد ولم يداهن، ونزاهة العقل والفكر، إذ لم يخض في أمر لم يخض فيه السلف الصالح، ولم يسمح لنفسه بالموازنة بين أقوال الصحابة إذا اختلفوا..

تحري الحلال

هذه نزاهة مطلقة، أخذ نفسه ذلك الإمام الجليل بها، ولقد دفعته عزة النفس أو نزاهتها على حد تعبيره، أن يترك بعض الحلال، وأن يمتنع عن قبول العطاء، فلم يأخذ عطاء حتى من صديق، ولا من أمير، ولا خليفة، مع تصريحه لبعض أولاده بأنه حلال يصح الحج منه، وأنه يتركه تنزيهاً للنفس لا تحريماً..

وكان لا يأكل إلا من كسب يده، أو من غلة عقار ورثه، ويلقى في سبيل ذلك العناء الشديد، والحرمان من كثير من طيبات الحياة، ولهذا كان زاهداً، ولكنه زهد ليس أساسه الرغبة عن طيبات الحياة، بل أساسه طلب الحلال، ولكن لا يطلبه من مال فيه شبهة، بل من مال يناله من غير أن تصاب النفس في نزاهتها أو عزتها، ومن غير أن يلجأ في ذلك إلى أحد من العباد..

وكان يرى أن الزهد الذي يلين القلوب، ويرقق النفوس ليس هو في الامتناع عن الحلال، بل في طلبه من غير أن يدنس النفس، فهو ما كان ينقطع عن الحياة وأسبابها ومتعها، بل كان لا يمتنع عن متع الحياة على شرط الدين والخُلق الفاضل، وهو أن لا يأخذها من غير حلها؛ فهو يطلب الحلال ولا يأكل إلا الحلال، وفي تحري الحلال كانت نفسه معناة، يترك ما تشتبه فيه قلّ أو جلّ، ولا يأخذ إلا ما لا شبهة فيه، ويكتفي، وإن قلّ، فمنطقه في هذه الحياة هو منطق الحي، القانع الراضي، الزاهد في غير الحلال، مهما تكن حاجته إليه..

لقد كان أحمد لا يتحرّى طلب الحلال فحسب؛ ولكن يتحرى طلبه من غير أن تُصاب نفسه في نزاهتها أو عزتها، ومن غير أن يلجأ إلى أحد من الناس، وقد لاقى في سبيل ذلك العناء الشديد، والحرمان من كثير من طيبات الحياة.. ولكن مع نفس راضية مطمئنة..

نقطة الوسط

كان أحمد - رحمه الله - يرى أن الاقتصار على الحلال الخالص الذي لا شبهة فيه، مرتبة هي من أعز المراتب نيلاً، لا يقوى عليها إلا أولو العزم من الرجال، ويرى أن القوة الحقيقية للإنسان ليس ت في قوة البدن، ولكن في الاستيلاء على النفس وحملها على الاقتصار على الحلال، وألا تسير وراء ما تهوى، ولقد سُئل - رحمه الله - عن الفتوة، فقال: "إنها ترك ما تهوى لما تخشى".. أي أن قوة العزيمة والتحكم في الأهواء والسيطرة عليها هي القوة كل القوة، أو هي القوة التي يليق أن يتصف بها الإنسان، وإن الاقتصار على الحلال النزه، هو وسط بين الحرمان المطلق الذي نهى الله تعالى عنه في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾(المائدة: من الآية٨٧)، وبين الاندفاع المطلق الذي يكون فيه تجاوز ما أباح الله، أو الوقوع في حمى المحرمات، والتزامه فيه مشقة نفسية؛ لأن النفس تتطلع للتمتع، فإما أن تُحرَم فيُقطع تطلعها؛ وإما أن تُجاب فتقع في المحظور..

والوقوف عند نقطة الوسط من غير انحراف ولا زلل، يحتاج إلى ضبط وقوة نفس..

وفي دائرة الحلال الذي لا شبهة فيه، يستطيب أحمد متع الحياة، ويستأنس الصحاب، وأهل المروءة، ويسخو ويجود بالحلال القليل الذي ناله من طيبات هذه الدنيا..

إن مرتبة الاقتصار على الحلال الخالص الذي لا شبهة فيه، هي من أعزّ المراتب نيلاً، ولا يقوى عليها إلا الأشداء، لأن الوقوف عند نقطة الوسط، من غير انحراف ولا زلل، يحتاج إلى ضبط وقوة نفس؛ بحيث لا يقع في الحرمان المطلق من متع الحياة المباحة، ولا يندفع الاندفاع المطلق، فيقع في الحرمات..

رابعاً: الإخلاص

الصفة الرابعة من صفات أحمد التي امتاز بها؛ الإخلاص، والإخلاص في طلب الحقيقة ينقي النفس من أدران الغرض، فتستنير البصيرة، ويستقيم الإدراك، ويشرق القلب بنور المعرفة، وهداية الحق، وقد كان الأئمة الثلاثة الذين سبقوا أحمد في الاجتهاد الفقهي، قد اتصفوا جميعاً بهذه الصفة وامتازوا بها، ذلك لأن الهداية لا تكون إلا لمن يقذف الله في قلبه بنور الإخلاص، إذ الإخلاص لله سبحانه وتعالى هو أن يحب الإنسان الشيء لا يحبه إلا لله، فلا يطلب العلمَ لمراء أو جدال، أو لاحتياز مجالس، أو لجاه عند ذي سلطان، ومَن ارتقى بعلمه إلى هذه الرتبة، لا تعلق به غواشي الامتراء، ومعوقات الهوى، بل يتجه إلى الحقيقة اتجاهاً مستقيماً لا عوج فيه، ومن اتجه إلى طلب الحقيقة مستقيماً؛ وصل إليها بنور الله، ونطق بالحكمة لهداية الله، ووصل إلى الغاية من أقرب طريق، وأهدى سبيل..

الإخلاص نور يقذف الله به في قلب من أراد له الهداية، فتستنير البصيرة، ويستقيم الإدراك، ويشرق القلب بنور المعرفة وهداية الحق، ويتجه إلى الحقيقة اتجاهاً مستقيماً لا عوج فيه، ويصل إلى الغاية من أقرب طريق وأهدى سبيل..

والإخلاص هو الصفة الرابعة من الصفات التي امتاز بها الإمام أحمد ابن حنبل..

حظ كبير

لقد آتى الله تعالى الإمام أحمد حظاً كبيراً من الإخلاص في طلب علم الكتاب والسنة، فما سيطر عليه هوى عند طلبه، وما أراد أن يبتدع أمراً غير ما سلكه السلف الصالح في طلبه، فإن هذا العلم دين، يكون الاتباع فيه واجباً من غير أي ابتداع، وما طلب هذا العلم لجاه الدنيا، ولا للشهرة والسمعة، بل كان ينفر منهما أشد النفور، ويتمنّى ألا يكون شيئاً مذكوراً عند الناس، وكان يتجنب الرياء ويباعده، ويبالغ في الابتعاد عنه، حتى أنه كان لا يظهر المحبرة ليذكره الناس بالحرص على الكتابة، بل يقول: "إظهار المحبرة من الرياء"..

وكان يؤثر ألا يسمع به أحد، فكان يقول: "أريد النزول بمكة، ألقي نفسي في شعب من تلك الشعاب حتى لا أُعرف"..

ولهذا المعنى الجليل الذي سيطر على نفسه، فجعلها خالصة لربه، كان يستقل ما يقوم به من عبادات، ولا يستكثر ما وقع له من محنة، فكان لا يذكرها، ويستر آثارها، ولا يحب أن يعلم الناس ما نزل به، وكان بعيداً عن الزهو والافتخار، لا يفتخر بعمل قام به، ولا يزهو على أحد بحالٍ هو عليها.. قال يحيى بن معين فيه: ما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل، صحبته خمسين سنة، ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير.. وذلك لأنه كان لا يستكثر ما قدّم، والنفس اللوامة المؤمنة، تتهم صاحبها بالتقصير، ولا تُدلّ على الناس بالعبادة..

لقد آتى الله الإمام أحمد حظاً كبيراً من الإخلاص، فما طلب العلم لجاه ولا لشهرة أو سمعة، بل طلبه خالصاً لله، وتمنّى ألا يذكره أحد، وأن ينزل في شعب بعيد حتى لا يُعرف، وما افتخر على أصحابه بشيء مما كان عليه.. رحمه الله تعالى ورضي عنه..

خامساً: الرجل المهيب

الصفة الخامسة التي امتاز بها أحمد، وجعلت لدروسه وكلامه موقعها في نفوس سامعيه: الهيبة مع الثقة به، فقد كان رحمه الله مهيباً من غير خوف، وموضع الإجلال والاحترام من غير رهبة، وكانت له هيبة، حتى في نفس أساتذته، فقد كان بعض أساتذته يمزح مع بعض تلاميذه، غير عالم بمكان أحمد من المجلس، فلما علم بمكانه لامهم، إذ لم ينبهوه إلى وجوده، حتى لا يمزح وهو في حضرته..

وكانت الشرطة تهابه، حتى عندما كانوا يساورون داره، فإنه يروى أن الشرطي الذي كان يناط به القيام بالليل على باب داره، ذهب ليناديه، فهاب أن يطرق بابه، وفضّل أن يطرق باب عمه، ويصل إليه من ذلك الباب، بعد أن تستأنس نفسه بذلك اللقاء المهيب..

الهيبة من غير خوف، والإجلال والاحترام من غير رهبة، كانت من الصفات التي ميّزت الإمام أحمد، وجعلت لدروسه وكلامه موقعهما من النفوس، فكان رجلاً مهيباً حتى عند أساتذته، وحتى عند الشرطة الذين كانوا يساورون داره، فيهابون طرق بابه..

الأليف المألوف

أما هيبة تلاميذه له، فأعظم من ذلك، وإن كان هو الأليف المألوف بينهم، الموطأ الكنف، الذي يجانب العلو والاستكبار، يقول أحد تلاميذه فيه:

"كنّا نهاب أن نردّ على أحمد في شيء، أو نحاجّه في شيء من الأشياء"..

ويقول أحد معاصريه الذين تتلمذوا عليه: "دخلتُ على إسحاق بن إبراهيم، وفلان وفلان من السلاطين، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل، صرتُ إليه أكلمه في شيء، فوقعت عليّ الرعدة حين رأيته من هيبته"..

ويقول أبو عبيدة القاسم بن سلام: "جالستُ أبا يوسف، ومحمد بن الحسن، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، فما هبتُ أحداً منهم، ما هبتُ أحمد بن حنبل"..

مع أن الإمام أحمد كان أليفاً مألوفاً، موطأ الكنف، يُجانب العلو والاستكبار؛ إلا أنه كان مهيباً، ما رآه أحد إلا هابه، حتى أن بعضهم وقعت عليه الرعدة حين رآه من هيبته..

سرُّ هيبته

إن هذه الهيبة هبة من الله سبحانه وتعالى، يهبها لمن يشاء من عباده، ففي الناس رجال آتاهم الله قوة نفس، وقوة وجدان، وإشعاعاً روحياً، يجعلهم يؤثرون في غيرهم، ويستولون على نفوس الناس، لا بقوة السلطان، ولكن بقوة الوجدان..

ولقد كانت كل أحوال أحمد من شأنها أن تنمي هذه الهيبة، وتقوي تأثيرها في النفوس، وتجعل أثرها بالغاً، فهو في جِدّ مستمر، لا مزاح فيه، حتى إنه ليحسب أن كل مزحة هي مجة من العقل، أو غفوة من الوجدان الديني، وهو لا يريد أن يمج عقله، ولا يريد أن يخبي نار الوجدان، لأن في قوة الإحساس الديني إرهافاً للإيمان، وهو مع جده في صمت دائم، لا لغو في القول ولا تأثيم، وهو في حضرة أصحابه يأبى أن يتكلم إلا في ا لعلم، أو يصمت، والصمت والابتعاد عن اللغو يجعلان المتصلين بالشخص متحفظين في حضرته، وبذلك تنمو المهابة، فإنه لا يبذل نفس الإنسان، ولا يُسقط المهابة، ويذهب بالروعة؛ أكثر من لغو القول، والمراء والجدل، والمكاثرة، والمهاترة، وقد تجافى أحمد رحمه الله عن كل ذلك، وباعده عن قلبه ولسانه..

وإنه مما نمى مهابته؛ تلك المحنة التي نزلت به، فتحملها بجَلَد وصبر، فإنها أشاعت ذكره، وتحدّث الناس بأمره، وإن حسن السمعة وبُعد الصيت، وجميل الذكر، تجعل لمجلس صاحبها روعة وهيبة في نفوس الناس، فإن ألسنة الخلق بالثناء، تلقي مهابة صاحب الثناء في النفس، وخصوصاً إذا كان أهلاً لذلك.

الهيبة هبة من الله يهبها لمن يشاء، وتنمو وتزداد إن رعاها الإنسان وصانها، وإن الإمام أحمد قد وهبه الله هذه الهيبة، وكانت أحواله كلها من شأنها أن تنميها، وتقوي تأثيرها في النفوس، فهو في جدٍّ مستمر، وصمت دائم إلا أن يتكلم في العلم، يحفظ لسانه وقلبه عن اللغو، والمراء والجدل، ومما زاد في هيبته ونماها، صبره وجَلَده في تلك المحنة التي نزلت به..

حسن العشرة

وكان أحمد مع هذه الهيبة وذلك الجلال: حسن العشرة، ولم يكن فظاً غليظاً، بل كان طلق النفس والوجه، كريم الخلق، سمح المعاملة، ليناً رقيقاً، وكان شديد الحياء، يستحي من الله حق الحياء، فلا ينافق ولا يواري، ويستحي من الناس، فلا ينافرهم ولا يكابرهم، قال بعض من لاقوه في وصفه: "وما رأيت أحداً في عصر أحمد ممن رأيت، أجمع منه ديانة، وصيانة، وملكاً لنفسه، وفقهاً، وأدب نفس، وكرم خُلق، وثبات قلب، وكرم مجالسة، وبعداً عن التماوت"..

ويقول غيره: "كان أحمد من أحيى الناس، وأكرمهم نفساً، وأحسنهم عشرة وأدباً، كثير الإطراق والغض، معرضاً عن القبح واللغو، لا يُسمع منه إلا المذاكرة بالحديث، وذكر الصالحين والزهاد، في وقار وسكون، ولفظ حسن، وإذا لقيه إنسان بشّ به، وأقبل عليه، وكان يتواضع للشيوخ تواضعاً شديداً، وكانوا يكرمونه ويعظمونه"..

ليس معنى الهيبة أن يكون الإنسان فظاً غليظاً، بل على العكس، فأحمد مع هيبته وجلاله، كان حسن العشرة، طَلْق النفس والوجه، كريم الخُلُق، سمح المعاملة، ليناً رقيقاً، شديد الحياء، شديد التواضع، شهد له بذلك معاصروه وتلاميذه..

هدي نبوي

هذه أخلاق أحمد وصفاته، وهي مستمدة من الهدي النبوي الكريم، اتبع فيه هدي الرسول ﷺ، واتخذ منه قدوة حسنة، فكان يتعرف أخلاق الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ويأخذ نفسه بها أخذاً شديداً، من غير مراءاة، أو سعي وراء الشهرة، التي كان يتململ بها إذا جاءته، فكان الرفيق في قوله وفعله، وكان ذا الحياء المهيب، وكان المتواضع المستكين لله، العزيز في الحق، المعتز به، وبالله العلي القدير..

اتبع أحمد هدي النبي ﷺ، واتخذه قدوة له.. فكان الرفيق في قوله وفعله، الحيّي المهيب، المتواضع المستكين، المعتز بالله العلي القدير..

الباب الثاني

تميّز الإمام

الفصل الثالث

محنة خلق القرآن



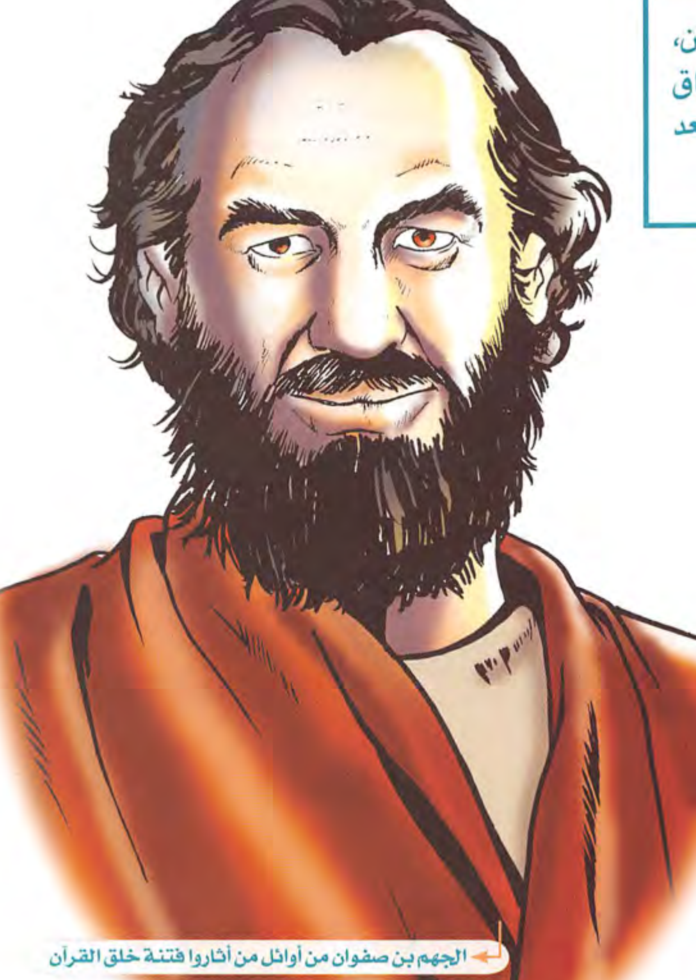
١ أصل الفتنة ونشأتها

ارتبطت فتنة خلق القرآن برجلين مشهورين من رجالات هذه الأمة؛ الأول مشعلها هو الخليفة المأمون، والثاني المكتوي بنارها، الصابر على محنتها، المطفئ لضلالها: الإمام أحمد بن حنبل..

وكان أول من أظهر هذه البدعة: الجعد بن درهم، وجعد هذا كما قال الذهبي في ميزان الاعتدال: مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلّم موسى..

وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة، وقد أظهر مقالته بخلق القرآن أيامَ هشام بن عبد الملك، فأخذه هشام، وأرسله إلى خالد القسري، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد ولم يقتله، فبلغ الخبر هشاماً، فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله، فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه، فلما صلّى العيد يوم الأضحى، قال في آخر خطبته: انصرفوا وضحّوا يقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم، ونزل وذبحه..

الجعد بن درهم هو أول من عُرف بإثارة فتنة خلق القرآن، في أيام هشام بن عبد الملك، فأرسله هشام إلى والي العراق خالد القسري، وأمره بقتله، فقتله يوم عيد الأضحى بعد صلاة العيد..



الجهم بن صفوان من أوائل من أثاروا فتنة خلق القرآن

الجهم بن صفوان

فأما الرجل الثاني الذي قال بذلك فهو الجهم بن صفوان، وإليه تنسب فرقة الجهمية، وقد نفى الجهم صفةَ الكلام عن الله تعالى، وحجته في ذلك: أنه ينزه الله سبحانه عن الحوادث، وصفاتها، وانتهى إلى القول بأن القرآن مخلوق وليس قديماً، وكان الجهم صاحب شغب وفتن سياسية، فقتله نصر بن سيّار سنة ١٢٨هـ بعد مقتل الجعد بن درهم بعشر سنوات..

أخذ الجهم بن صفوان عن الجعد بن درهم قوله بأن القرآن مخلوق وليس قديماً، وحجتُه في ذلك أنه ينزه الله سبحانه عن الحوادث وصفاتها، فنفى صفة الكلام عن الله سبحانه، وقد قتله نصر بن سيّار سنة ١٢٨هـ..

بشر المريسي

وفي العصر العباسي، وفي عهد الرشيد على وجه التحديد؛ ظهر بشر بن غياث، المشهور: ببشر المريسي، وقال بخلق القرآن، وحُكي عنه في ذلك أقوال شنيعة، وكان مُرْجِئاً، وإليه تُنسَب الطائفة المريسية، وترامَتْ إلى سمع الرشيد مقالة بشر، فيتوعده الرشيد ويقول: بلغني أن بشر ابن غياث يقول إن القرآن مخلوق، لله عليَّ إن أظفرني الله به لأقتلنّه، وكان بشر متوارياً طيلة حكم الرشيد؛ لخوفه منه، لأنه كان يعرف عقاب ما ينشره من فتنة..

فلما مات الرشيد، وأتى عهد المأمون أظهر بشر المريسي القول بخلق القرآن بعناد وجرأة على الله، وكان من الذين لهم أَثَر على عقيدة المأمون..

بشر بن غياث المريسي ظهر في عهد الرشيد، وقال بخلق القرآن، فحلف الرشيد إن ظفر به ليقتلنّه، فبقي مختفياً طيلة حكم الرشيد، فلما مات وأتى عهد المأمون ظهر، ودعا إلى الضلالة، وكان له أثر في عقيدة المأمون..

لماذا قالوا بخلق القرآن؟!

و المعتزلة انحرفوا عندما قدموا العقل على النص، وأرادوا بعقولهم تنزيه الله تعالى، فزين لهم المنطق أن الله تعالى لا يتكلم لأن الله عز وجل قديم لا يتجدد، والكلام أمر جديد يحدث وليس بقديم، فمن أجل أن ينزهوا الله تعالى عن التجدد قالوا: أن القرآن مخلوق من مخلوقات الله تعالى خلقه كما خلق السماوات والأرض، وليس بكلام الله عز وجل، لأنه عندهم سبحانه لا يتكلم، ومن قال إنه يتكلم فقد جعل لله تعالى جسداً فهو كافر..

(المأمون) أول خليفة أجبر الناس على القول بخلق القرآن

خطورة هذا القول

و خطورة هذا الأمر إلغاء صفة من صفات الله تعالى وهي الكلام، وبالتالي يمكن بعد ذلك تغيير الصفات الأخرى بالعقل..

وكذلك تعطيل القرآن، فاضطروا أن يحرفوا القرآن في قوله تعالى: (وكلّم اللهُ موسى تكليماً) فغيروها إلى نصب لفظ الجلالة بدل الرفع ليكون المتكلم هو موسى والمخاطب هو الله تعالى.

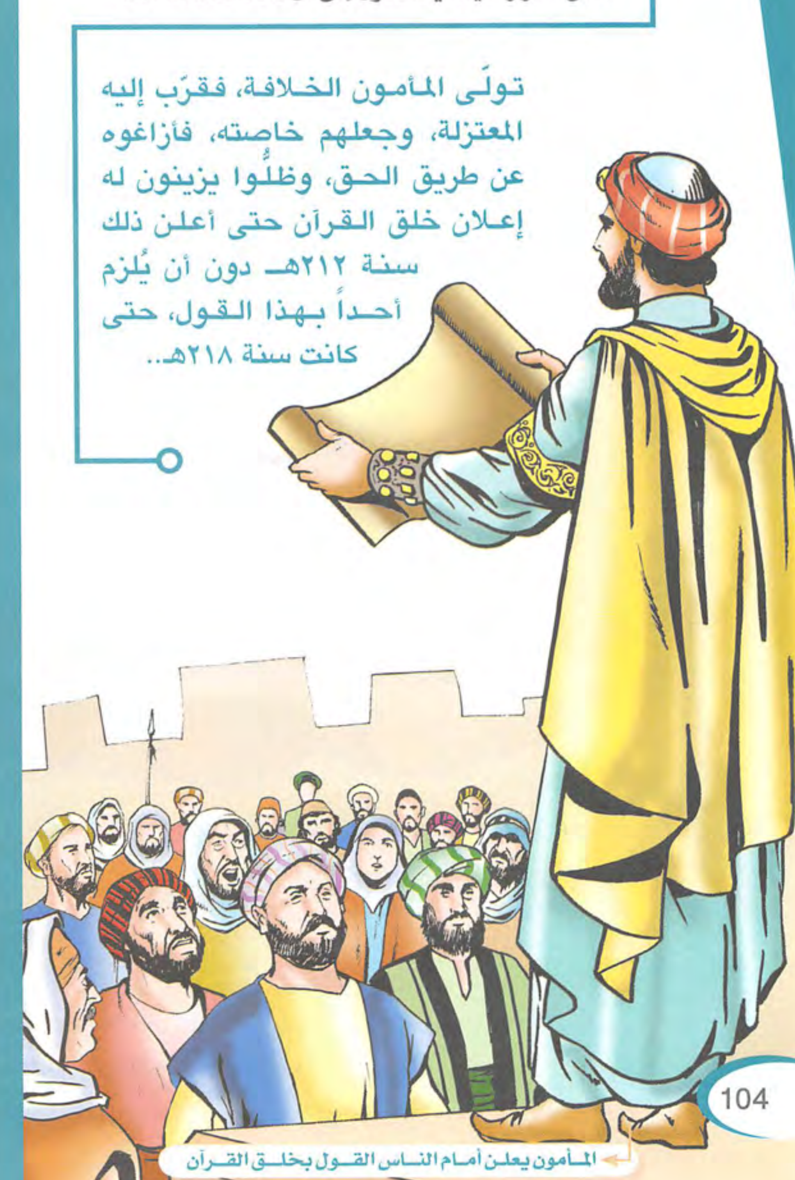
وكذلك كون القرآن مخلوق، فالمخلوق معرض للنقص والفناء وبالتالي يسهل الطعن في القرآن الكريم..

وغيرها من النتائج الخطيرة لهذا القول، والحقيقة أن المعتزلة شغلوا الأمة بهذا القول وبإقناعهم للخليفة بأن يجبر الناس على هذا القول باعتبارهم كفاراً، ولو ترك الخليفة الأمر للمناظرات والمناقشات بين العلماء لكان أنفع له وللأمة..

٢ المحنة زمن المأمون

جاء الخليفة المأمون، فاستحوذ عليه جماعة من المعتزلة، فأزاغوه عن طريق الحق، وجعلهم خاصته، وأخذ عنهم علمهم، وفلسفتهم وعقائدهم، وكان منها فكرة تنزيه التوحيد التي تولدت منها فكرة خلق القرآن، وما زالوا به يزينون له إعلان ذلك على الملأ، حتى أعلن سنة ٢١٢هـ القول بخلق القرآن، فاشمأزت النفوس منه، وكادَ البلد يفتتن، ولكنه في إعلانه هذا لم يُلزم أحداً فيما أعلنه، وترك الناس أحراراً فيما يعتقدون إلى أن كانت سنة ٢١٨هـ.

تولّى المأمون الخلافة، فقرّب إليه المعتزلة، وجعلهم خاصته، فأزاغوه عن طريق الحق، وظلُّوا يزينون له إعلان خلق القرآن حتى أعلن ذلك سنة ٢١٢هـ دون أن يُلزم أحداً بهذا القول، حتى كانت سنة ٢١٨هـ..



المأمون يعلن أمام الناس القول بخلق القرآن

بدء المحنة

وفي سنة ٢١٨هـ أعلن المأمون حَمْل علماء الأمة على القول بخلق القرآن، وأن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق هذه الفكرة، وليس في علماء الأمة وكبار محدثيها أحد يقول هذه المقالة..

يقول أحمد بن عمر بن عيسى: سمعت أبي يقول: ما رأيتُ مجلساً يجتمع فيه المشايخ، أنبلَ من مشايخ اجتمعوا في مسجد الكوفة في وقت الامتحان، فقال أبو نعيم: أدركتُ ثمانمائة شيخ، ونيفاً وسبعين شيخاً، منهم الأعمش فمن دونه، ما رأيت خلقاً يقول بهذه المقالة - يعني مقالة خلق القرآن - ولا تكلَّم أحد بهذه المقالة إلا رُمي بالزندقة، فقام أحمد بن يونس فقبّل رأس أبي نعيم، وقال: جزاك الله عن الإسلام خيراً..

وفي رواية أخرى قال محمد بن يونس: لما أدخل أبو نعيم على الوالي ليمتحنه، قال: أدركتُ الكوفة، وبها أكثر من سبعمائة شيخ - الأعمش فمَن دونه - يقولون: القرآن كلام الله، وعنقي عندي أهونُ من زري هذا.. فقام إليه أحمد بن يونس فقبّل رأسه، وكان بينهما شحناء..

وهكذا دُعي هؤلاء الشيوخ وأمثالهم إلى الاستجابة لما يريده منهم المأمون، ومَنْ وراء المأمون، منَ القول بخلق القرآن، ومَن أبى دُعي إلى مناظرة مظلّلة بالسيف، مفروشة بالنطع والحديد، وحرية البحث مضمونة بالجلد، أو السجن، أو الموت الزؤام..

هكذا بدأ المأمون بإشعال نار هذه الفتنة، ودعوة الناس وفي مقدمتهم الفقهاء والمحدّثون إلى اعتناق هذه الفكرة بقوة السلطان، ومَن لا يُجِبْ فسيكون الجَلْد، أو السجنُ، أو الموتُ، مصيرَه..

الكتاب الأول

و

ابتدأ المأمون بإرسال كتبه، وهو بالرقة إلى إسحاق بن إبراهيم نائبه في بغداد، بامتحان القضاة والمحدثين، ليحملهم على أن يقولوا إن القرآن مخلوق ويظهر أنه ابتدأ يحمل الذين لهم شأن في مناصب الدولة، والذين يتصلون بالحكام بأي نوع من أنواع الاتصال، ولو كانوا شهوداً في نزاع يفصل فيه القضاء..

فقد جاء في آخر أول كتاب أرسله إلى نائبه في بغداد:

".. فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآنَ وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمُرْهُم بنصّ من يحضرهم من الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم بخلق القرآن، وترك إثبات شهادة مَنْ لم يُقرّ أنه مخلوق مُحْدَث ولم يَرَهُ، والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، وحتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله"..



بدأ المأمون بإرسال كتبه إلى نائبه بالعراق إسحاق بن إبراهيم، لامتحان القضاة والمحدثين، ومَنْ لهم مناصب في الدولة، وحَمْلِهم على القول بخلق القرآن..

المعتزلة يضغطون على المأمون لإجبار الناس والعلماء على القول بخلق القرآن

سبعةُ نفر

وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في إحضار سبعة نفر، منهم: محمد بن سعد الواقدي، ويحيى بن معين.. وغيرهم.

فأحضروا إليه، فامتحنهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً: إن القرآن مخلوق، فأرسلهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن ابراهيم دارَه، فشَهَر أمرهم وقولهم بحَضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون، فخلَى سبيلهم، وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون..

هذه هي الدفعة الأولى ممن اشتهر ذكرهم في العلم، وظاهرٌ أنهم استجابوا لدعوة المأمون، وأقروا بما جاء في كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم من القول بخلق القرآن، والأمر الذي لا مرية فيه أن أكثرهم - إن لم نقُل جميعهم - إنما استجابوا خوفاً من سيف المأمون، أو السجن حتى الموت، فأجابوا مضطرين لا راضين..

وإذ قد رأى المأمون أن وعيده أثَّر وأفاد، فاستجاب النفر الذين طلبهم، فلا بد أن يكتب مرة أخرى، لاستدعاء مَنْ هم أنْبَهُ ذكراً من المحدثين والفقهاء..

استدعى إسحاق بن إبراهيم بأمر من المأمون، سبعةً من العلماء، فامتحنهم، وسألهم عن خلق القرآن؛ فأجابوا كلهم بأنه مخلوق، خوفاً من سيف المأمون، وكانت إجابتهم حافزاً له ليكتب كتاباً آخر، لاستدعاء من هم أكثر شأناً من الفقهاء والمحدثين..



ولاة المأمون يخبرون العلماء برأي المأمون في خلق القرآن

امتحانُ العلماء

و

كتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم كتاباً ثانياً، وأمره بإحضار عدد من العلماء والمحدثين والقضاة وامتحانهم في مسألة خلق القرآن، فاستجاب إسحاق وأحضر للامتحان جماعة من الفقهاء والمحدِّثين والقضاة؛ أحضر أبا حسَّان الزيادي، وبشر بن الوليد، وعلي بن أبي مقاتل، وسجادة، والقواريري، وأحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، وجماعة آخرين، فأُدخلوا جميعاً على إسحاق؛ وابتدأ الامتحان بقراءة كتاب المأمون هذا عليهم مرتين حتى فهموه، ثم أخذ في إلقاء الأسئلة، فقال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟

فقال: قد عرفتَ مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة، وليس عندي غير ما قلتُ لك..

فقال للكاتب: اكتب ما قال..

ثم قال لعلي بن أبي مقاتل: ما تقول يا عليّ؟

قال: سمعتَ كلامي لأمير المؤمنين غير مرة، وما عندي غير ما سمع..

فقال للكاتب: اكتب مقالته..

ثم قال للذيَّال نحواً من مقالته لعلي بن أبي مقاتل، فقال مثل ذلك..



كتب المأمون كتاباً ثانياً إلى نائبه إسحاق، وأمره بامتحان عدد كبير من الفقهاء والمحدثين، وبدأ إسحاق با ستجو ا بهم فعلاً، وكتابة إجابتهم لإرسالها إلى المأمون..

كتاب المأمون للعلماء



أبو حسّان الزيادي

قال

إسحاق لأبي حسّان الزيادي: ما عندك؟

قال: سل ما شئت..

فقرأ عليه الرقعة، ووقفه عليها، فأقرّ بما فيها، ثم قال: مَنْ لم يَقُلْ هذا القول فهو كافر!

فقال الوالي: القرآن مخلوق هو؟

قال أبو حسان: القرآن كلام الله، والله خالق كل شيء، وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا، وبسببه سمعنا عامة أهل العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلّده اللهُ أمرَنا، فصار يُقيم حجّنا وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهدُ معه، ونرى إمامته إمامة، وإن أمرنا ائتمرنا، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا..

قال: القرآن مخلوق هو؟

فأعاد عليه أبو حسان مقالته..

قال الوالي: إن هذه مقالة أمير المؤمنين..

قال أبو حسان: قد تكون مقالة أمير المؤمنين، ولا يأمر بها الناس، ولا يدعوهم إليها، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول، قلتُ ما أمرتني به، فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتني عنه من شيء، فإن أبلغتني عنه بشيء صرْتُ إليه..

قال: ما أمرني أن أبلّغك شيئاً.

قال علي بن أبي مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها..

قال أبو حسان: ما عندي إلا السمع والطاعة، فمُرْني آتمر..

قال: ما أمرني أن آمرك، وإنما أمرني أن أمتحنك..

امتحن إسحاق أبا حسان، وقرأ عليه الرقعة، فأقرّ بما فيها، ثم سأله عن القرآن، فقال: القرآن كلام الله، والله خالق كل شيء، وما دون الله مخلوق، ثم ذكر السمعِ والطاعة لأمير المؤمنين، وقال: إن أمرني أن أقولَ قلتُ..

فقال إسحاق: لم يأمرني أن آمرك، وإنما أمرني أن أمتحنك..

امتحان الإمام أحمد

مكث ثم عاد إسحاق إلى أحمد بن حنبل، فقال: ما تقول في القرآن؟

قال: هو كلام الله..

قال: أمخلوق هو؟

قال: هو كلام الله، لا أزيد عليها..

فامتحنه بما في الرقعة، فلما أتى إلى : "لا يشبهه شيء في خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه"..

قال: أقول: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"..

فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر فقال: أصلحك الله، إنه يقول: سميع من أذن، بصير من عين..

فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله سميع بصير؟

قال: هو كما وصف نفسه..

قال: فما معناه؟

قال: لا أدري، هو كما يصف نفسه..

ثم دعا إسحاق بهم رجلاً رجلاً، كلهم يقول: القرآن كلام الله، إلا نفر قليل..

فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ (الزخرف: من الآية٣)

والقرآن مُحْدَث، لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ (الأنبياء: من الآية٢)

قال له إسحاق: فالمجعول مخلوق؟

قال: نعم..

قال: فالقرآن مخلوق؟

قال: لا أقول مخلوق، ولكنه مجعول..

وكتب مقالته..

فلما فرغ من امتحان القوم، كتب مقالتهم رجلاً رجلاً، ووجهها إلى المأمون..

جاء دور أحمد في الامتحان، فسأله إسحاق: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله، لا أزيد عليها، وأصرّ على قوله، فسأله: ما معنى "سميع بصير"؟ قال: هو كما وصف نفسه..
وكتب إسحاق مقالاتهم جميعاً، وأرسلها إلى المأمون..

والي بغداد (إسحاق بن ابراهيم) يمتحن الإمام أحمد

الكتاب الثالث



القوم بعد ذلك تسعة أيام، ثم دعا بهم، وقد ورد كتاب المأمون وفيه جواب لكتاب إسحاق بن إبراهيم، في أمرهم، وها هو ذا:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك جواب كتابه، فيما ذهبت إليه متصنعة أهل القبلة، وملتمسوا الرياسة فيما ليسوا له بأهل، من أهل الملة من القول في القرآن، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم، وتكشيف أحوالهم، وإحلالهم محالهم..

تذكر إحضارك جعفر بن عيسى، وعبد الرحمن بن إسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين، مع مَنْ أحضرت ممن كان يُنسَب إلى الفقه، ويُعرَف بالجلوس للحديث، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام، وقراءتك عليهم جميعاً لكتاب أمير المؤمنين، ومساءلتك إياهم اعتقادهم في القرآن، والدلالة لهم على خطئهم، وإطباقهم على نفي الشبيه، واختلافهم في القرآن، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق، بالإمساك عن الحديث والفتوى، في السر والعلانية، وتقدمك إلى السندي وعباس مولى أمير المؤمنين، بما تقدمت فيهم إلى القاضيين، بمثل ما مثَل لك أمير المؤمنين من امتحان مَنْ يحضر مجالسهما من الشهود، وبث الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك، بالقدوم عليك، لتحملهم وتمتحنهم على ما حدَه أمير المؤمنين، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت، وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً، كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد ﷺ، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته..

أرسل المأمون كتابه الثالث إلى إسحاق، يخبره أنه قد ورده كتابه، وعلم مَنْ أجابه إلى القول بخلق القرآن، ومَنْ لم يجب، ثم أخذ يهدّد من لم يُجب..

التوَعُّد و التهديد

ويتابع المأمون: وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجع إليه فيه كل امرئ منهم، وما شرحتَ من مقالتهم..

وأخذَ يذكر أسماءهم واحداً واحداً..

فأما المغرور بشر بن الوليد.. فادعُ به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله في القرآن، واستتبه منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح، والشرك المحض، عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وإن أصرَ على شركه، فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله..

وكذلك إبراهيم بن المهدي، فامتحنه بما تمتحن به بشراً.. فإن قال: إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره واكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه..

وأما الذيَال بن الهيثم.. فأعلمه أنه صبي في عقله، لا في سنّه، جاهل، وأنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن، فسيحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل، كان السيف من وراء ذلك، إن شاء الله..

وأما أحمد بن حنبل، وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة، وسبيله فيها، واستدلَ على جهله وآفته بها..

وأما فلان.. وأما فلان.. وأخذ يذكرهم رجلاً رجلاً، ويتوعدهم ويهددهم.. إلى أن قال:

ومَنْ لم يرجع عن شركه ممن سميتَ لأمير المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين، ومع مَنْ يقوم بحفظهم، وحراستهم في طريقهم، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم إلى مَنْ يؤمر بتسليمهم إليه، لينصهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا، حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله..

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلاً به، تقرباً إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم، ورجاء ما اعتمد، وإدراك ما أمَل من جزيل ثواب الله عليه، فأنفذ لما أتاك من أمير المؤمنين، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك، في خريطة مفردة عن سائر الخرائط، لتعرِّف أمير المؤمنين ما يعملونه، إن شاء الله.. (كُتب سنة ٢١٨هـ)..

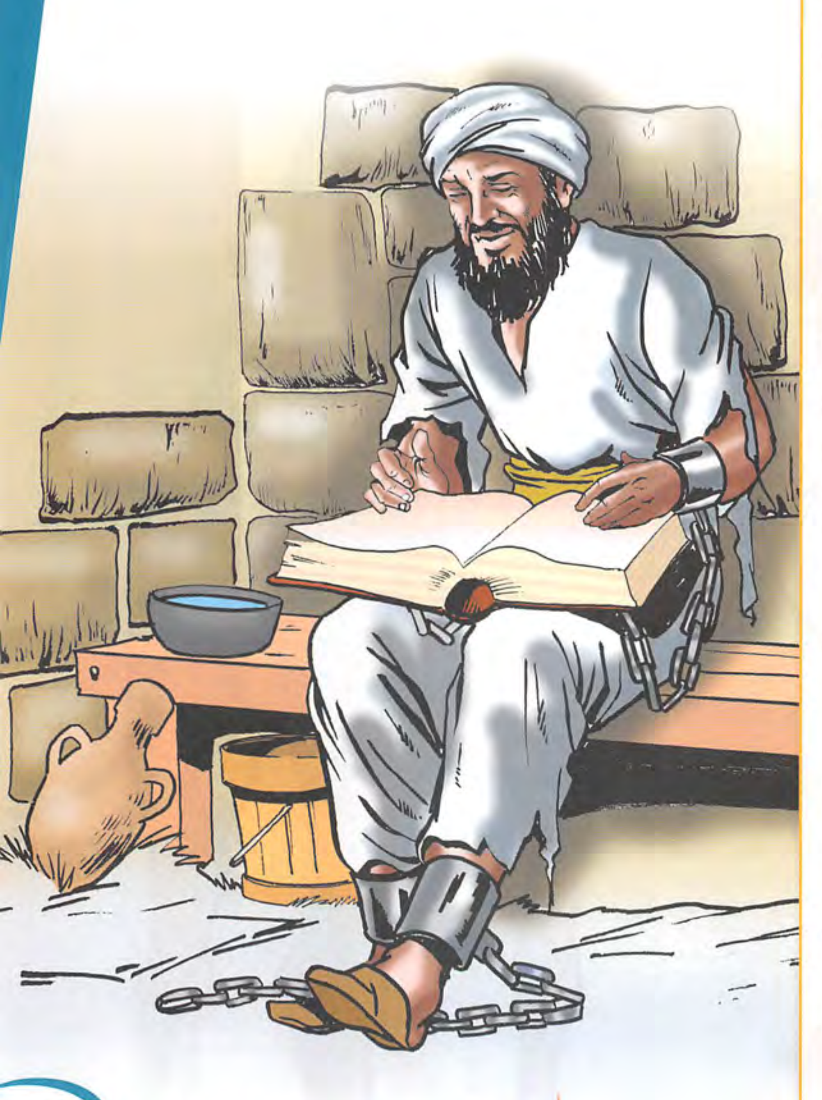
أخذ المأمون يذكر العلماء رجلاً رجلاً، ويتكلم عليهم بكلام غير لائق، ويذمهم، وأمر نائبه أن يمتحنهم مرة أخرى، فإن رجعوا عن موقفهم، خلّى سبيلهم وعادوا إلى أماكنهم، وإن أصرُّوا حملهم جميعاً موثقين إلى عسكر المأمون، ليستجوبهم بنفسه، فإن أجابوا؛ وإلا فالموت مصيرهم..

رجلان صامدان

وحين أعاد إسحاق القول على القوم، بأن القرآن مخلوق، أجاب القوم كلهم، إلا أربعة نفر؛ منهم أحمد ابن حنبل، والحسن بن حمادة المشهور بسجّادة لكثرة سجوده، وعبيد الله بن عمر القواريري، ومحمد بن نوح.. فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم، فشُدُّوا في الحديد، فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجّادة إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلّى سبيله، وأصرّ الآخرون على قولهم، فلما كان بعد الغد عاودهم أيضاً فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريري إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلّى سبيله، وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهم، ولم يرجعا، فشُدّا جميعاً في الحديد، ووجّها إلى طرسوس، وكتب معهما كتاباً بإشخاصهما، وكتب كتاباً مفرداً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه.. فمكثوا أياماً، ثم دعا بهم، فإذا كتاب قد ورد من المأمون على إسحاق بن إبراهيم، أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه..

فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم..

أعاد إسحاق الامتحان على القوم، فأجابوا كلهم، إلا أربعة؛ أحمد بن حنبل، وسجّادة، والقواريري، ومحمد بن نوح، فشدوا في الحديد، وفي اليوم التالي أجاب سجّادة، فخلّى سبيله، وفي اليوم الثالث، أجاب القواريري، فخلّى سبيله، ولم يبقَ إلا رجلان صامدان ثابتان أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح..



الإمام أحمد وقد سجنه والي بغداد

أعرابي يثبِّت الإمام أحمد

بعدها أخذ الإمام أحمد وسُيِّرَ به إلى الخليفة المأمون، هو ومحمد بن نوح، مقيدان متعادلان فوق مَحْمَل على بعير واحد (أي كل واحد منهما في جهة)، فلما كانا ببلاد الرحبة، جاءهما رجل من الأعراب من ربيعة، يُقال له: جابر بن عامر، فسلّم على الإمام أحمد، وقال له: يا هذا، إنك وافد الناس، فلا تكن شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس اليوم، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنتَ تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشتَ عشتَ حميداً..

وفي رواية: ما عليك أن تقتل ها هنا، وتدخل الجنة ها هنا..
قال أحمد: وكان كلامه مما قوّى عزمي، على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه..



الإمام أحمد ومحمد بن نوح مقيدان ومحمولان على بعير واحد إلى المأمون

اكفنا مؤونته

فلما اقتربا من جيش الخليفة، ونزلوا دونه بمرحلة (أي آخر نزول للراحة قبل الوصول)؛ جاء خادم - وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه - ويقول: يعزُّ عليّ يا أبا عبد الله؛ إن المأمون، قد سلّ سيفاً، لم يسلّه قبل ذلك، وإنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ، لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن، ليقتلنّك بذلك السيف..

قال: فجثا الإمام أحمد على ركبتيه، ورمق بطرفه إلى السماء، وقال: سيدي، غرَّ حلمُك هذا الفاجر، حتى تجرّأ على أولئك بالضرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآنُ كلامُك غيرَ مخلوق، فاكفنا مؤونته..

قال: فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل.. قال أحمد: ففرحنا..

أُخذَ الإمام أحمد ومحمد بن نوح مقيدين، ولما اقتربا من الوصول جاء خادم وأخبر أحمد أن الخليفة أقسم إن لم يُجبْه إلى ما يريد ليقتلنّه، فجثا أحمد، ودعا الله عز وجل إن كان على الحق أن يكفيه مؤونته، فجاء الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل..


المأمون على فراش الموت

٣ أيام المعتصم


الخليفة العباسي (المعتصم) الذي تولى بعد المأمون


أحمد بن أبي دؤاد الذي أشعل فتنة خلق القرآن

مات المأمون، وأحمد قد سيق إليه مقيداً بالأغلال، ومصفداً بالحديد، ولكن موته لم يُنه المحنة، بل ابتدأت تأخذ دوراً أقسى وأشد، وأحدّ وأعم؛ ذلك أنه ضمن ما أوصى به أخاه المعتصم أمران؛ أحدهما: وصية بالاستمساك بدعوته في مسألة خلق القرآن..

وثانيهما: وهو الأشدّ، الاستمساك بأحمد بن أبي دؤاد الوزير؛ وذلك أن أحمد هذا هو من زعماء المعتزلة وهو صاحب الفكرة في حمل الناس على ذلك القول بقوة السلطان وعنف الامتحان، وإنزال البلاء والسجن، والتقييد ووضع الأغلال..

وإن المعتصم لم يكن رجل علم؛ بل كان رجل سيف، وما أخطر أن يجتمع في إنسان الجهل والشدة، ولقد استغل ابن أبي دؤاد في المعتصم جهله وعنفوانه العسكري، وبثَّ فيه ما يريد من استمرار المحنة، مع وصية أخيه الذي يعتقد فيه العلم والحكمة؛ فتمتْ له القناعة في أخذ العلماء بالشدّة، حتى يقروا بخلق القرآن..

لم تنته المحنةُ بموت المأمون، بل ازدادت واشتدت، بسبب تمسك المعتصم بأحمد بن أبي دؤاد، الذي استغلّ جهل المعتصم وعنفوانه العسكري..

وراء القضبان

رُدَّ

الإمام أحمد ومحمد بن نوح من الرقة إلى بغداد، في كامل أقيادهما، ولكن محمد بن نوح مات في الطريق، وصلّى عليه الإمام أحمد، ثم صار إلى بغداد وهو مقيّد، فمكث بالياسرية أياماً، ثم صُيّر إلى الحبس..

صدر الأمر بسجن الإمام أحمد، وقال قولة يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: من الآية٣٣)

وكان يقول: "السجن كُره، والقيد كُره، والضربُ كُره، والوعيد كُره" ومع ذلك فقد كان هذا الكُره هيناً إذا كان في سبيل الله، وعقيدته التي ورثها عن السلف..

وكان سجنه في دار استؤجرت له بجوار دار عمارة ببغداد، ثم نُقل بعد ذلك إلى السجن العام في درب الموصلية، فمكث في السجن نيفاً وثلاثين شهراً..

ليس السجنُ محبَبَاً إلى أحد، لكنه إن كان في سبيل الله، وفي سبيل العقيدة، يصبح هيناً، وكذلك كان بالنسبة للإمام أحمد، وقد مكث في السجن نيفاً وثلاثين شهراً..



الإمام أحمد يصلي صلاة الجنازة على صاحبه محمد بن نوح

لم تمنعه القيود

قال حنبل - ابن عم الإمام أحمد - كنتُ أنا وأبي، وأصحاب أبي عبد الله؛ ندخل عليه، فسأله أبي أن يحدّثني، ويقرأ عليّ، فقرأ عليّ في السجن كتاب "الإرجاء" وغيره، ورأيتُ أبا عبد الله يصلّي بأهل الحبس، قال: ألا تراني وما أصنع؟ قلتُ: بلى..

ثم ذكر أبو عبد الله (حُجْراً) وأصحابه، فقال: أليس كانوا مقيدين؟ أليس كانوا يصلون جماعة على الضرورة؟ لا بأس بذلك..

قلت: فالذي في رجله القيد لا يمكنه أن يقعد في الصلاة على ما فعل النبي ﷺ في الركعة الأخيرة، يمنعه القيد من ذلك..

قال: كيفما تيسر وأطاق! فالحمد لله على معونته وإحسانه، وسبحان الله لهذا الأمر الذي أبلى الله به العباد..

قرأ أحمد على ابن عمه كتاب (الإرجاء) وغيره في السجن، وصلّى بأهل السجن جماعة على الضرورة، واحتجّ بفعل حُجْر وأصحابه، وحمد الله على ما ابتلاه به..

الإمام أحمد يرفض الماء وهو في السجن

سَمَا بِهِ إيمانُه

روى أحدُ الذين كانوا مع أحمد في السجن: أنه عطش مرة، فطلب من صاحب الشراب ماءً، فجيء بماء وثلج، وأمسك الإمام بالماء المثلج، ونظر إليه، ثم تركه بدون شُرب، فقال له السجّان: لماذا لا تشرب؟

فقال له: أعندك شرابٌ يكفيني ومن معي في السجن؟

قال: لا..

فقال الإمام: فكيف أشرب، ومن معي في السجن لا يشربون؟

أي عظيم هذا الإمام؟! لقد سما به إيمانه إلى إنسانية محتْ عنه حبَّ الذات، حتى إنها لا تشعر بالريِّ إذا شربت، ما دام غيرها ظمآناً، فيفضل أن يساوي غيره بالظمأ على أن يخُصَّ نفسه بالريِّ، وهذا شأن مَنْ دخل الإيمانُ كلَّ ذرة من وجوده، فلم يتحرك، ولم يتصرف إلا بوحي منه..

لقد سما أحمد بإيمانه إلى أعلى درجات الإيثار، رفض أن يشرب وهو في أشد الحاجة للماء؛ لأنه أُتي بماء مثلّج، لكنه لا يكفي لكل مَنْ في السجن، فكيف يشرب هو وغيره لا يشرب؟!
يا لَهُ من إنسان عظيم!
هكذا فليكن الإيمان والأخلاق أو لا تكون..

إنها نفسُك

قال

صالح بن أحمد بن حنبل: قال أبي:

لما كان في شهر رمضان، لليلة سبع عشرة خلتْ منه: حولت من السجن إلى دار إسحاق بن إبراهيم، وأنا مقيَّد بقيد واحد، وكان يوجَّه إليَّ في كل يوم رجلان، هما أحمد بن رباح، وأبو شعيب الحجاج، يكلّماني ويناظراني، فإذا أرادا الانصراف: دعوا بقيد (إضافي) فقيِّدت به، فمكثت على هذه الحالة ثلاثة أيام، فصار في رجلي أربعة أقياد..

فلما كان في اليوم الثالث: دخل عليَّ أحد الرجلين، فناظرني، فقلتُ له: ما تقول في علم الله؟

قال: علمُ الله مخلوق..

فقلتُ له: كفرتَ (أي هل كان الله تعالى بلا علم قبل أن يخلق علمه؟)..

فقال لي الرسول الذي كان يحضر معهم من قِبَل إسحاق: هذا رسول أمير المؤمنين..

فقلتُ له: إن هذا قد كفر..

فلما كانت الليلة الرابعة، وجّه المعتصم حاجبه (بُغا) الذي يُقال له: (الكبير) إلى إسحاق، فأمره بحملي إليه، فأدخلتُ على إسحاق، فقال لي: يا أحمد، إنها والله نفسُك، إنه حلف أن لا يقتلكَ بالسيف، وأن يضربك ضرباً بعد ضرب، وأن يلقيكَ في موضع لا ترى فيه الشمس، أليسَ قد قال الله عز وجل: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً) (الزخرف: من الآية٣) ؟ أفيكون مجعولاً إلا مخلوقاً؟!

قلتُ: فقد قال تعالى: (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) (الفيل:٥)

أفخلقهم؟..

قال: فسكت..



الإمام يناظر العلماء في سجنه

أخذ إسحاق يرسل إلى أحمد رجلين يناظرانه، وفي كل يوم يزيدون في قيوده، حتى صار في رجله أربعة أقياد، ثم قال له إسحاق قبل أن يحمله إلى المعتصم: إنها والله نفسك، وإن المعتصم حلف أن يضربك ضرباً مبرحاً إن لم تجبه إلى ما يقول..

قمتُ أصلّي

قال

صالح: فقال أبي:
فأنزلتُ إلى شاطئ دجلة، فأُحدرتُ إلى الموضع المعروف بباب البستان، ومعي بُغا الكبير، ورسول من قِبَل إسحاق، قال فقال بغا لمحمد المحاربي بالفارسية: ما تريدون من هذا الرجل؟
قال: يريدون منه أن يقول: القرآن مخلوق..
فقال: ما أعرف شيئاً من هذه الأقوال، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وقرابة أمير المؤمنين من رسوله ﷺ..
قال أبي: فلما صرنا إلى الشط، أُخرجتُ من الزورق فجعلتُ أكاد أخرُّ على وجهي، حتى انتهى بي إلى الدار، فأُدخلتُ، ثم عُرجَ بي إلى الحجرة، فصيرتُ في بيت منها، وأُغلق عليَّ الباب، وأُقعدَ عليه رجل، وذلك في جوف الليل، وليس في البيت سراج، فاحتجْتُ إلى الوضوء، فمددتُ يدي أطلبُ شيئاً، فإذا أنا بإناء فيه ماء وطشت، فتهيأتُ للصلاة، وقمتُ أصلي..

قلنا: إن الملجأ الذي كان يلجأ إليه أحمد، والملاذ الذي كان يلوذ به؛ هو الوقوف بين يدي الله عز وجل في الصلاة، وهذا ما فعله عندما أُخذ ليلاً، ليمثُلَ في اليوم التالي بين يدي المعتصم، فقام وتوضأ ووقف في الصلاة داعياً، خاشعاً، محتسباً..



الإمام أحمد يتضرع إلى الله في سجنه

ما تعرضتُ لك

قال

أحمد: فلما أصبحتُ جاءني الرسول، فأخذ بيدي، فأدخلني الدار، وإذا هو جالس - يعني المعتصم - وابن أبي دؤاد حاضر، قد جمع أصحابه، والدار غاصة بأهلها، فلما دنوت سلمت، فقال لي: ادْنُه.. فلم يزل يدنيني حتى قربت منه، ثم قال لي: اجلس، فجلست، وقد أثقلتني الأقياد، فمكثت قليلاً، ثم قلت: أتأذن لي في الكلام؟
فقال: تكلَّم..
فقلت: إلامَ دعا الله ورسوله؟
فسكتَ هنيهة، ثم قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله..
فقلت: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله.. ثم قلت: إن جدَّك ابن عباس يحكي أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله، فقال: "أتدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخُمس من المغنم"..
قال أبو الفضل: قال أبي: فقال لي عند ذلك:
لولا أني وجدتُك في يد مَنْ كان قبلي، ما تعرضت لك.. ثم التفت إلى عبد الرحمن بن إسحاق، فقال له: يا عبد الرحمن، ألم آمرك أن ترفع المحنة؟
قال أبي: فقلت في نفسي: الله أكبر، إن في هذا لفرجاً للمسلمين..

أُدخل أحمد على المعتصم، وما زال يُدنيه حتى أجلسه قريباً منه، ثم تكلّم أحمد بكلام مقنع، فقال المعتصم: لولا أني وجدتك في يد مَنْ كان قبلي ما تعرضتُ لك.. وقال لعبد الرحمن بن إسحاق: ألم آمرك برفع المحنة؟ فاستبشر أحمد خيراً..

ثم يناظر الجميع

قال المعتصم: ناظروه، كلموه، يا عبد الرحمن كلِّمْه..
فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟
قلت له: ما تقول في علم الله؟.. فسكت.
قال: فجعل يكلمني هذا وهذا، فأرد على هذا وأكلم هذا، ثم أقول: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل، أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام أقول به..
فقال ابن أبي دؤاد: هو والله يا أمير المؤمنين، ضالٌ مضلٌ مبتدع، وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم..
فيقول: ما تقولون فيه؟ فيقولون: يا أمير المؤمنين، هو ضال مضل مبتدع..
قال: ولا يزالون يكلمونني، وجعل صوتي يعلو أصواتهم، وقال إنسان منهم: قال الله تعالى: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ) (الأنبياء: من الآية٢) ، أفيكون محدثاً إلا مخلوقاً؟ فقلت: قال الله تعالى: (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) (ص:١)
فالذكر هو القرآن، وتلك ليس فيها ألف ولام..
فقال لي إنسان منهم: حديث خباب: "تقرّب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تتقرّب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه" فقلت لهم: نعم هكذا هو، فجعل ابن أبي دؤاد ينظر إليه ويلحظه متغيظاً منه (أي لماذا ذكر حديثاً فيه أن القرآن كلام الله)..
وقال بعضهم: أليس قال: "خالق كل شيء" قلت: قد قال: "تدمِّر كل شيء" فهل دمَّرت إلا ما أراد الله؟..
وذكر بعضهم حديث عمران بن الحصين: أن الله خلق الذكر.. فقلت: هذا خطأ، حدثنا غير واحد: أن الله كتب الذكر،
قال أحمد: فكان إذا انقطع الرجل منهم (أي لم تعد له حجة)، اعترض ابن أبي دؤاد فتكلم..



طلب المعتصم من رجاله مناظرة أحمد، فجعلوا يسألونه، ما تقول في كذا؟ وقال الله كذا، وحديث كذا، وهو يجيبهم ويبيِّن لهم وجه الصواب، وابن أبي دؤاد ينظر إليه في حَنَق وغيظ، وكلما غلبهم، اعترض ابن أبي دؤاد فتكلم..

الإمام يناظر علماء السلطة بحضور الخليفة المعتصم

محاولة إقناعه

قال

أحمد: فلما قارب الزوال، قال لهم المعتصم: قوموا، ثم حبس عبد الرحمن بن إسحاق، فخلا بي وبعبد الرحمن، فجعل يقول: أما تعرف صالحاً الرشيدي؟ كان مؤدبي، وكان في هذا الموضع جالساً، وأشار إلى ناحية من الدار، قال: فتكلم وذكر القرآن فخالفني، فأمرتُ به فسُحب ووطئ..

ثم جعل يقول: ما أعرفك، ألم تكن تأتينا؟

فقال له عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة، يرى طاعتك والحج والجهاد معك، وهو ملازم لمنزله..

قال: فجعل يقول: والله إنه لفقيه، وإنه لعالم، وما يسوؤني أن يكون معي يرد على أهل الملل (أي يساعدني في مناقشة أهل الملل والفرق الضالة)، ولئن أجابني إلى شيء فيه أدنى فَرَج لأطلقنّ عنه بيدي، ولأطأنّ عقبه (أي أسير وراءه لعلمه)، ولأركبنّ إليه بجندي.. قال: ثم يلتفت إليَّ فيقول: ويحك يا أحمد! ما تقول؟

فأقول: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله، أو سنة رسول الله ﷺ حتى أقول به، فلما طال بنا المجلس ضجر وقام، فرُددت إلى الموضع الذي كنت فيه، ثم وجّه إليَّ برجلين يناظراني، فيقيمان معي، حتى إذا حضر الإفطار وجّه إلينا بمائدة عليها طعام، فجعلا يأكلان، وجعلتُ أتعلل حتى تُرفع المائدة، وأقاما إلى غدو، وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي دؤاد، فيقول لي: يا أحمد، يقول لك أمير المؤمنين: ما تقول؟ فأقول له: أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سنة رسول الله ﷺ حتى أقول به..

فقال لي ابن أبي دؤاد: والله لقد كتب اسمك في السبعة فمحوته (أي محوت اسمك من قائمة الإعدام رجاء أن تغير رأيك)، ولقد ساءني أخذهم إياك، وإنه والله ليس السيف، إنه ضرب بعد ضرب..

ثم يقول لي: ما تقول؟ فأرد عليه نحواً مما رددت عليه..



لقد جلس المعتصم مع أحمد منفرداً بحضور عبد الرحمن فقط، وحاول إقناعه؛ لعله يجيبه إلى أدنى شيء يكون له فيه فرج ليطلق سراحه، ولكن أحمد ظل ثابتاً، وصامداً، راسخاً كرسوخ الجبال، لم يزعزعه ترغيب ولا ترهيب..

المعتصم يحاول إقناع الإمام بالعدول عن رأيه

رواية السجزي

يقول سليمان بن عبد الله السجزي - أحد مشاهدي المحنة - : أتيتُ إلى باب المعتصم، وإذا الناس قد ازدحموا على بابه، كيوم العيد، فدخلتُ الدار، فرأيتُ بساطاً مبسوطاً، وكرسياً مطروحاً، فوقفتُ بإزاء الكرسي، فبينما أنا قائم، فإذا بالمعتصم قد أقبل، فجلس على الكرسي، ونزع نعله من رجله، ووضع رجلاً على رجل، ثم قال: يحضر أحمد بن حنبل، فأُحضر، فلما وقف بين يديه، وسلّم عليه، قال له: يا أحمد تكلّم ولا تخف..

فقال أحمد: والله يا أمير المؤمنين، لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبة من الفزع..

فقال له المعتصم: ما تقول في القرآن؟

فقال: كلام الله، قديم غير مخلوق، قال الله عز وجل: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) (التوبة: من الآية ٦)

فقال له: عندك حجة غير هذا؟

فقال أحمد: نعم، يا أمير المؤمنين، قول الله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ - عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن:١،٢)

.. ولم يقل: خلق القرآن..

وقوله عز وجل: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (يس:٢) ،.. ولم يقل: يس والقرآن المخلوق..

فقال المعتصم: احبسوه، فجلس، وتفرق الناس..

فلما كان صباح اليوم التالي قصدتُ الباب، فأُدخل الناس، فدخلت معهم، فأقبل المعتصم وجلس على كرسيه، فقال: هاتوا أحمد ابن حنبل، فجيء به، فلما أوقف بين يديه قال له المعتصم: كيف كنتَ يا أحمد في محبسك البارحة؟

فقال: بخير والحمد لله، إلا أني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمراً عجباً..

قال له: وما رأيت؟

قال: قمتُ في نصف الليل فتوضأت للصلاة، وصليت ركعتين، فقرأتُ في ركعة: "الحمد لله" و"قل أعوذ برب الناس".. وفي الثانية: "الحمد لله" وأردت أن أقرأ: "قل هو الله أحد" فلم أقدر..

ثم اجتهدتُ أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر، فمددت عيني في زاوية السجن، فإذا القرآن مُسَجَّى ميتاً، فغسلته وكفنته، وصليت عليه ودفنته..

فقال له: ويلك يا أحمد، والقرآن يموت؟

فقال له أحمد: فأنت كذا تقول: إنه مخلوق، وكل مخلوق يموت..

فقال المعتصم: قَهَرَنا أحمد، قَهَرَنا أحمد..

السجزي أحد شاهدي المحنة، يصف دخول أحمد على المعتصم، وشجاعته وجرأته في الحق، وكيف جلس يناظر المعتصم، ويقيم عليه الحجج، حتى قال المعتصم: قَهَرَنا أحمد، قَهَرَنا أحمد..

رواية ابن الفرَج

قال

أحمد بن الفرج: كنتُ أتولى شيئاً من أعمال السلطان، فبينما أنا ذات يوم قاعد في مجلس، إذا أنا بالناس قد أغلقوا أبواب دكاكينهم، وأخذوا أسلحتهم، فقلت: ما لي أرى الناس قد استعدوا للفتنة؟

فقالوا: إن أحمد بن حنبل يُحمل ليمتَحَن في خلق القرآن..

فلبستُ ثيابي، وأتيتُ حاجب الخليفة، وكان لي صديقاً، فقلتُ: أريد أن تدخلني حتى أنظر كيف يناظر أحمد الخليفة..

فقال: أتطيبُ نفسك بذلك؟

قلت: نعم..

فجمع جماعة وأشهدهم عليَّ، وتبرأ من إثمي، ثم قال لي: امضِ، فإذا كان يوم الدخول بعثتُ إليك..

فلما أن كان اليوم الذي أُدخل فيه أحمد على الخليفة: أتاني رسول فقال: البس ثيابك للدخول (أي البس ثياب الوجهاء لتتمكن من الدخول معهم)، فلبستُ قباء فوق قفطان، وتمنطقت بمنطقة، وتقلدت سيفاً، وأتيت الحاجب، فأخذ بيدي وأدخلني إلى الفوج الأول مما يلي أمير المؤمنين، وإذا أنا بابن الزيات، وإذا بكرسي من ذهب مرصع بالجوهر، قد غشي أعلاه بالديباج، فخرج الخليفة فقعد عليه..

طلب ابن الفرج من حاجب الخليفة أن يدخله ليحضر مناظرة أحمد للخليفة، فلما كان ذلك اليوم؛ استدعاه، وأجلسه في الفوج الأول، وجلس يستمع، وينظر ما سيحدث.

منَ الكتاب والسنة

ثم

قال - الخليفة - : أين هذا الذي يزعم أن الله عز وجل يتكلم بجارحتين؟ عليَّ به..

فأدخل أحمد، وعليه قميص هروي وطيلسان أزرق، وقد وضع يداً على يد، وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، حتى وقف بين يدي الخليفة..

فقال: أنتَ أحمد بن حنبل؟

فقال: أنا أحمد بن محمد بن حنبل..

فقال: أنتَ الذي بلغني عنك أنك تقول: القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود؟ من أين قلتَ هذا؟

قال أحمد: من كتاب الله تعالى وخبر نبيه ﷺ..

قال: وما قال النبي ﷺ؟

قال: حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه: أن النبي ﷺ قال: "إن الله كلَم موسى بمائة ألف كلمة، وعشرين ألف كلمة، وثلاثمائة كلمة، وثلاث عشرة كلمة"..

فكان الكلام من الله، والاستماع من موسى، فقال موسى: "أي ربِّ، أنتَ الذي تكلمني أم غيرك؟"..

قال الله تعالى: "أنا أكلمُك لا رسولَ بيني وبينك"..

قال: كذبتَ على رسول الله ﷺ..

قال أحمد: فإن يكُ هذا كذباً مني على رسول الله ﷺ، فقد قال الله تعالى: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (السجدة: من الآية١٣)

فإن يكن القول من غير الله فهو مخلوق، وإن كان مخلوقاً فقد ادعى حركة لا يطيق فعلها..

لا زال المعتصم يحاول مع أحمد ليرجع عن قوله، ويسأله: من أين أتيت بهذا القول؟ وأحمد يخبره أنه من كتاب الله وسنة نبيه، ويذكر له الآيات والأحاديث الدالة على صحة ما يقول..

دمُهُ في أعناقنا

التفت المعتصم إلى أحمد وابن الزيات،

فقال: ناظروه..

قالوا: يا أمير المؤمنين، اقتله ودمه في أعناقنا..

قال: فرفع يده فلطم وجه الإمام أحمد، فخرَ مغشياً عليه، فتفرق وجوه قواد خراسان، لأن والد الإمام أحمد من أبناء قواد خراسان، فخاف الخليفة على نفسه منهم، فدعا بكوز من ماء، فجعل يرش على وجهه، فلما أفاق، رفع الإمام رأسه إلى عمه، وهو واقف بين يدي الخليفة، فقال: يا عم، لعلَ هذا الماء الذي صبَ على وجهي غضب صاحبه عليه (أي لعل الخليفة غضب على هذا الماء الذي أيقظني، وفي هذا الكلام جرأة تدل على عدم خوفه من الخليفة)..

فقال الخليفة: ويحكم ما ترون ما يهجم عليَ من هذا الحديث؟

ثم أمر برده إلى السجن..



المعتصم يصفع الإمام أحمد!!

المعتصم يمسح وجه الإمام أحمد بالماء مخافة أن ينقم عليه قادة جيشه

أما حاشية السوء، فما أوسع ذِممهم، اقتله ودمه في أعناقنا! هذا ما قالوه للمعتصم حين رأوا صمود أحمد وثباته، ونسوا أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، حتى جعلوا الخليفة يضرب أحمد على وجهه، فخرّ مغشياً عليه..

اليوم الثالث

قال أحمد رحمه الله: ولما كانت الليلة الثالثة؛ قلت خليق أن يَحْدُثَ غداً في أمري شيء، وقد كنتُ أَخرجتُ تكتي من سراويلي، فشددت بها الأقياد، أحملها بها إذا توجهت إليه (أي أخرجت الحبل من سروايلي لأرفع به قيود الحديد)، فقلت لبعض من كان معي الموكَل بي: ارْتَدْ لي خيطاً، فجاءني بخيط، فشددت به الأقياد، وأعدت التكة في سراويلي، مخافة أن يحدث من أمري شيء، فأتعرَى..

فلما كان من اليوم الثالث، أُدخلتُ عليه والقوم حضور، فجعلت أدخل من دار إلى دار، وقوم معهم السيوف وقوم معهم السياط، وغير ذلك من الزي والسلاح، وقد حُشيت الدار بالجند، ولم يكن في اليومين الماضيين كثير أحد من هؤلاء، فلما انتهيتُ إليه قال: اقعد..

ثم اجتمعوا فشاورهم، ثم نحَاهم، ودعاني، فخلا بي وبعبد الرحمن، فقال: ويحك يا أحمد، أنا والله عليك شفيق، واني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني، فأجبني..

فقلت: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله، أو سنة رسول الله ﷺ، أقول به..

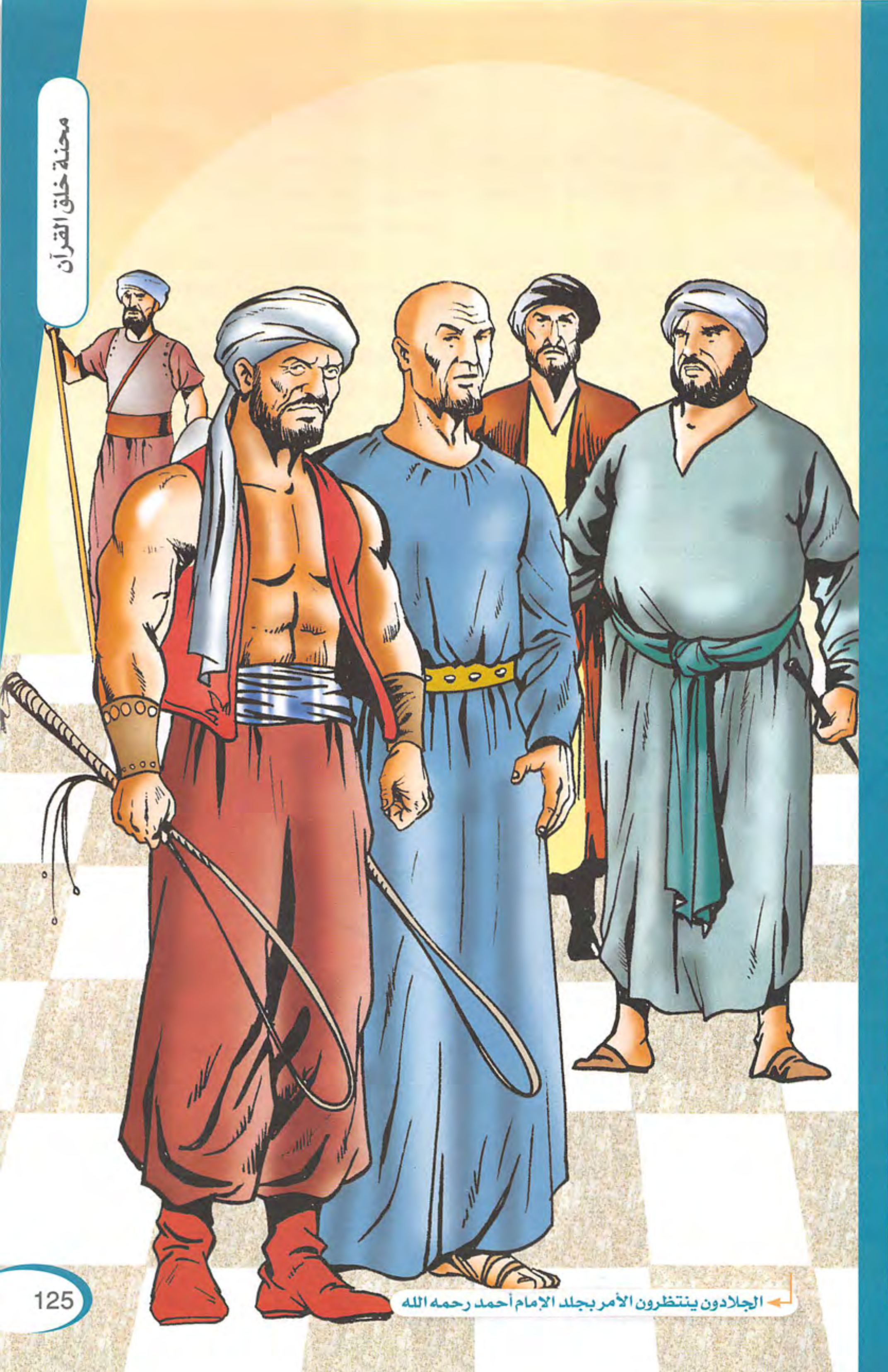
فلما ضجر وطال المجلس، قال: عليك - وذكر اللعن - لقد طمعتُ فيك، خذوه واخلعوه، واسحبوه..

قال: فأُخذتُ، فسُحبتُ، ثم خُلعتُ (أي جروا يدي من كتفي فتحرك عظمها)..

شَعَر أحمد في اليوم الثالث أنه سيحدث له شيء، فهيّأ نفسه، وشدَّ ثيابه جيداً مخافة أن تنخلع، وفعلاً جاؤوا وأخذوه إلى الخليفة، وأخذ يكلمه ويحاول إقناعه، ولكن هيهات لرجلٍ مثل أحمد أن يجيب، فلما طال المجلس، ضجر الخليفة، وقال: خذوه واخلعوه واسحبوه.. ففعلوا..



الإمام أحمد يُقاد إلى المعتصم بالسلاسل



الجلادون ينتظرون الأمر بجلد الإمام أحمد رحمه الله

التعذيب

قال أحمد: وقد كان عندي شعرتان من شعر النبي ﷺ فصررتهما في كم قميصي، فوجّه إلي إسحاق بن إبراهيم: ما هذا المصرور في كمك؟

فقلت: شعر من شعر النبي ﷺ.. فسعى بعض القوم إلى القميص ليخرقه عليَّ، فقال لهم: لا تخرقوه، وانزعوه عنه.. قال: فظننتُ أنه دُرئ عن قميصي الخرق بسبب الشعر الذي كان فيه (أي لم يمزق قميصي بسبب وجود شعر النبي ﷺ فيه)..

قال: وجلس على كرسي - يعني المعتصم - ثم قال: العقابين والسياط، فجيء بالعقابين فمدت يداي، فقال بعض من حضر خلفي: خذ أيّ الخشبتين بيدك وشدّ عليها، فلم أفهم ما قال، فتخلّعت يداي لما شدت، ولم أمسك الخشبتين..

قال صالح: ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منها من الرسغ إلى أن توفي..

لما يئس المعتصم من أحمد أن يجيبه إلى ما يقول، دعا بالعقابين والسياط ليعذبوه، فأرادوا أن يخرقوا قميصه الذي يلبسه، وكان قد صرّ في كمه شعرتان من شعر النبي ﷺ صارتا إليه، فأمرهم المعتصم أن ينزعوه عنه دون أن يخرقوه..

صمود حتى النهاية

قال الإمام أحمد: لما جيء بالسياط، نظر إليها المعتصم، وقال: ايتوني بغيرها.. ثم قال للجلّادين: تقدموا.. فجعل يتقدَم إليّ الرجل منهم، فيضربني سَوْطين، فيقول له: شُدَّ، قطع الله يدك.. ثم يتنحَى، ويتقدم الآخر، فيضربني سَوْطين، وهو يقول في كل ذلك: شُدَ، قطع الله يدك..

فلما ضُربت تسعة عشر سوطاً قام إليّ - يعني المعتصم - فقال: يا أحمد، علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق!

قال الإمام: فجعل عُجيف ينخسني بقائمة سيفه، ويقول: تريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟!

وجعل بعضهم يقول: ويلك! الخليفة على رأسك قائم!

وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، دمه في عنقي، اقتله..

وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم، وأنت في الشمس قائم..

فقال لي: ويحك يا أحمد! ما تقول؟

فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله، أو سنّة رسول الله ﷺ أقول به..

فرجع الخليفة وجلس، وقال للجلاد: تقدّم وأوجع، قطع الله يدك.. ثم قام الثانية، فجعل يقول: ويحك يا أحمد، أجبني..

فجعلوا يقبلون عليّ ويقولون: يا أحمد، إمامك على رأسك قائم..

وجعل عبد الرحمن بن إسحاق يقول لي: مَنْ صنع بنفسه من أصحابك في هذا الأمر ما صنعتَ؟ هذا يحيى بن معين وأبو خيثمة، وجعل يعدد عليّ ممن أجابوا..

والمعتصم يقول: أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج، حتى أطلق عنك بيدي..

فقلت: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله..

فرجع وجلس، وقال للجلّادين تقدّموا، فجعل الجلّاد يتقدّم، ويضربني سوطين ويتنحّى، وفي خلال ذلك يقول: شُدّ، قطع الله يدك..



الإمام أحمد يصبر على الجلد في سبيل كلمة الحق

أتريدُ أن تغلب هؤلاء كلهم؟ هكذا قالوا لأحمد، وهم يضربونه ويعذبونه، نعم يريد أن يغلبهم، وغلبهم فعلاً، بقوة إيمانه، وصبره وصموده حتى النهاية، لم يَهُن، ولم يضعُف، رغم شدة الضرب وشدة العذاب..

ما شَعَرْتُ بذلك

قال أحمد: فذهب عقلي (أي أغمي عليّ)، وما عقلتُ إلا وأنا في حجرة، وقد أُطلقت عني الأقياد، وكان ذلك في الخامس والعشرين من رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين..

فقال لي رجل ممن حضر: إنا كببناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك سارية، ودسناك..

فقال أحمد: فما شعرتُ بذلك..

وكنت صائماً وأتوني بسويق، فقالوا لي: اشرب وتقيأ..

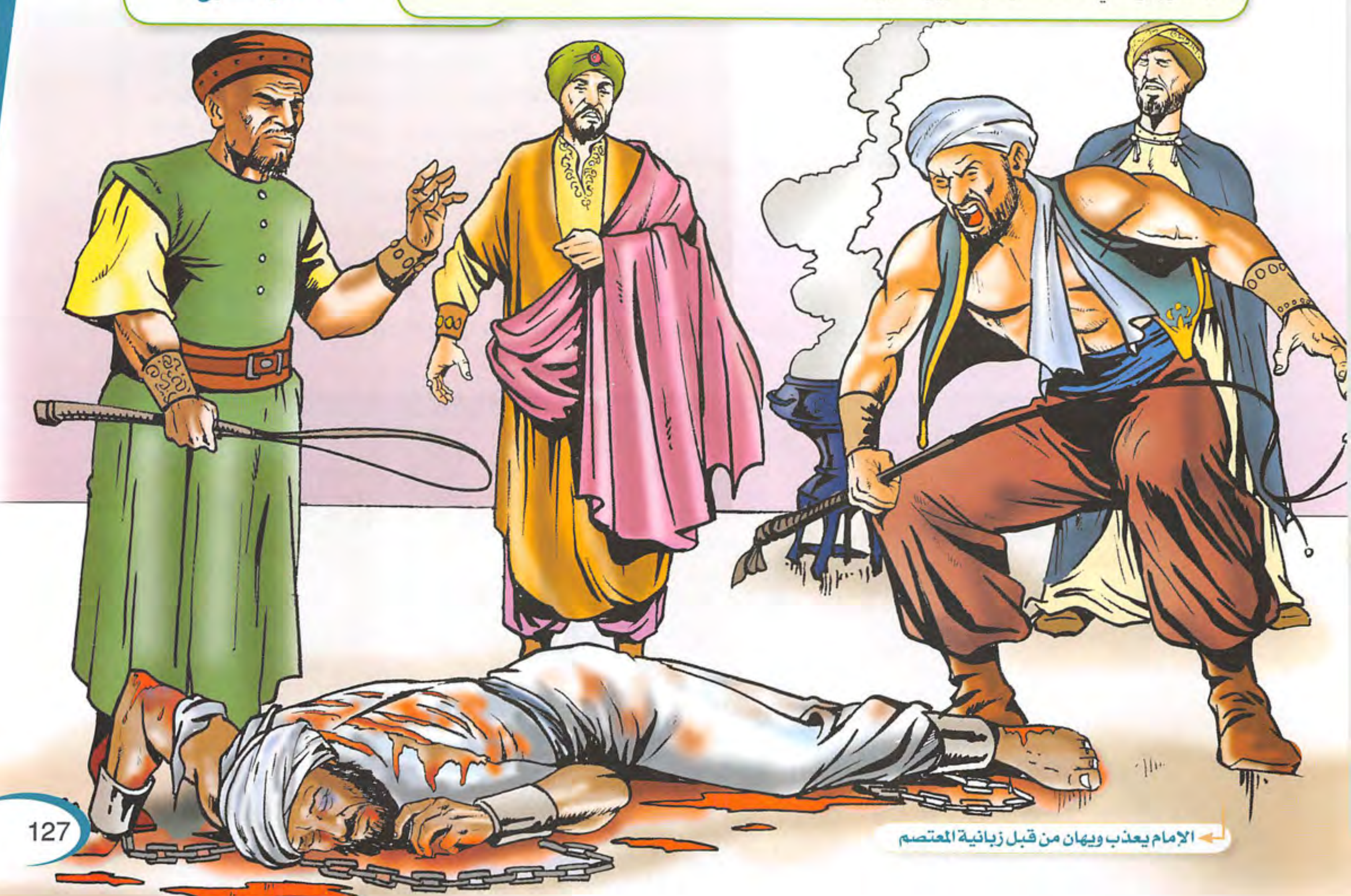
فقلت: لا أُفطر..

ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرتُ صلاة الظهر، فتقدَّم ابن سماعة فصلّى، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليْتَ والدم يسيل في ثوبك؟!

فقلت: قد صلّى عمر رضي الله عنه وجرحه يثغب دماً.. فسكت..

وقال صالح بن أحمد: ثم خُلّي عنه، فصار إلى منزله، وكان مكثه في السجن مذ أُخذ وحُمِلَ إلى أن ضُرب وخلّي عنه ثمانية وعشرين شهراً..

قال ميمون بن الأصبغ: أُخرج أحمد بعد أن اجتمع الناس على الباب وضَجّوا (أي كادوا يثورون) حتى خاف السلطان، فخرج..



الإمام يعذب ويهان من قبل زبانية المعتصم

حيلة لتخليص الإمام



وفي رواية أحمد بن الفرج: عندما حلف المعتصم ألا يرفع السوط عن أحمد حتى يقول بخلق القرآن، دعا بجلاد يقال له: أبو الدنّ، فقال: في كم ضربة سوط تقتله؟

قال: في خمسة، أو عشرة، أو خمسة عشر، أو عشرين سوطاً.

فقال: اقتله، فكلما أسرعتَ؛ كان أخفى للأمر..

ثم قال: جردوه، قال: فنُزعتْ ثيابه ووقف بين العقابين (الخشبتين)، وتقدّم أبو الدنّ، فضربه بضعة عشر سوطاً، فأقبل الدم من أكتافه إلى الأرض، وكان أحمد ضعيف الجسم..

فقال إسحاق بن إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إنه إنسان ضعيف الجسم..

فقال: قد سمعت قولي: وقرابتي من رسول الله، لا رفعتُ عنه السوط حتى يقول كما أقول (أي سأظل أعذبه حتى يقول مثل قولي)..

وهنا لجأ إسحق إلى حيلة ليجعل الإمام أحمد يقول كما يقول الخليفة..

فقال بصوت خافت: يا أبا عبد الله، البشرى، إن أمير المؤمنين قد تاب عن مقالته وهو يقول: لا إله إلا الله..

فقال الإمام أحمد: كلمة الإخلاص، وأنا أقول لا إله إلا الله..

فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد قال كما تقول..

فقال: الخليفة خلٍّ (أي أطلقوا سبيله)..

وارتقعت بالباب (أي حدثت هزة من أصوات الناس عند الباب)..

فقال الخليفة: اخرج فانظر ما هذه الضجة؟

فخرج أحمد بن الفرج ثم دخل، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فأخرج أحمد بن حنبل إني لك من الناصحين (أي أسرع بإخراجه قبل حدوث ثورة شعبية)..

فأخرج الإمام، وقد وضع طيلسانه وقميصه على يده..

قال أحمد بن الفرج: وكنتُ أول مَنْ وافى الباب..

فقال الناس للإمام أحمد: ما قلتَ يا أبا عبد الله حتى نقول؟

قال الإمام: وما عسى أن أقول؟! اكتبوا يا أصحاب الأخبار، واشهدوا يا معشر العامة: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، من الله بدأ وإليه يعود..



ثورة الناس أمام قصر المعتصم

لا تهتك لي ستراً

ومن كرامات الله تعالى للإمام أحمد ما رواه أحمد بن الفرج قال: كنتُ أنظر إلى أحمد بن حنبل، والسوط قد أخذ كتفيه، وعليه سراويل فيها خيط، فانقطع الخيط، ونزل السراويل، فلحظته وقد حرّك شفتيه، فعاد السراويل كما كان، فسألته عن ذلك، فقال: نعم، إنه لما انقطع الخيط، قلت: اللهم إلهي وسيدي، أوقفتني هذا الموقف، فلا تهتكني على رؤوس الخلائق، فعاد السراويل كما كان..

وفي رواية: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش، إن كنت تعلم أني على الصواب، فلا تهتك لي ستراً..

سجين الجسم

هذه هي القوة التي لا تثلمها قوة، وهذا هو الصبر العجيب، وإقدام من لا يخشى إلا الله، وهذا ما رفع تلك النفوس إلى منزلة الصدِّيقين، بإرخاصها روحها في سبيل دحض بدعة ونصر سنَّة!!

وما كان الإمام أحمد إلا سجين الجسم مُؤذى فيه، ولكنه طليق الروح، صحيح النفس، ما دام لا يعدل بأنسه بالله شيئاً، فهو بهذا جدُّ طليق، والمسجونون حقاً هم أولئك الذين سعوا إلى سجنه وإيذائه، مسجونون بوحشة من الله، ومقيدون بعقائد وأفكار لم يأتِ بها الله، بل مكبلون بدخائل مريضة، تريد أن تنتقم من حبر الأمة، ورأس السنة، من رضي عن الله، ورضي الله عنه..



المعتصم يكلم الناس ليخفف من غضبهم



علاج آثار الضرب

خشي المعتصم غضبة الناس، فدعا بعم أحمد بن حنبل، ثم قال للناس: أتعرفونه؟

قالوا: نعم، ولولا أنه فعل ذلك لكنتُ أخاف أن يقع شر لا يُقام له، فلما قال - أي المعتصم -: قد سلمته إليكم صحيح البدن، هدأ الناس وسكتوا..

أُخرج أحمد من السجن مريضاً في جسمه، ولما رجع إلى منزله، وجّه إليه برجل خبير بالضرب والجراحات ليعالج فيها، فنظر إليه فقال: والله لقد رأيتُ من ضُرب ألفَ سوط، ما رأيتُ ضرباً أشدَّ من هذا، لقد ضُرب من خلفه ومن قُدامه، ثم أخذ عوداً فيه دواء فأدخله في بعض تلك الجراحات، فجعل يأتيه ويعالجه، وقد كان أصاب وجهه عدة ضربات، ثم مكث يعالجه ما شاء الله، ثم قال: إن ها هنا شيئاً من اللحم قد مات أريد أن أقطعه، فجاء بحديدة حارة، فجعل يعلق اللحم بها، ويقطعه بسكين معه، والإمام صابر لذلك، يحمد الله عز وجل في ذلك، فشفي منه، ولم يزل يتوجع من مواضع منه، وكان أثر الضرب بيّناً في ظهره إلى أن توفي رحمه الله..

الطبيب يداوي آثار الضرب على جسم الإمام أحمد

الصفح الجميل

من طيب نفس الإمام أحمد، وسمو روحه، وشرف طبعه، وعميق تدينه؛ أن جعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قول الله تعالى: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) (النور: من الآية٢٢)..

ويقول: ماذا ينفعك أن يعذَّب أخوك المسلم بسببك؟ ولقد قال الله تعالى: (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (الشورى: من الآية٤٠)..

وينادي المنادي يوم القيامة: ليقم من أجره على الله؛ فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا..

وقيل لأحمد: ادعُ على ظالمك..

فقال: ليس بصابر من دعا على ظالمه..

وقال أحمد بن سنان: بلغني أن أحمد بن حنبل جعل المعتصم في حلّ يوم فتح بابل، أو في يوم فتح عمورية، فقال: هو في حلّ من ضربي..

٤ مع الواثق

الواثق والإمام أحمد

ولي الواثق بن المعتصم في ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ، وجاء ابن أبي دؤاد الوزير المعتزلي، وحضّ الواثق كما حضّ المعتصم بحمل العلماء على القول بخلق القرآن، فاستجاب لذلك، ولِمَ لا؟ فأبوه وعمه من قبله قد أبليا أسوأ البلاء في سبيل هذه المقولة المضللة، بالقتل والضرب والتنكيل، ولكن الواثق خشي أن يتعرض لأحمد، فالأمور بلغت ذروتها، واستعدَ الناس ليثوروا، ويحرقوا الأخضر واليابس..

ولكنه أوقفه عن التحديث والتدريس، وطلب منه ألا يساكنه في بلد هو فيه، فاختفى أحمد بقية حياة الواثق، ينتقل من مكان إلى مكان إلى أن أوى إلى منزله، فاختفى فيه إلى أن مات الواثق..

ورحم الله الإمام أحمد، فقد كان يروي سنة ٢٢٨هـ عن النبي ﷺ أنه قال: "لم يبقَ من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنة، فأعدوا للبلاء صبراً".. فجعل يقول: "اللهم رضنا، اللهم رضنا"..

الخليفة العباسي الواثق بن المعتصم

العالم الثائر أحمد بن نصر الخزاعي

أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، يقول الخطيب البغدادي عنه: من أهل العلم والفضل، مشهور بالخير، أمّار بالمعروف، قوّالٌ للخير، وكان من سادات بغداد، وكان جده مالك بن الهيثم الخزاعي أحد نقباء بني العباس..

وكان أحمد بن نصر من أهل الحديث، وينتمي إلى المدرسة التي عليها تخرّج أحمد بن حنبل، فقد سمع الحديث من مالك وحماد ابن زيد، وهشيم بن بشير، وسفيان بن عيينة، وكان يملك عدة مصنفات لهشيم، كما كانت عنده عن مالك أحاديث كبار، بل إن يحيى ابن معين يقول: إن أحمد بن نصر كان عنده مصنفات هشيم كلها، ثم هو بعد ذلك صاحب رسالة في هداية الناس، وتبصيرهم بالاستقامة، ونهج الصواب، فقد بايع الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو وصاحبه سهل بن سلامة، وكان ذلك أيام المأمون..

وتحرك الخزاعي سراً لعمل ثورة ضد هؤلاء الخلفاء الذين انحرفوا وظلموا، ورتب الأمور بحيث تعلن الثورة في كل مكان في وقت واحد، وكانت هذه الثورة كفيلة بالقضاء على هذا الحكم المنحرف لولا أن بعض أتباعه استعجل وتحرك قبل الموعد المحدد..

أحمد بن نصر، من أهل العلم والفضل، كان مشهوراً بالخير، أمّاراً بالمعروف، من أهل الحديث، ينتمي إلى المدرسة التي تخرّج عليها أحمد بن حنبل..
وهو صاحب رسالة في هداية الناس..

الخزاعي في قفص الاتهام

لقد اتُّهم أحمد بن نصر بأنه يدعو لنفسه من خلال مريديه الذين عاهدوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنمّ عليه وعليهم قوم إلى إسحاق بن إبراهيم صاحب شرطة بغداد، فألقى القبض عليهم، وحملهم مقيدين إلى مدينة (سُرّ من رأى) (وسميت فيما بعد سامراء)، ومثلوا أمام الواثق، فجلس لهم واختصّ من بينهم أحمد بن نصر، وقال في استئساد للشيخ الوقور العجوز: دَعْ ما أُخذتَ له (أي لن أناقشك في أمر الثورة)، ما تقول في القرآن؟ (أي أن أمر الثورة أهون عندي من أمر خلق القرآن! فانظر كيف تعمق الأمر عنده)..

قال: كلام الله..

قال: أفمخلوق هو؟

قال: هو كلام الله..

قال: أفَتَرى ربك يوم القيامة؟ (لأن المعتزلة يعتقدون أن الله لا يُرى حتى في يوم القيامة حيث أن ذلك تجسيد لله تعالى في اعتقادهم)..

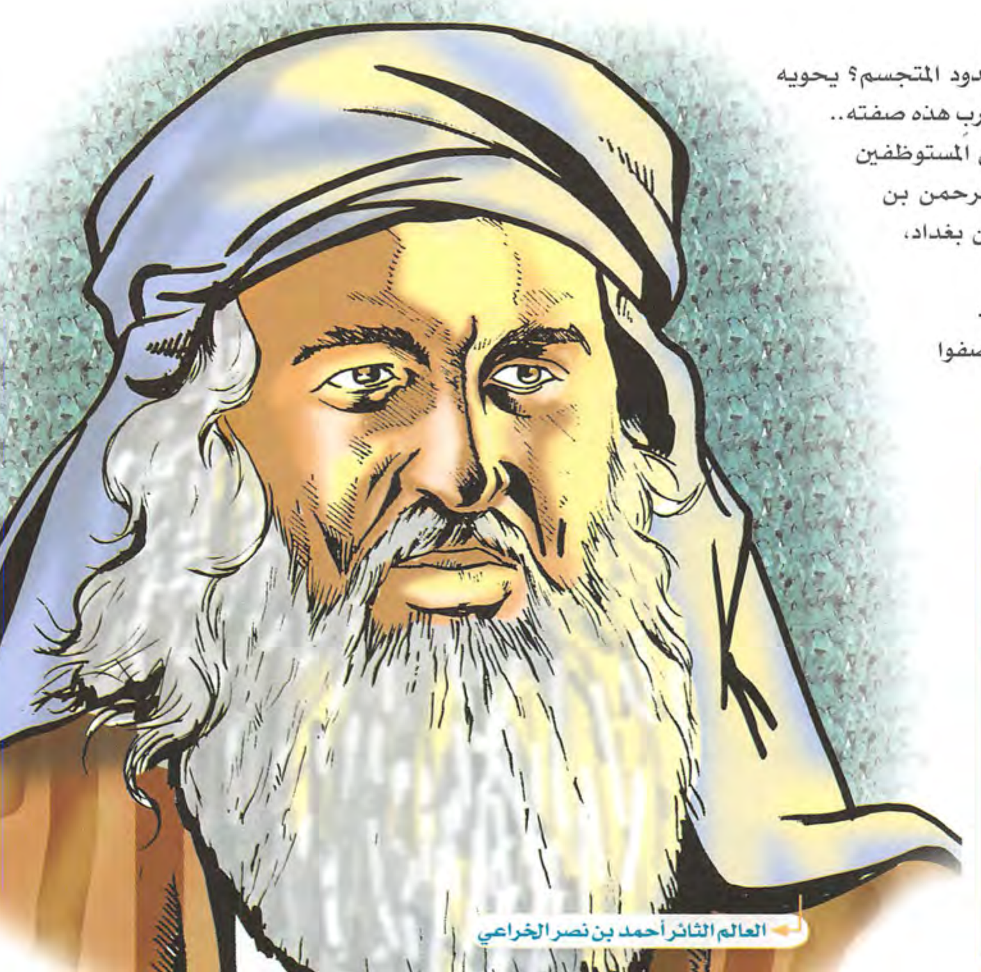
قال: كذا جاءت الرواية..

فقال: ويحك، يُرى كما يُرى المحدود المتجسم؟ يحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته..

ثم نظر الواثق إلى مَنْ حوله من المستوظفين الأجراء، وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن إسحاق قاضي الجانب الغربي من بغداد، وقال: ما تقولون فيه؟

فقال ابن إسحاق: هو حلال الدم..

ووافقه على ذلك جماعة ممن وصفوا بأنهم فقهاء..



العالم الثائر أحمد بن نصر الخزاعي

اتُّهم أحمد بن نصر في البداية بأنه يدعو لنفسه.. ولما مَثُل أمام الواثق لم يسأله عن قوله في هذه التهمة، بل سأله عن قوله في القرآن، وعن رؤية الله يوم القيامة، وغضب من جوابه، وسأل من حوله، فقالوا: هو حلال الدم..

حاول ابن أبي دؤاد أن يثني عزم الواثق عن قتل أحمد بن نصر، لكن الواثق أصرّ مستكبراً، وتولّى إثم الجريمة، فقتل ذلك الصابرَ المحتسب أحمد بن نصر بيده، وأرسل رأسه إلى بغداد، وبقي الرأس في مكان، والجسد في مكان آخر ستَّ سنين..



سيف الواثق وهو مبلل من دم الإمام الخزاعي

الواثق يقتل الخزاعي بنفسه

وهنا خشي ابن أبي دؤاد على الخليفة مغبة قتل رجل في العقد الثامن من عمره، وله أتباع كثيرون قد يثورون لمقتله، فحذره بقوله: يا أمير المؤمنين، شيخ مختل، لعلّ به عاهة أو تغير عقل، يؤخر أمره..

فرفض الواثق شفاعة ابن أبي دؤاد، وقال: ما أراه إلا مؤدياً لكفره، قائماً بمعتقده..

ودعا بسيفه الصمصامة، وقال: إذا قُمت إليه، فلا يقومن أحد معي، فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها..

ثم أمر بالنطع، فأُجلس عليه الشيخ الكبير وهو مقيد، وأمر بشدّ رأسه بحبل، وأمر الجلادين أن يمدوه، ومشى إليه فضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد، وعلقت في أذنه رقعة مكتوب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبد الله الإمام هارون وهو الواثق بالله أمير المؤمنين، إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فعجله الله إلى ناره..

وكان كاتب الرقعة بأمر الواثق الكاتب الوزير محمد بن عبد الملك الزيات..

لقد تمت جريمة القتل ليومين بقيا من شعبان سنة ٢٣١هـ، ونُصب رأس أحمد بن نصر على رأس جسر بغداد يوم السبت في مستهل رمضان، ولم يزل رأسه منصوباً ببغداد، وجسده (بسُرَّ من رأى) ست سنين إلى أن جمع الله بين رأسه وبدنه، ودفن ببغداد في شوال سنة ٢٣٧هـ..

المتوكل يسأل عن الخزاعي

و انتشرت إشاعة تقول إن هذا الرأس المعلق كان يتحرك بقراءة القرآن وهو ميت..

يقول الخطيب البغدادي: لما جلس المتوكل، دخل عليه عبد العزيز ابن يحيى المكي، فقال: يا أمير المؤمنين، ما رؤي أعجب من أمر الواثق، قتَل أحمد بن نصر، وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دُفن..

قال: فوجد المتوكل من ذلك، وساءه ما سمعه في أخيه، إذ دخل عليه محمد بن عبد الملك الزيات، فقال: يا ابن الزيات، في قلبي من قَتْلِ أحمد بن نصر..

فقال: يا أمير المؤمنين، أحرقني الله بالنار، إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً..

قال: ودخل عليه هرثمة، فقال: يا هرثمة في قلبي من قَتْل أحمد ابن نصر..

فقال: يا أمير المؤمنين، قطعني الله إرباً إرباً، إن قَتَله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً..

قال: ودخل عليه أحمد بن أبي دؤاد، فقال: يا أحمد، في قلبي من قَتْل أحمد بن نصر..

فقال: يا أمير المؤمنين، ضربني الله بالفالج (الشلل) إن قَتَله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً..

قال المتوكل: فأما ابن الزيات، فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فإنه هرب وتبدى، واجتاز بقبيلة خزاعة، فعرفه رجل من الحي، فقال: يا معشر خزاعة، هذا الذي قَتَل ابن عمكم أحمد بن نصر، فقطعوه إرباً إرباً، وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده، وأصيب بالفالج..

نقول: للمرء أن يقبل صحة هذه الرواية أو يرفضها، ولكن مصائر الرجال الثلاثة الذين سألهم المتوكل، وكلهم اشترك في الفتنة، انتهت على النحو الذي ذكره المتوكل..

ولقد رثى الإمام أحمد بن حنبل الشهيدَ أحمد بن نصر، فقال: رحمه الله، ما كان أسخاه! لقد جاد بنفسه..

ثلاثة من الرجال ادّعوا أن الواثق قَتَل أحمد بن نصر كافراً، وكل منهم دعا على نفسه بشيء تأكيداً لصحة دعواه، فأصيبوا بما دعوا به على أنفسهم لكذبهم وبهتانهم، فهو بريء مما قالوا..

أما أحمد بن حنبل فقال: رحمه الله ما كان أسخاه، لقد جاد بنفسه..

شيخٌ يغلب المعتزلة

لقد بلغت المحنة زمن الواثق ذروتها، وإن لم يُصَب الإمام أحمد منها بأذى في جسمه، وكلما اشتدت الأزمات يقرب الفرج، ففي أواخر حكم الواثق الذي دام خمس سنوات، طلب الواثق شيخاً من مدينة أَذَنَة، فأُدخل مقيداً، وهو جميل حَسَن الشيبة، قال المهتدي - ابن الواثق: فرأيتُ الواثق استحيا منه، ورقّ له، فما زال يدنيه حتى قرب منه وجلس، فقال له: ناظِر ابن أبي دؤاد..

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إنه يضعف عن المناظرة..

فغضب الواثق، وقال: أبو عبد الله يضعف عن مناظرتك أنت؟!

قال الشيخ: هوّن عليك، وائذن لي في مناظرته..

فقال: ما دعوناك إلا لذلك..

فقال الشيخ: احفظ عليّ وعليه..

ثم قال الشيخ: يا ابن أبي دؤاد، أخبرني عن مقالتك هذه؟ أهي مقالة واجبة داخلة في عَقد الدِّين؛ فلا يكون الدين كاملاً حتى يُقال فيه ما قلت؟

قال ابن أبي دؤاد: نعم..

فقال الشيخ: أخبرني عن رسول الله ﷺ، حين بعثه الله، هل ستر شيئاً مما أُمر به؟

قال أحمد: لا..

فقال الشيخ: فدعا إلى مقالتك هذه؟ فسكتَ أحمد بن أبي دؤاد..

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، واحدة..

فقال الواثق: واحدة..

فقال الشيخ: أخبرني عن الله تعالى حين قال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (المائدة: من الآية٣).. أكان اللهُ هو الصادق في إكمال دينه، أم أنت الصادق في نقصانه حتى تُقال مقالتُك؟

فسكتَ ابن أبي دؤاد..



شيخ مُسنٌ يناظر ابن أبي دؤاد أمام الواثق ويتغلب عليه

فقال الشيخ: اثنتان..
فقال الواثق: نعم..
فقال الشيخ: أخبرني عن مقالتك هذه، أَعَلِمَها رسول الله ﷺ أم جهلها؟
فقال ابن أبي دؤاد: عَلِمَها..
فقال الشيخ: فدعا النّاسَ إليها؟!
فسكتَ ابن أبي دؤاد..
فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، ثلاث.
فقال الواثق: نعم..
قال الشيخ: فاتّسع لرسول ﷺ إن عَلِمها أن يمسك عنها، ولم يطالب أمته بها؟
فقال ابن أبي دؤاد: نعم..
فقال الشيخ: واتّسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ذلك؟
فقال ابن أبي دؤاد: نعم..
فأعرض الشيخ عنه: وأقبل على الواثق وقال: يا أمير المؤمنين، قد قدمت القول عن أحمد بن أبي دؤاد يصبو ويضعف عن المناظرة، يا أمير المؤمنين، إن لم يتّسع لك من الإمساك عن هذه المقالة، كما زعم هذا أنه اتسع للنبي ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فلا وسّع الله عليك..
قال الواثق: نعم، كذا هو، قطّعوا قيد الشيخ..
فلما قطّعوه؛ ضرب الشيخ بيده إلى القيد فأخذه،
فقال الواثق: لِمَ أخذتَه؟
فقال: إني نويتُ أن أتقدم إلى من أوصي إليه: إذا أنا متّ أن يجعله بيني وبين كفني، حتى أُخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، فأقول: يا رب، لِمَ قيدني وروّع أهلي؟! ثم بكى، فبكى الواثق، وبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل، وأمر له بصلة، فقال: لا حاجة لي بها..
قال المهتدي بن الواثق - وهو أحد شهود هذه المناظرة - : فرجعتُ عن هذه المقالَة، وأظن أن الواثق رجع عنها من يومئذٍ..

كلما اشتدت الأزمات يقرب الفرج، وقد بلغت فتنة خلق القرآن ذروتها في زمن الواثق، حتى جاءه شيخ من أَذَنة، حسن الشيبة، فناظر ابن أبي دؤاد، وأفحمه في المناظرة، ورجع الواثق عن قوله..

أروع مَنْ ناظر

لقد كان هذا الشيخ أروع مَنْ ناظر، لم يحاول أن يدخل في صميم المسألة، فهي قابلة للأخذ والرد في أذهان أهل الضلالة، ولكنه سلك طريقاً أغلق فيه على ابن أبي دؤاد كل باب، وبذلك هزمه في المناظرة هزيمة منكرة، وأطفأ بذلك فتنةً طال أمدها، وذهب ضحيتها رجال من كبار المحدِّثين، وأجلَّة الصالحين المصلحين..

ومن الطريف - بهذه المناسبة - أن أحد الظرفاء ويدعى (عبادة المخنث) دخل على الواثق، وقال: يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن..

فقال: ويلك، القرآن يموت؟!

قال: يا أمير المؤمنين، كل مخلوق يموت، بالله يا أمير المؤمنين، مَنْ يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن؟

فضحك الخليفة، وقال: قاتلك الله، أمسك..

كانت المسألة قابلة للأخذ والردّ، ولكن الشيخ سلك طريقاً أغلقَ فيه على مُناظِره كل باب، وهزمه هزيمة منكرة، فكان فعلاً أروع مَنْ ناظر في هذه القضية..

٥ من ضحايا الفتنة

درج العقلاء، بل العامة أيضاً على وصف الفتنة بالعمى، فقالوا: إن الفتنة عمياء..

ولئن صدق هذا الوصف على كل فتنة، فإنه يكون مختلفاً إذا طبق على فتنة خلق القرآن، فإذا ما أمعنا النظر في فتنة خلق القرآن، وجدناها فتنة ذات عينين حادتين شريرتين، وهنا مكمن الخطر، فالفتنة العمياء لا ترى، فتسوي في التخريب والقتل بين الجميع، بين الغث والسمين، والرخيص والغالي، والحقير والعظيم.. أما الفتنة ذات العينين فإنها تنتقي نوعية رفيعة من الرجال، وفريقاً متميزاً من الناس، وصفوة رائدة من العلماء، وكذلك فعلت فتنة خلق القرآن، لقد كانت تنشر بصرها الشرير الحاد، فلا يقع إلا على صفوة العلماء، وجلة الفقهاء، وثقاة الحفاظ، وكبار المحدثين..

وقد امتدّ هذا البصر الشرير لا إلى نواحي العراق وحدها؛ وإنما حلّق إلى الأقطار والأمصار، فشمل خراسان والمشرق، ووصل إلى الحجاز ومصر.. وحمل من كل هذه الأقطار علماء وفقهاء وأئمة، ازدحمت بهم سجون بغداد، وضاقت بهم سجون سامراء، وتعطرت بدمائهم الزكية أرض بغداد وثرى سرَ من رأى..

إن فتنة خلق القرآن كانت فتنة ذات عينين حادتين شريرتين، فلم تقع إلا على صفوة العلماء، وجلة الفقهاء، وثقات الحفاظ، وكبار المحدثين، الذين ازدحمت بهم بغداد وسامراء، وتعطرت أرضهما بدمائهم الزكية..

محمد بن نوح رفيق الإمام

إنه محمد بن نوح المضروب (وذلك تمييزاً له عن محدِّثَين آخرين يحملان الاسم ذاته) وكان محمد بن نوح شاباً في مقتبل العمر، هيأ لنفسه أسباب الدراسة والتحصيل، والحفظ والرواية، وإن لم تكن قد تهيأت له بعد أسباب الشهرة، ولكن ثباته على عقيدته، وشجاعته في رأيه، وبذل حياته في سبيل الحفاظ على دينه، قد أدخله إلى باحات الشهرة والخلود من أوسع الأبواب وأرحبها وأشرفها..

ويصبح محمد بن نوح رفيق المحنة للإمام، ويدخل التاريخ من هذا الباب الطاهر، ويتزاملان مقيدين محمولين على بعير واحد، وعند وصول الركب إلى أدنة، تكون حياة المأمون قد انتهت، ولكنه كان مصراً على الإبقاء على الفتنة وإذكائها، مسجلاً ذلك في وصيته على ما بينا فيما سلف، فيعود الجلادون بالإمام أحمد وزميله محمد بن نوح من أدنة متجهين إلى بغداد مرة ثانية لتجري المواجهة مع المعتصم خليفة المأمون..

لم تكن قد تهيأت لمحمد بن نوح أسباب الشهرة بعد، فقد كان شاباً في مقتبل العمر، لكن شجاعته، وثباته على عقيدته، أدخله إلى باحات الشهرة من أوسع أبوابها، فكان رفيق المحنة للإمام أحمد..

يموت مقيداً في الطريق

وفي الطريق يُصاب الشاب محمد بن نوح بالمرض، فيقول للإمام أحمد وقد صادفا خلوة بعيدين عن الحرس - والرواية هنا عن الإمام نفسه - :

"يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لستَ مثلي، أنتَ رجل يقتدى بك، وقد مدّ هذا الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله"..

بهذا القول الأخّاذ النفّاذ، يوصي شاب مجاهد مريض، واحداً من أعظم أئمة هذه الأمة، أليسَ جديراً بهذا الشاب أن يخلد في قلوب الناس؟!

إن الإمام أحمد يعلّق على كلام محمد بن نوح هذا قائلاً: فعجبتُ من تقويته لي، وموعظته إياي!!

ويستبد المرض بمحمد، وليس من طبيب، والحراس لا يرحمون، والسفر لا يتوقف.. ويسلّم الشاب المجاهد محمد بن نوح الروح، والقيد الحديدي الثقيل في رجليه، ولا يُخلّى عنه إلا ساعة غسله وتكفينه، ويقوم على الغسل والتكفين والصلاة عليه ودفن جثمانه: الإمام أحمد، ويدفن جدث ابن نوح غريباً في الطريق في بلدة (عانة) بشمال العراق، ويصير الاثنان واحداً، فيكمل أحمد بن حنبل الطريق وحيداً، إلا من الجلادين والحرّاس إلى بغداد، وفي نفسه حزن عميق على فقيد الصحبة والعقيدة والطريق..

محمد بن نوح قبل موته يثبت الإمام أحمد وهما مقيدان في الطريق

الإمام أحمد يصلي على قبر محمد بن نوح

اتقِ الله، واثبُتْ لأمر الله، بهذا القول الأخّاذ أوصى المجاهد الشاب محمد بن نوح الإمامَ أحمد، قبل وفاته، وتوفي محمد في الطريق، وليس هناك من يقوم بغسله وتكفينه والصلاة عليه سوى الإمام أحمد..

العالم الجليل نُعيم بن حمّاد

إن نُعيم بن حماد، العالم المحدِّث، واحد من أكابر ضحايا الفتنة، وهو عربي من خزاعة، سكن مرو والعراق والحجاز ومصر، وهو في كل مرحلة من مراحل رحلته ومسكنه؛ يدرس حديث رسول الله ﷺ، ويقاوم الجهمية ويرد عليهم، ويسفه آراءهم، وينقض أفكارهم بالحوار تارة، وبالكتابة تارة أخرى، فقد ألّف نحواً من ثلاثة عشر كتاباً في الرد عليهم..

وكان نُعيم ينتمي إلى المدرسة التي ينتمي إليها الإمام أحمد، وقف على باب هشيم بن بشير مثلما وقف أحمد، وكان موضع عناية خاصة من الإمام، وهو لا يزال يطلب الحديث من هشيم..

يقول الإمام أحمد: جاءنا نُعيم بن حماد، ونحن على باب هشيم نتذاكر المقطعات، فقال: جمعتم حديث رسول الله ﷺ؟ ويمضي الإمام قائلاً: فعنينا به منذ يومئذ..

نُعيم بن حماد، واحد من ضحايا الفتنة، عربي من خزاعة، ردّ على الجهمية، وألّف في ذلك نحواً من ثلاثة عشر كتاباً، وكان ينتمي إلى المدرسة التي ينتمي إليها الإمام أحمد، وقف على باب هشيم، وكان موضع عناية خاصة من الإمام أحمد بن حنبل..

نعيم المحدث الفقيه

كان نُعيم قد أعدّ نفسه لسماع حديث رسول الله ﷺ، فسمع من صفوة الأئمة المحدثين الحفاظ مثل: سفيان بن عيينة، وأبي حمزة السكري، وعبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، وغيرهم من أولئك الصفوة..

وكان نُعيم أيضاً ثقة، صدوقاً، أهلاً لأن يروي عنه الثقات من الرجال، فروى عنه يحيى بن معين إمام الجرح والتعديل، وكذلك روى عنه البخاري والنسائي والترمذي..

وظلّ يحدّث حتى وهو في السجن، وكان آخر من سمع منه وهو في السجن بسامراء حمزة بن محمد الكاتب، وكان طبيعياً أن تتحول السجون إلى مجالس فقه وحديث؛ فقد صارت السجون سكناً للفقهاء، ومقراً للحفاظ، ومأوى للمحدثين..

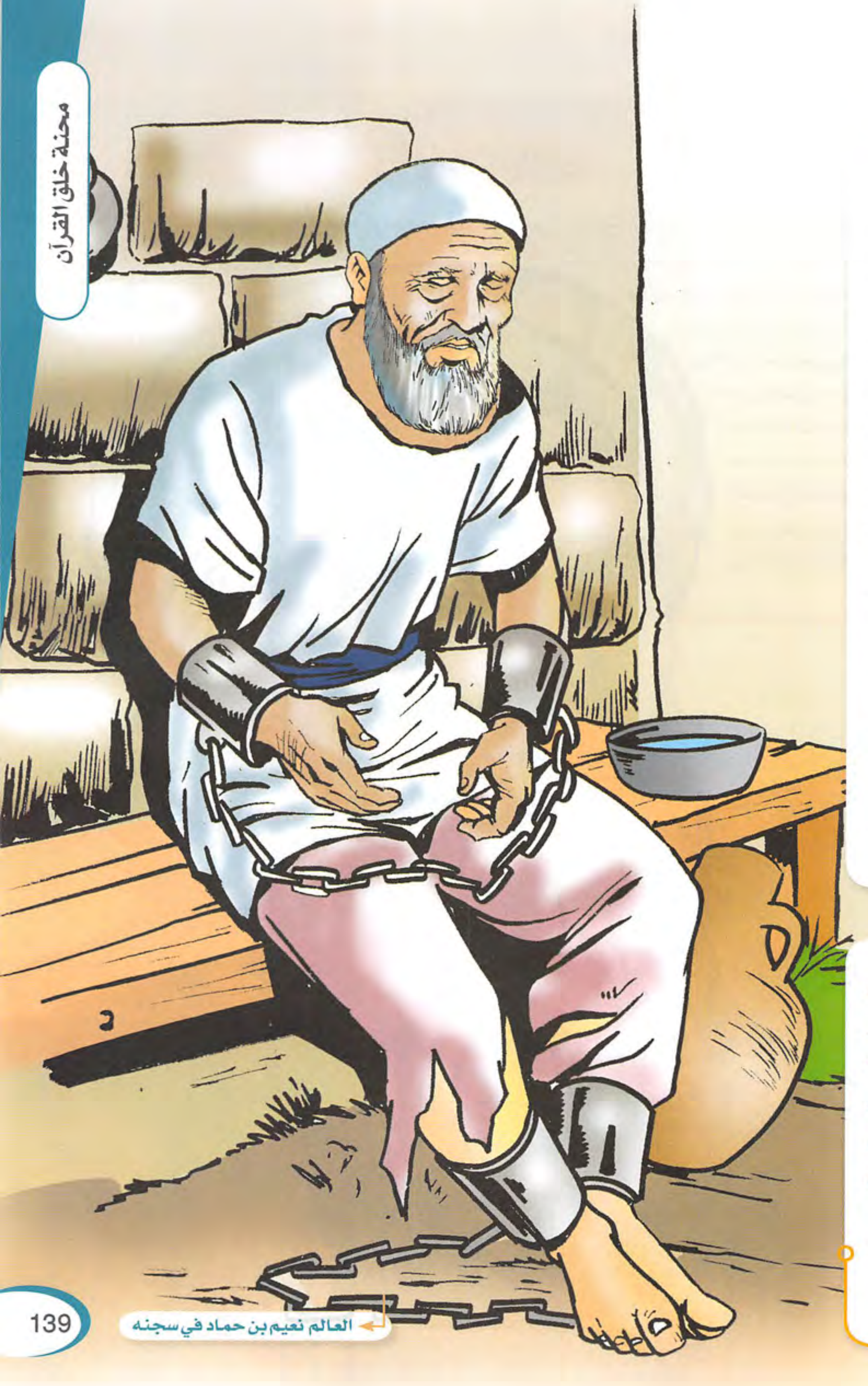
ويقول الخطيب البغدادي عن نعيم: إنه أول من جمع المسند وصنفه، ويقول الميموني تلميذ الإمام نقلاً عن الإمام نفسه: أول من عرفناه يكتب المسند؛ نُعيم..

وكان نُعيم كذلك صاحب فقه، ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال أبي - عن نعيم - : كان من أعلم الناس بالفرائض، وكنا نُسميه نُعيماً الفارض..

سمع نُعيم من صفوة الأئمة المحدثين، وروى عنه الثقات من الرجال، وظل يحدث حتى وهو في السجن، وكان من أعلم الناس بالفرائض..



العالم المحدث نعيم بن حماد



العالم نعيم بن حماد في سجنه

يموت مقيداً في السجن

وكان نُعيم قد فضَل الإقامة بمصر، واستقرت به الأحوال فيها، وأخذ يختلف إلى جامع عمرو بن العاص، فيحدِّث الناس بحديث رسول الله ﷺ، ولكن عين الفتنة كانت تبحث عن العلماء في كل مكان، لكي تصادر علمهم وعقيدتهم، فحُمل نُعيم والبويطي سنة ٢٢٣هـ إلى العراق في خلافة المعتصم، وسُئل عن القرآن، فأبى أن يجيبهم بشيء مما أرادوه عليه، وامتنع عن القول بأن القرآن مخلوق، فألقي به في السجن في سامراء، مقيداً بالحديد، ولما شعر بنهاية الأجل، أوصى أن يُدفن في قيوده، وقال تعليلاً لذلك: إني مخاصم..

وفي يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٢٢٨هـ أسلمَ العالم الحافظ الفقيه نُعيم بن حماد روحه في السجن في سامراء، في أوائل خلافة الواثق..

إن عين الفتنة كانت تبحث عن العلماء في كل مكان، لكي تُصادر علمهم وعقيدتهم، وقد وقعت على نُعيم بن حماد، فحُمل إلى العراق، وألقي في السجن مقيَّداً بالحديد؛ لأنه امتنع عن إجابتهم..

وأوصى أن يُدفَن في قيوده؛ معللاً ذلك بقوله: إني مخاصِم..

عالم مصر يوسف بن يحيى البويطي

كان البويطي عالم مصر وإمامها بعد الشافعي ، يصفه ابن عبد البر فيقول: إنه كان من أهل الدين والعلم والفهم والثقة، صلباً في السنة، يرد على أهل البدع، وكان حسن النظر..

وحين أخذ البويطي للامتحان أمام عصابة خلق القرآن كان شيخ علماء مصر، ورئيس حلقة الإمام الشافعي وخليفته عليها..

والإمام الشافعي كان شديد الاختلاط بتلاميذه، كثير الحب لهم، دائم الحوار معهم، وكان ببصيرته النافذة وشفافيته الخارقة، ربما تنبأ للواحد منهم بمصيره في مستقبل الأيام، ومن الأمور العجيبة أن الشافعي يتنبأ للبويطي بأنه سيموت في الحديد، وتصدق نبوءته..

يقول الربيع: فدخلتُ على البويطي أيام المحنة فرأيته مقيداً إلى أنصاف ساقيه، مغلولة يده إلى عنقه..



البويطي من أهل الدين والعلم، وكان رئيس حلقة الشافعي بعده، وصدقت فيه نبوءة الشافعي عندما كان تلميذاً له، فقال له: أنت تموت في حديدك، وقد رؤي أيام المحنة مقيداً إلى أنصاف ساقيه..

الإمام البويطي أشهر تلاميذ الشافعي

البويطي المحاور العظيم

لقد امتنع البويطي عن القول بخلق القرآن، وحاور القوم وحاوروه، وأفحمهم بالحجة من الكتاب والسنة، ومن دليل العقل، ولكنهم ألقوا به في قعر سجن بغداد، مع جمهرة أخرى من العلماء، وقد زادوا له في القيد ثقلاً، وفي السلاسل وزناً، وهو مع ذلك كله يردد القول الذي يسفههم، وينطق بالحجة التي تلجمهم..

يقول الربيع بن سليمان: رأيت البويطي على بغل، في عنقه غل، وفي رجليه قيد، وبين الغل والقيد سلسلة حديدية فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً، وله قولة عجيبة في الرد على من يقول أن كلام الله مخلوق وهو يقول: إنما خلق الله الخلق بكلمة (كُنْ)، فإذا كانت كُنْ مخلوقة، فكأن مخلوقاً خلق مخلوقاً..

وكان البويطي شديد البأس في يقينه، مستبسلاً في عقيدته ضد أصحاب الفتنة، ويقول في ذلك: فوالله لأموتنَ في حديدي هذا، حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن أُدخلتُ إليه (يعني الواثق) لأصدقنّه.

وقف البويطي في محنة خلق القرآن موقف البطل الشجاع، الذي لا تزيده المحنة إلا ثباتاً ويقيناً، واستبسل في سبيل عقيدته، رغم سجنه وقيوده، قائلاً: لأموتنّ في حديدي، حتى يعلموا أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم..



البويطي محمولاً بقيوده إلى السجن

استعذبَ العذاب

لقد استعذب البويطي العذاب، وراض نفسه عليه في كلمة الحق، وعقيدة الصدق، فلا يحس بثقل الحديد، ولا بعذاب القيد، فقد كتب من السجن ببغداد إلى الربيع بن سليمان في مصر قائلاً:

إنه ليأتي عليّ أوقات ما أحس بالحديد أنه على بدني حتى تمسه يدي..

ويعلم الإمام البويطي أن صلاة الجمعة فرض، وأن طول الإقامة في دار الغربة لا يسقط أداءها، ومن ثم فإنه كان إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة، اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: ارجع.. فيقول: اللهم إنك تعلم أني قد أجبتُ داعيك فمنعوني..

وتطول إقامة البويطي في سجنه ببغداد، سجن أصحاب الفتنة، وسجن القيد، وهو صابر محتسب عند الله ما بذله من التضحيات، وما لقي من عذاب..

وتمضي ثماني سنوات طوال ثقال، وتنطفئ الشمعة المضيئة في سجن بغداد، ويموت الإمام البويطي في قيده، غريباً في سجنه، في شهر رجب سنة ٢٣١هـ في خلافة الواثق، وفي السنة نفسها التي استشهد فيها أحمد بن نصر..

ثماني سنوات تمضي، والبويطي في سجنه وقيده، صابراً محتسباً، يستعذب العذاب في سبيل كلمة الحق، وعقيدة الصدق، ومن ثم تنطفئ الشمعة المضيئة في سجن بغداد، ويموت البويطي في قيده، غريباً في سجنه، سنة ٢٣١هـ..



الإمام البويطي يخرج لصلاة الجمعة والسجان يمنعه

مصارعُ الظالمين

إن الله عزيز ذو انتقام، لا يَدَعُ الظَلَمة المبتدعة ينجون من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة..

ونأتي هنا على بعض المحن الدنيوية التي أصابت أقواماً كانت لهم يد في إثارتها، أو تعذيب من لا يستحق إلا أرفع التكريم والإجلال..

أما ابن أبي دؤاد، فقد كان قاضي القضاة زمن المعتصم والواثق، فلما جاء المتوكل أقاله من منصبه، وأخرجه من (سر من رأى) إلى بغداد، بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه، وأخذ أمواله كلها، ثم أصيب بالفالج، حتى صار ميتاً بين الأحياء، يقول عبد العزيز بن يحيى المكي: دخلتُ على أحمد بن أبي دؤاد، وهو مفلوج، فقلت: إني لم آتك عائداً، ولكن جئت لأحمد الله على أن سجنك في جلدك..

وهذا أبو ذر، كان ممن ضرب أحمد بن حنبل بين يدي المعتصم، رآه أبو بكر الشهرزوري بشهرزور كان منقطعاً بالبرص..

قال عمران بن موسى: دخلتُ على أبي العروق الجلاد الذي ضرب أحمد، لأنظر إليه، فمكث خمسة وأربعين يوماً ينبح كما ينبح الكلب..

وكثير ممن له ضلع بالمحنة، نال من الله جزاءه في الدنيا قبل الآخرة، حتى أولئك الذين كانوا يتناولونه بلسانهم، يقول محمد بن فضيل: تناولتُ مرة أحمد بن حنبل فوجدتُ في لساني ألماً، فلم أجد القرار، فنمتُ ليلة، فأتاني آت، فقال: هذا بتناولك الرجل الصالح، هذا بتناولك الرجلَ الصالح.. فانتبهتُ، فلم أزل أتوب إلى الله تعالى، حتى سكن..

يحْسَبُ الظالمون أن الله غافل عنهم، فيستمرئون الظلم، وينسون أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه عزيز ذو انتقام، وهؤلاء بعض من قام بتعذيب الإمام أحمد، ابتلاه الله بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، فأصيبوا بأمراض وآلام، جعلتهم عبرة لمن يعتبر..

انتهاء المحنة

إنها فتنة أشعلها المأمون، وهو مسؤول عن كل ضحاياها، فقد ظلّ المسلمون يكتوون بنارها، والأمة الإسلامية بكل أقطارها، ظلّت تئن وتنزف نحواً من ست عشرة سنة، سُفكت فيها دماء العلماء، وأزهقت أرواح الفقهاء، وقُتلت فيها نفوس الأبرياء من الرجال الأنقياء، والقادة الأتقياء، فإذا سأل عاقل نفسه عن السبب في ذلك لم يجد إجابة غير كلمة واحدة: الحماقة..

وهكذا انقضت هذه المحنة التي أقضّت مضاجع المسلمين، واحترق بنارها كبار العلماء والمحدثين، ونفقت الفتنة كما ينفق البعير؛ ولكن بعد أن دمي جسم الأمة الإسلامية في عدد من صفوة رجالها من كل مصر، وكل صقع..

ولولا استبداد الحاكم، واستعباد الأهواء له، وطاعته لعقيدة أقوام لا يصلهم بروح الدين وحكمة الله في شرعه لا حبل ولا وثاق؛ لولا ذلك لكان ينبغي ألا يفصل بالقضايا الدقيقة للدين، إلا أولئك الذين حُملوا على الانحراف بالتعذيب فصبروا، فهم الثقات الصادقون عند الله، وعند كل مؤمن..

وهكذا انتهت هذه الفتنة التي اكتوى بنارها المسلمون، وأقضّت مضاجعهم، وقدّموا كبار علمائهم وفقهائهم ضحايا الجهل والحماقة، فبَدَل أن يكونوا هم الذين يفصلون في القضايا، ويحكمون بين الناس، كانوا هم الوقود الذي احترق بنار هذه الفتنة..

لم يجدْ ناصراً

قال

علي بن المديني: إن الله أعزّ هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة..
وقال الميموني: قال علي بن المديني بالبصرة: يا ميموني، ما قام أَحَدٌ في الإسلام ما قام به أحمد بن حنبل، فتعجبتُ من هذا عجباً شديداً - وقلت في نفسي: وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قام في الردة وأمر الإسلام ما قام به - قال الميموني: فأتيتُ أبا عُبيد القاسم بن سلام، فتعجبت إليه من قول علي، قال: فقال لي مجيباً: إذن نخصِمك.. قلت: بأي شيء يا أبا عبيد؟ - وذكرت له أمر أبي بكر - قال: إن أبا بكر رضي الله عنه وجد أنصاراً وأعواناً، وإن أحمد بن حنبل لم يجد ناصراً.. وأقبل أبو عبيد يطري أبا عبد الله، ويقول: لستُ أعلم في الإسلام مثله..
وكان سعيد يقول: قلتُ لبشر بن الحارث: ألا صنعتَ كما صنع أحمد بن حنبل؟
فقال: تريد مني مرتبة النبيين؟ لا يقوى بدني على هذا، حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن أسفل منه، وعن يمينه وشماله..
وقال محمد بن مصعب العابد: لَسوطٌ ضُرب به أحمد بن حنبل في الله، أكبر من أيام بشر بن الحارث..

توالت شهادات العلماء في أحمد بعد المحنة، بالإعجاب والإكبار، لهذا الموقف الذي وقفه، وثباته فيه، فقد أعزّ الله به الدين يوم المحنة، ما أعزّه بأبي بكر يوم الردة، إن أبا بكر رضي الله عنه وجد أنصاراً، وأحمد لم يجدْ ناصراً..

قال العلماء

و

سُئل بشر بن الحارث عن أحمد بن حنبل بعد المحنة، **فقال**: إن أحمد أُدخل الكير فخرج ذهبه أحمر..
وقال هلال بن العلاء الرقي: مَنَّ الله على هذه الأمة بأربعة في زمانهم: بأحمد بن حنبل ثبتَ في المحنة، ولولا ذلك لكَفَر الناس، وبالشافعي تفقّه بحديث رسول الله ﷺ، وبيحيى بن معين نفى الكذب عن حديث رسول الله ﷺ، وبأبي عبيد القاسم بن سلام فسّر الغريب من حديث رسول الله ﷺ، ولولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ..
قال أبو حاتم الرازي: قلتُ لأحمد بن حنبل: كيف تخلّصتَ من سيف المعتصم وسوط الواثق؟
فقال لي: يا أبا زرعة، لو جُعل الصدق على جرح لبرأ..
وقال هلال بن العلاء أيضاً: شَيئان لو لم يكونا في الناس لاحتاج الناس إليهما؛ محنة أحمد بن حنبل، لولاه لصار الناس جهمية، ومحمد بن إدريس الشافعي، فإنه فتح للناس الأقفال..
وقال قتيبة بن سعيد: لولا أحمد بن حنبل، لأُحدِث في الدين.. فقلتُ: تقيس أحمد بالثوري؟ فقال: أقيس أحمد بعلية التابعين، إن أحمد قام في الأمة مقام النبوة..
قال البيهقي: يعني في صبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله..
وكان حجاج بن الشاعر **يقول**: ما كنتُ أُحبُّ أن أُقتل في سبيل الله، ولم أُصلِّ على أحمد بن حنبل..
وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: إذا رأيتم الرجل يحبُّ أحمد بن حنبل فاعلموا أنه صاحب سنّة..
ويقول أيضاً: سمعت أبا محمد جعفر بن هارون الخرمي القلاس يقول: إذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع..
وقال أبو زرعة: ما رأيتُ مثلَ أحمد بن حنبل، أشدَّ قلباً منه، أن يكون قام ذلك المقام، ويرى ما يمر به من الضرب والقتل، قال: وما قام أحدٌ مثلَ ما قامَ أحمد، امتُحن كذا وكذا سنة، وطُلبَ، فما ثبت أحدٌ على ما ثبت..

لقد بلغ أحمد ذروة المجد، ونال إعجاب الموافق والمخالف؛ بصبره وثباته، حتى قاسوه بعلية التابعين، وقالوا: إنه قام في الأمة مقام النبوة، بصبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله..

أهل البِدَع

و

كان أحمد - رحمه الله - يقول: الداعية إلى البدعة لا توبة له، فأما مَنْ ليس بداعية فتوبته مقبولة..

ويقول: من دعا منهم - أي من الأئمة - إلى بدعة فلا تجيبوه ولا كرامة، وإن قدرتم على خلعه فافعلوا..

يقول أبو القاسم النصر أباذي: بلغني أن الحارث المحاسبي تكلّم في شيء من الكلام، فهجَره أحمد بن حنبل، فاختفى في دار ببغداد، ومات فيها، ولم يصل عليه إلا أربعة نفر..

وفي طبقات الحنابلة: كان - أي الإمام أحمد - شديداً على أهل البدع أو مَنْ قاربهم إن لم يباينهم، وإن كان صحيح الاعتقاد، وقد هجر - رحمه الله - علي بن المديني، ويحيى بن معين، والحسين الكرابيسي، إلى أن تاب يحيى عنده..

وما كان يقول إلا الخير فيمن يعلم فيه الخير، وكان يُمسك عمّن أمسك، ولم يُظهر ما يوجب الامتناعَ عنه..

وقال الإمام أحمد: ما أعلمُ الناس في زمان أحوجَ إلى طلب الحديث من هذا الزمان، قيل: ولِمَ؟ قال: ظهرت بدع، فمَنْ لم يكن عنده حديث وقع فيها..

هذا في عصره، فما نقول في عصرنا؟ الذي صارت فيه البدعة هي الأصل وهي السنّة، أما مَنْ قال بالسنّة أو انتصر لها أو حاول أن ينبه الناس إليها، فهو - في مفهوم من سُمُّوا علماء - صاحب بدعة، فيحذَّر منه، ويشار إليه، ويُستغاب في المجالس!!

شدّد أحمد على أهل البدع، ودعا إلى هَجْر مَنْ دعا إلى بدعة، وعدم إجابته إليها، وبين أن الناس صاروا في حاجة ملحّة إلى طلب الحديث؛ لظهور البدع، فمَنْ لم يكن عنده حديث وقع فيها.. هذا في زمانه، فماذا نقول نحن الآن؟!

انقلاب المفاهيم

لقد

انقلبت المفاهيم، فأصبح الأبيض أسود، والأسود أبيض، والسنّة بدعة، والبدعة سنّة، فمتى يستعمل الناس عقولهم؛ ليميزوا الباطل من الحق؟ ويبينوا الخطأ من الصواب؟ ويَدَعوا كل ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(الزخرف: من الآية٢٣)

إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ يُثبت أو يُبطل؟!

ويستمسكوا بالطريقة العلمية العقلية التي حددها الله بقوله سبحانه: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٦)

أي لا تتبع غيرك بغير علم وكتاب منير..

وبقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: من الآية١٠٨)

لقد انتشرت البدعة، وأخذتْ مكان السنة، بسبب التقليد الأعمى، والاتباع بغير علم وبغير دليل، والجهل بالكتاب والسنة، فمتى نرجع ونتمسك بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ ؟!

٦ المتوكل وكشف الغمة

ولي المتوكل سنة ٢٣٢هـ، فاستبشر الناس بولايته، فقد كان مُحباً للسُّنة وأهلها، ولم يلبث أن سعى في كشف الغمة ورفع المحنة، وكتب إلى الآفاق: لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن..

فارتفع قدره، وأُلحق بأكابر المصلحين، حتى قيل: "أبو بكر في الردة، وعمر بن عبد العزيز في ردِّه المظالم، والمتوكل في إحياء السنة، وإماتة التجهم"..

وقال السيوطي عنه: "بويع له في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين بعد المائتين، فأظهر المَيل إلى السنة، ونصر أهلها، وذلك في سنة أربع وثلاثين، واستقدم المحدِّثين إلى سامراء، وأجزل عطاياهم، وأكرمهم، وأمرهم أن يحدِّثوا بأحاديث الصفات والرؤية"..

المتوكل يميت الفتنة

قال أبو بكر بن الخبازة:

وبعدُ فإنَّ السنَّةَ اليومَ أصبحَتْ ... مُعزَّزَةً حتى كأن لم تُذلَّلِ
تصولُ وتَسطو إذْ أُقيمَ منارُها ... وحُطَّ منارُ الإفكِ والزور من عَلِ
وولّى أخو الإبداع في الديّن هارباً ... إلى النار يهوي مُدبراً غيرَ مقبلِ
شفى اللهُ منهم بالخليفة جعفرٍ ... خليفتهِ ذي السنَّة المتوكلِ
خليفةِ ربي وابنِ عم نبيِّه ... وخيرِ بني العباس مَنْ منهم وَلي
وجامعُ شملِ الدين بعد تَشتُّتٍ ... وفاري رؤوس المارقين بمنصلِ

واشتد المتوكل على الجهمية (الفرقة المنحرفة)، فقد بعث في سنة سبع وثلاثين ومائتين إلى نائب مصر أن يحلقَ لحية قاضي القضاة بمصر: محمد ابن أبي الليث، وأن يضربه، ويطوف به على حمار، ففعل.. يقول السيوطي: ونعم ما فعل، فإنه كان ظالماً من رؤوس الجهمية..

كتب أحد الشعراء أبياتاً، يمدح فيها المتوكل، ويذكر مآثره وفضله في إحياء السنة، وجمع شمل الدين، وقتل أهل البدع..

القاضي الجهمي الظالم (محمد بن أبي الليث) وقد حلقت لحيته، ويُطاف به على حمار

الخليفة يسأل الإمام

أما شأن المتوكل مع الإمام أحمد؛ فقد كتب المتوكل إلى نائبه ببغداد - وهو إسحاق بن إبراهيم - أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه، فاستدعى إسحاق الإمام أحمد إليه، فأكرمه وعظمه، لما يعلم من إعظام الخليفة له، وإجلاله إياه، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن..

فقال له أحمد: سؤالك هذا سؤال تعنت أم استرشاد؟

فقال إسحاق: بل سؤال استرشاد..

فقال الإمام أحمد: هو كلام الله منزَّل غير مخلوق..

فسكن إلى قوله في ذلك، ثم جهَّزه إلى الخليفة إلى مدينة سامراء التي كانت تسمى (سُرَّ مَنْ رأى)، ثم سبقه إليه..

وبلغ إسحاق أن أحمد بن حنبل، اجتاز بابنه محمد ابن إسحاق، فلم يأته، ولم يسلِّم عليه، فغضب إسحاق من ذلك، وشكاه إلى الخليفة، فقال المتوكل: يُرَدُّ، وإن كان قد وطئ بساطي..

فرجع الإمام أحمد من الطريق إلى بغداد، ولم يقابل الخليفة المتوكل بسبب هذا الأمر التافه، أنه لم يسلم على ابن الوالي، وهذا من تعنت الحكام والولاة وإن كان فيهم شيء من صلاح..

عندما كتب المتوكل إلى نائبه أن يبعث إليه بأحمد، استدعاه إسحاق وأكرمه وعظمه، وسأله عن القرآن سؤال استرشاد.. فقال أحمد: هو كلام الله منزَّل غير مخلوق، فسكن إلى قوله، وجهَّزه إلى الخليفة..

الخليفة العباسي المتوكل

وشايةٌ كاذبة

لم يكد الإمام أحمد - رحمه الله - ينتهي من الفتن والمحن؛ حتى فاجأته محنة كادت تودي به، ولكن الله تولاه بالحفظ والرعاية، وذلك أن المبتدعة من الجهمية، حين انهار عزهم بمجيء المتوكل، فأحرقتهم نار أوقدوها، حاولوا أن يلتمسوا سبيلاً أخرى، هي سبيل الكيد والكذب والمراوغة، يريدون بذلك إيقاع الإمام أحمد بنقمة الخليفة، فتُعادُ له السيرة الأولى؛ بل ما كان أمامه إلا القتل لو تمت المؤامرة، فقد وشى رجل من المبتدعة، يقال له (ابن البلخي)، وشى إلى الخليفة شيئاً، فقال: إن رجلاً من أهل بيت النبي ﷺ قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل، وهو يبايع له الناس في الباطن - وكان المتوكل أشدَّ الناس على العلوية بعكس أخيه الواثق - ..

فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل، فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار، من كل جانب، حتى فوق الأسطحة، فوجدوا أحمد جالساً في داره مع عياله، فسألوه عما ذُكر عنه، فقال: ليس عندي من هذا علم، وليس من هذا شيء، ولا هذا في نيتي، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية، وفي عُسري ويُسري، ومنشطي ومكرهي، وأَثَرة عليَّ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق، في الليل والنهار..

ففتشوا منزله حتى مكان الكُتب، وبيوت النساء، والأسطحة وغيرها، فلم يروا شيئاً..

وتحقق المتوكل - بعد أن أدخل الرعب على أهل بيت أحمد ومحبيه - من براءته، وأن أهل البدع من الجهمية هم الذين رتَّبوا المؤامرة، ليتمَّ لهم ما أرادوه من إعادة الإمام إلى سجنه، أو القضاء عليه، فهو الذي كان شجاً في حلوقهم..



كان أحمد شجاً في حلوق الجهمية، وما كادت الفتن تنتهي؛ وإذ برجل منهم يشعل فتنة جديدة، فيشي بالإمام أحمد وشاية كاذبة عند الخليفة، كادت تودي به، ولكن الله سلّم..

شرطة المتوكل تحاصر منزل الإمام أحمد

براءة أحمد وصفحه

فلما صحّت عند المتوكل براءة أحمد؛ أرسل إليه كتاب البراءة مع قوصَرة، وهذا نص الكتاب:

"إن أمير المؤمنين قد صحّ عنده براءتُك مما قُرفت به، وقد كان أهل البدع - أي المعتزلة - قد مدُّوا أعناقهم، فالحمد لله الذي لم يشمّتهم بك"..

ثم إن المتوكل أخذ ابن البلخي الذي سعى بأبي عبد الله، وأرسله إلى أبي عبد الله ليقول فيه مقالته إلى السلطان، فعفا عنه، وقال: لعلّه يكون له صبيان يحزنهم قتلُه..

رحمه الله ما أعظم عفوه!

وبعد حين كتب المتوكل إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن، سؤال استرشاد واستفادة، لا سؤال تعنت ولا امتحان ولا عناد.. فكتب إليه أحمد - رحمه الله - رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم، وأحاديث مرفوعة، وقد أوردها ابنه صالح في المحنة التي ساقها، وهي مروية عنه، وقد نقلها غير واحد من الحفاظ..



الإمام أحمد يعفو عن ابن البلخي

ولما ثبتت براءة أحمد عند المتوكل؛ أرسل إليه كتاب البراءة، وطلب منه أن يحكم على ابن البلخي الذي سعى به، فعفا عنه.. ثم سأله المتوكل عن القرآن سؤال استرشاد، فأجابه أحمد، وساق له الأدلة والآثار..

محنة المال

فلما بلغ المتوكل ذلك، وعلم براءته مما نُسب إليه، علم أنهم يكذبون عليه كثيراً، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة - وهو أحد الحَجَبة - بعشرة آلاف درهم من الخليفة، وقال: هو يقرأ عليك السلام، ويقول: استنفق هذه. فامتنع من قبولها..

فقال: يا أبا عبد الله، إني أخشى من ردّك إياها، أن يقع وحشةٌ بينك وبينه، والمصلحة لك في قبولها.. فوضعها عنده ثم ذهب..

فلما كان من آخر الليل استدعى أهله وبني عمه، وعياله، وقال: لم أنم هذه الليلة من هذا المال، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم - من أهل بغداد والبصرة - ثم أصبح ففرقها بين الناس، ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين، فلم يُبْقِ منها درهماً، وأعطى منها لأبي أيوب، وأبي سعيد الأشج، وتصدّق بالكيس الذي كانت فيه، ولم يعطِ لأهله منها شيئاً، وهم في غاية الفقر والجهد!!

وجاء ابن ابنه، فقال: أعطني درهماً.. فنظر أحمد إلى ابنه صالح، فتناول صالح قطعة فأعطاها الصبي، وسكت أحمد..

وبلغ الخليفة أنه تصدّق بالجائزة كلها حتى كيسها، فظهر عليه الاستياء، فقال علي بن الجهم: يا أمير المؤمنين، إنه قد قبلها منك، وتصدّق بها عنك، وماذا يصنع أحمد بالمال؟ إنما يكفيه رغيف..

فقال الخليفة المتوكل: صدقت!

سبحان الله! ما أعظم هذه الرجولة! وما أجلَّ هذه القدرة! وما أثبتَ هذه الإرادة!

رجولة وقدرة وإرادة خذل بها الشيطان وأعوانه، ونصر بها دين الله وسنة رسوله، ووقى نفسه شرّ غدها، وعسير حسابها، وثبت ثبات الطود لم تزعزعه عواصف الرياح..

الخليفة يطلب الإمام



مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد، ولم يكن بينهما إلا القريب، وتولى نيابة بغداد عبد الله بن إسحاق، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الإمام أحمد، فقال لأحمد في ذلك، فقال: إني شيخ كبير ضعيف..

فردّ الجواب على الخليفة بذلك، فأرسل المتوكل يعزم عليه لتأتيني، وكتب إلى أحمد: إني أحب أن آنس بقربك، وبالنظر إليك، ويحصل لي بركة دعائك..

فسار إليه الإمام أحمد - وهو عليل - في بنيه وبعض أهله، فلما قارب العسكر، تلقاه وصيف حاجب الخليفة، وقال: قد أمكنك الله من عدوك ابن أبي دؤاد.. فلم يردّ عليه جواباً، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيفه، فلما وصلوا إلى العسكر في سامراء (سرّ من رأى) أنزل أحمد في دار إيتاخ (وهو قائد تركي قتله المتوكل)، فلما عَلِمَ بذلك ارتحل منها، وأمر أن يُستكرى (يستأجر) له دارٌ غيرها، وكان رؤوس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده، ويبلغونه عن الخليفة السلام، ولا يدخلون عليه حتى يقلعوا ما عليهم من الزينة والسلاح..

وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة، وغيرها من الآلات التي تليق بتلك الدار العظيمة..

الإمام أحمد في طريقه لزيارة المتوكل

لم يكن أحمد يأتي الخلفاء، ولكن المتوكل عزم عليه ليأتينه، واعتذر أحمد بأنه شيخ كبير ضعيف، وأصرّ الخليفة، فسار إليه أحمد، واستُقبل استقبالاً حاراً، وجُعلت له دار يأتيه فيها رؤوس الأمراء، ويبلغونه عن الخليفة السلام..



لا يأكل ثمانية أيام

وأراد الخليفة من أحمد أن يقيم هناك ليحدّث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام المحنة وما بعدها من السنين المتطاولة، فاعتذر إليه بأنه عليل، وأسنانه تتحرك وهو ضعيف، وكان الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج، تزيد قيمتها عن مائة وعشرين درهماً في كل يوم، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلية، بل كان صائماً يطوي، فمكث ثمانية أيام لم يستطعم بطعام، ومع ذلك هو مريض، ثم أقسم عليه ولده، حتى شرب قليلاً من السويق بعد ثمانية أيام..

ثمانية أيام من الإقامة عند الخليفة، وأحمد لا يأكل شيئاً من المائدة التي يرسلها إليه الخليفة في كل يوم، حتى أقسم عليه ولده فشرب قليلاً من السويق بعد ثمانية أيام..

أنواع الطعام التي كان يقدمها المتوكل للإمام أحمد وهو لا يذوق منها شيئاً !!

يعاتب أهله على أخذ المال

جاء الأمير عبيد الله بن يحيى بن خانقان بمال جزيل من الخليفة، جائزة لأحمد، فامتنع من قبوله، وألحّ عليه الأمير فلم يقبل، فأخذها الأمير ففرّقها على بنيه وأهله، وقال: إنه لا يمكن ردها على الخليفة..

وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كل شهر بأربعة آلاف درهم، فمانع الإمام أبو عبد الله الخليفة، فقال الخليفة: لا بد من ذلك، وما هذا إلا لولدك.. فأمسك أبو عبد الله عن ممانعته، ثم أخذ يلوم أهلَه وعمَّه، وقال لهم: إنما بقي لنا أيام قلائل، وكأننا نزل بنا الموت، فإما إلى جنة وإما إلى نار، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء.. في كلام طويل يعظهم به.

فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح: "ما جاءك من هذا المال، وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه"، وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان.

فقال: وما هذا وذاك سواء، ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه، وليس بظلم ولا جور لم أُبالِ (وفي هذا تصريح هام من الإمام أحمد بأنه رفض أخذ المال لا لأنه من السلطان، ولكن لأن فيه شبهة واضحة بأنه أخذ ظلماً وجوراً، ولولا ذلك لأخذه)..

وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة ٢٣٧هـ..

هذا أعظم امتحان لإيمان المؤمن، تُعرض الدنيا كلها بعزها وفخرها ومالها، وجميع مغرياتها، فيأباها ويرفضها، لأن عزه بالله يُحْقَر أمامه كل عز، وفخره بدينه وطاعة رسوله يصغر معه كل فخر، وغناه بربِّه وفقره إليه يجعل مال الدنيا كله في نظره حفنة تراب أو جناح بعوضة..

هذا عز المؤمن لا يُذلُّه تعذيب ذي سلطان، ولا إغراؤه، لأنه متعلقٌ بقلبه ولسانه بمن يُعزُّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء..



إن هذا أعظم امتحان للإنسان أن تُعرَض عليه الدنيا، فيأباها..

المتوكل يرسل للإمام أحمد بعطاء وهو يأباه

ليس به علّة

لما استمرّ ضعف الإمام جعل المتوكل يبعث إليه بابن ماسويه المتطبب لينظر في مرضه، فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين، إن أحمد ليس به علة في بدنه، وإنما علته في قلة الطعام، وكثرة الصيام والعبادة.. فسكتَ المتوكل..

ثم طلبت أم الخليفة منه أن ترى الإمام أحمد، فبعث إليه المتوكل يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعو له، وليكن في حجره، فامتنع الإمام من ذلك، ثم وافق الإمام أحمد على أمل أن يعجل ذلك برجوعه إلى أهله ببغداد..

وبعث الخليفة إليه بخلعة سنيَّة، ومركوب من مراكبه، فامتنع من ركوبه، لأنه عليه مثيرة نمور، فجيء ببغل لبعض التجار فركبه، وجاء إلى مجلس المعتز، وقد جلس الخليفة وأمه في ناحية في ذلك المجلس، من وراء ستر رقيق، فلما جاء أحمد قال: سلام عليكم.. وجلس ولم يسلم عليه بالإمرة، فقالت أم الخليفة:

الله، الله، يا بني في هذا الرجل، تردّه إلى أهله،

فإنه ليس ممن يريد ما أنتم فيه..

لقد فهمته أم المتوكل، فهو ليس من هذه الدنيا، وزخارفها، ونعيمها في شيء، إنما همه الآخرة، يلقى الله وهو عنه راضٍ..

لم يكن ضعف الإمام أحمد من علة في بدنه، وإنما من قلة الطعام، فهو لا يأكل من طعام الخليفة، وعندما رأته أم المتوكل عرفت أنه ليس من هذه الدنيا في شيء، وقالت لابنها: الله الله في هذا الرجل، فإنه ليس ممن يريد ما أنتم فيه..



الطبيب (ابن ماسويه) يخبر المتوكل بمرض الإمام أحمد

عجبتُ من ذكائه

وحين رأى المتوكل أحمد، قال لأمه: قد تأنست الدار..
وجاء الخادم ومعه خلعة سنيّة، مبطّنة، وثوب وقلنسوة وطيلسان، فألبسها أحمد بيده، وأحمد لا يتحرك بالكلية..
قال الإمام أحمد: ولما جلستُ إلى المعتز، قال مؤدِّبه: أصلح الله الأمير، هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدِّبَك..
فقال: إن علمني شيئاً تعلمتُه..
قال أحمد: فتعجبتُ من ذكائه في صغره، لأنه كان صغيراً جداً..
فخرج أحمد عنهم، وهو يستغفر الله، ويستعيذ بالله من مقته وغضبه..
ثم بعد أيام أذن له الخليفة بالانصراف، وهيأ له حُرَّاقة (سفينة فخمة)؛ فلم يقبل أن ينحدر فيها، بل ركب في زورق، فدخل بغداد متخفياً، وأمر أن تُباع تلك الخلعة وأن يُتصدق بثمنها على الفقراء والمساكين، وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول: سلمتُ منهم طول عمري، ثم ابتليتُ بهم في آخره..

وشاية ثانية

وكان أحمد قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً، حتى كاد يقتله الجوع، وقد قال بعض الأمراء للمتوكل: إن أحمد لا يأكل لك طعاماً، ولا يشرب لك شراباً، ولا يجلس على فُرُشك، ويحرّم ما تشربه (يقصدون بذلك أنه يعتبرك ظالماً وأن كل أموالك حرام)..
فقال: والله لو نُشر المعتصم (أي قام حياً من قبره)، وكلمني في أحمد ما قبلتُ منه..
وجعلت رسُلُ الخليفة تفد إليه في كل يوم تستعلم أخباره وكيف حاله، وجعل يستفتيه في أموال ابن أبي دؤاد، فلا يجيب بشيء..

لم يكن أحمد يَطْعَم شيئاً، وهو عند الخليفة، وجاع جوعاً شديداً، حتى كاد الجوع يقتله..
وحاول الوشاة الإيقاع به عند الخليفة، لكنه لم يقبل قولهم، وجعل يرسل إليه في كل يوم من يستعلم أخباره، ويطمئن عن حاله..



سلمتُ منهم طول عمري، ثم ابتليتُ بهم في آخره، هذا ما قاله أحمد بعد عودته من زيارة الخليفة، وكان المتوكل قد خلع عليه خلعة سنية، فباعها وتصدّق بثمنها..

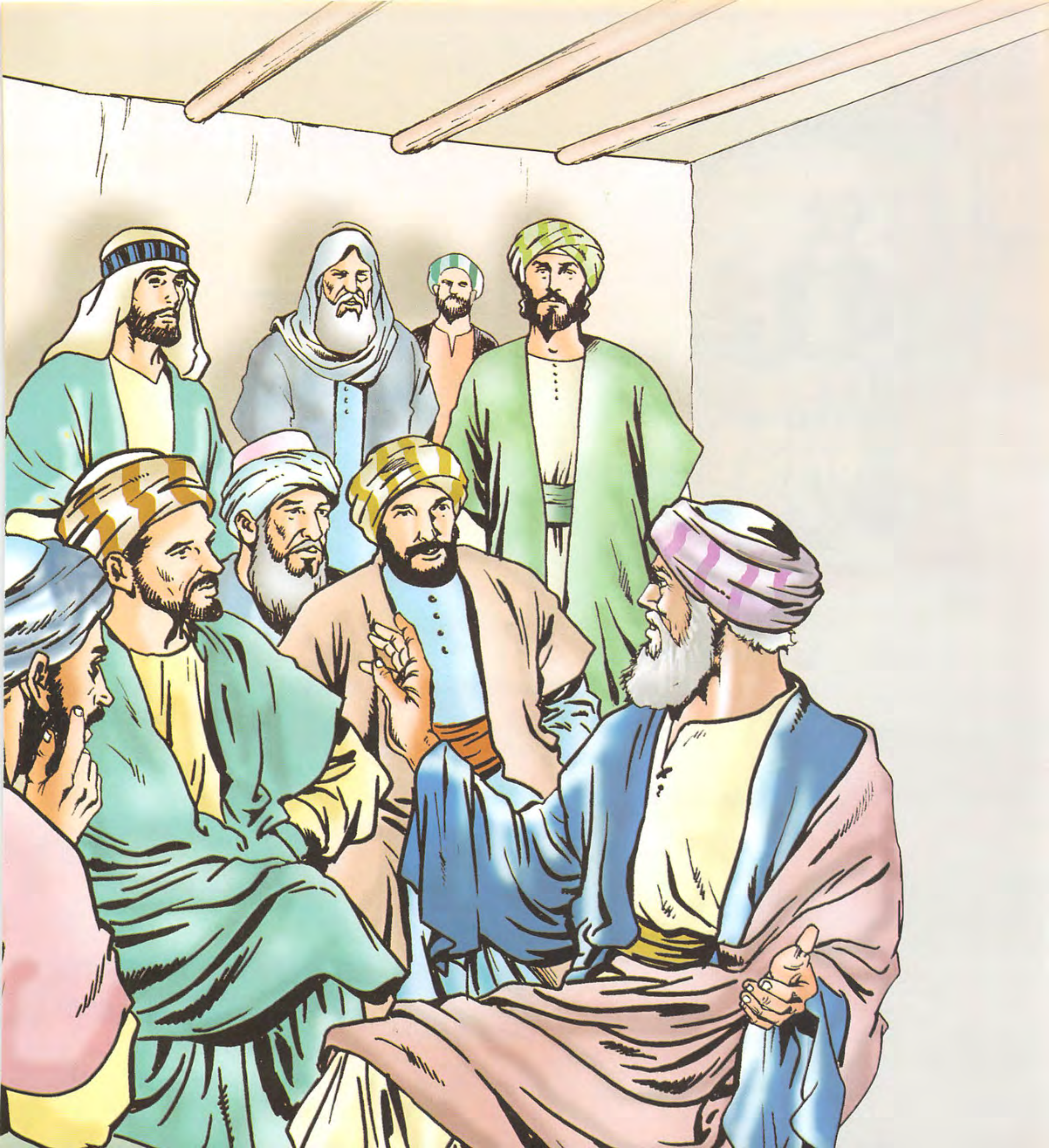
المتوكل وأمّه يتحاوران حول زيارة الإمام أحمد لهما

الباب الثالث

العالم الفقيه







الباب الثالث

العالِم الفقيه

الفصل الأول

الإمام العالِم



- النضوج العلمي
- أستاذ لشيوخه
- الإمام القدوة
- مبايعته بالإمامة

١ النضوج العلمي


الإمام أحمد وقد أدركه المشيب

طلب أحمد الحديث من رجاله، واستمع إليهم، وكتب عنهم ما استمع، واحتفظ بكل ما كتب، بعناية الحريص، واهتمام الراغب، ولم يقتصر على ربوع بغداد ومساجدها، يتلقى على علمائها، وهم العدد الكثير، وفيهم ذوو الحفظ والوعي والتقى، بل طوّف بالأقاليم الإسلامية، فرحل إلى البصرة، وإلى الكوفة، وإلى الحجاز، وإلى اليمن، وما سمع برجل له علم بالحديث إلا ذهب إليه وروى عنه، وما كدح كادح في جمع أحاديث رسول الله ﷺ وحفظها ووعيها مثل ما فعل، فهو أول من جمع الأحاديث في كل إقليم من أقاليم الإسلام، صنع ذلك في رضى وإقبال على الرغم مما تعرض له من مشاق، ولم يكتفِ بعلم الرواية، بل أخذته الرواية إلى الفقه العميق، وإن كان قد استأنس بالفقه في صدر حياته، واتصل بعصره اتصالاً فكرياً، وقد عَلِم أشتات العلوم التي لها صلة بالدين، ألَمّ ببعضها، وتعمَّق في خيرها، وهو علم الكتاب والسنة، وروايتها وفقهها..

لقد استكمل أحمد أسباب العلم، وبلغت مرحلة النضج في الحديث كمالها؛ حفظاً ورواية وفقهاً، بعد أن طوّف في الأقاليم الإسلامية، وأخذ عن علمائها، وعلم أصناف العلوم التي لها صلة بالدين..

جلوسه للتحديث

وقد آن لهذا العالم أن يُنتج بعد أن رسخ في العلم، وجاء وقت إثمار تلك الشجرة، بعد أن استقامت سوقها، وتهدّلت فروعها، وغاصت في بطون الأرض جذورها، ودنا جناها، ورآه الناس واستطابوه، عندئذٍ جلس أحمد للتحديث والإفتاء، ولقد قال ابن الجوزي: إن أحمد لم ينصِّب نفسه للحديث والفتوى إلا بعد أن بلغ الأربعين..

لم يتخذ أحمد إذن مجلساً لدرسه، في الحديث والفتاوى في الواقعات، إلا بعد أن بلغ أشدّه، وبلغ أربعين سنة، ولم يسمح لنفسه قبل بلوغ هذه السن أن يتخذ مجلساً للحديث والفتوى، وما سرُّ ذلك؟ وقد رأينا غيره من الفقهاء قد اتخذوا هذه المجالس لهم قبل بلوغهم هذه السن.. فالشافعي اتخذ مجلسه في مكة للدرس والإفتاء قبل هذه السن، ومالك يرجّح أنه جلس للدرس والإفتاء قبل ذلك..

وقد أغنانا أحمد عن الإجابة على هذا السؤال، فقد سُئل في ذلك فقال: إنه لا يحدّث وبعض شيوخه حي..

وقد ذكر أحد معاصريه أنه سأله أن يملي عليه حديثاً رواه عن عبد الرزاق، فامتنع لأن عبد الرزاق حي..

لم يتخذ أحمد مجلسه للتحديث والإفتاء إلا بعد أن بلغ أشدّه، وبلغ أربعين سنة، مع أن أدوات العلم قد اكتملت عنده قبل الأربعين، وعلّل ذلك بأنه لا يحدِّث وبعض شيوخه حي..

مُتَّبِع للسُّنَّة

كان أحمد متبعاً للسنَّة لا يحيد عنها، يفعل ما كان النبي ﷺ يفعله، ولا يفعل ما لم يفعله، فقيل في عدم جلوسه للتحديث قبل سن الأربعين: إنه فعل ذلك اقتداء بالنبي ﷺ، فهي السن التي بُعث فيها النبي ﷺ برسالة الهدى، فلا ينبغي له أن يحدِّث بحديث رسول الله ﷺ إلا في سن الأربعين، وهي سن النضج الكامل، الذي تقلّ فيه الأهواء، ويعلو العقل والإرادة..

هذا ما رآه بعض العلماء تعليلاً لامتناعه عن الجلوس للحديث والفتوى قبل أن يبلغ هذه السن، وهو تعليل متلمس من جملة أحواله..

كان أحمد يقتفي أثر الرسول ﷺ في كل فعل، فقيل في سبب عدم جلوسه للتحديث قبل الأربعين: إنه فعل ذلك اقتداء بالنبي ﷺ حيث بُعث في الأربعين من عمره..

كتمان العلم

وقد جلس أحمد للإفتاء والتحديث بعد الأربعين، وصار مرجعاً للحديث والفتوى، وليس معنى ذلك أنه كان إذا سُئل قبل ذلك عن أمر فيه سنة لا يجيب؛ فإن ذلك يكون كتماناً للعلم لا يجوز، لأن الله سبحانه وتعالى نهى عن كتمان العلم، والدين يوجب الإرشاد والتعليم، ويوجب نشر أحاديث رسول الله ﷺ..

ولقد شهدت بعض الأخبار بصدق ذلك، فقد رؤي يفتي في مسجد الخيف سنة ١٩٨هـ، أي وهو في الرابعة والثلاثين من عمره..

ولهذا نقول: إن أحمد كان يفتي قبل أن يبلغ الأربعين، إذا لم يكن من الفتوى بد، فالضرورة تكون ملجئة إليها، أما جلوسه للدرس الذي يقصده طلاب العلم للأخذ عنه والرجوع إليه، فإنه لم يتصدّ له أحمد إلا بعد الأربعين، عندما وجد المكان شاغراً فملأه، وعندما وجد أن الاتباع للهدي المحمدي يوجب عليه أن يقصد للإرشاد والإفتاء بعد الأربعين..

إذا لم يكن أحمد قد جلس للدرس إلا بعد الأربعين؛ فليس معنى ذلك أنه إذا سُئل عن أمر لا يجيب، لأنه إن امتنع كان كاتماً للعلم، حائلاً دون نشر أحاديث رسول الله ﷺ، وهذا لا يجوز،بل كان يفتي قبل الأربعين إذا لم يكن من الفتوى بدّ..



الإمام أحمد ينبري للفتوى والتدريس

ازداد رفعةً وعلواً

لم يجلس أحمد للدرس والإفتاء إلا بعد أن اكتمل كما بينا، وسرى بين الناس حديث صلاحه وتقواه، وورعه وزهده، وعفته عما في أيدي الناس، وعكوفه على الحديث، يسير لطلبه، ويركب الصعب والذلول حتى يصل إلى عالم يتلقى عنه..

ذلك لأن الناس -ولو كانوا غير فضلاء- يشيع فيهم ذكر أهل الفضل، وينوهون بهم، وهم دونهم، فقد تسايرت الركبان بذكر أحمد وفضله ودينه، قبل أن يجلس للتحديث والإفتاء، حتى أنه عندما ذهب إلى عبد الرزاق بصنعاء؛ كان قد وصل إليه زهده وتقواه وورعه، وهديه وعلمه وحفظه.. ويظهر أنه ما جلس للدرس والإفتاء إلا بعد أن قصده الناس للسؤال عن الحديث والفقه، فاضطر لأن يجلس لإجابتهم في المسجد، وكانت حياته بعد ذلك تنمي هذه الشهرة وتقويها، فلقد عاين الناس فضله، ووجدوا تعففه عما عند الولاة والأمراء، ومراعاته لحرمة المسلمين، ثم نزلت به المحنة، التي صهرت نفسه وبينت مقدار جَلَده وصبره، وتوالت النوازل، فزاده ذلك علواً ورفعة، وزادت مكانته عند الله والناس، ثم كان تواضعه، ورغبته الواضحة في الخمول، وفراره من التنويه، فعرفه الناس، وأذاعوا ذكره، وكلما تواضع لله ولعباده، ازداد رفعة..

شاع ذكر أحمد بين الناس، في صلاحه وتقواه، ونزاهته وورعه، ثم نزلت به المحنة، فازداد علواً ورفعة، وزادت مكانته عند الله، وعند الناس، وكان تواضعه ورغبته في الخمول سبباً في ازدياد إقبال الناس عليه..

الازدحام الشديد

لقد كان ذيوع اسم أحمد بالعلم والزهد والتقوى، في الآفاق الإسلامية، قبل أن يجلس للدرس والإفتاء؛ سبباً في الازدحام الشديد على درسه، وقد ذكر بعض الرواة أن عدد من كانوا يستمعون إلى درسه نحو خمسة آلاف، وأنه كان يكتب منهم نحو خمسمائة، ولسنا نسلّم بأن العدد هو الإحصاء الدقيق الصحيح لمن كانوا يحضرون درسه، ولكن ذلك العدد يدل على الضخامة، ولو نزل العدد إلى النصف، بل إلى الخمس لكان كثيراً، ولَدلّ على مكانة أحمد في بغداد، وإنها لمكانة عظيمة، وإن كثرة السامعين والكاتبين تدل على كثرة رواة الحديث والسنة عن أحمد، وكثرة الناقلين لفقهه..

إن ذيوع اسم أحمد كان سبباً في الازدحام الشديد على درسه، فقد قيل: إن عدد مَنْ كانوا يحضرون درسه خمسة آلاف، وهو عدد يدل على الضخامة، ولو نزل إلى الخمس لكان كثيراً، وهو يدل على مكانة أحمد، وإن كثرة هؤلاء كانت سبباً في كثرة رواة فقهه وحديثه..

أَميلُ إلى هديه

إن ما اتصف به أحمد من الورع والتقى والزهادة، والجَلَد والصبر، رغّب الناس في الاستماع إليه، ولم يكن كل الذين يحضرون مجلسه طالبين لعلمه، بل منهم من يحضر مجلسه محبة له، وتيمناً به، ومنهم من كان يريد أن يتعظ بحاله، ويعرفها، وينظر إلى هديه وخلقه وأدبه، ولقد جاء في المناقب لابن الجوزي عن بعض معاصريه أنه قال: "اختلفت إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، اثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ المسند على أولاده، فما كتبتُ منه حديثاً واحداً، وإنما كنتُ أميلُ إلى هديه وأخلاقه وآدابه"..

ليس كل من كان يحضر مجلس أحمد كان طالباً لعلمه، بل منهم من يحضر لينظر هديه وأخلاقه، وإن أحدهم حضر مجلسه ثنتي عشرة سنة، ولم يكتب حديثاً واحداً، بل كان يميل إلى هديه وأخلاقه وآدابه..

مجلسان للدرس

و يظهر أن أحمد كان له مجلسان للدرس والتحديث؛ أحدهما في منزله يحدِّث فيه خاصة تلاميذه وأولاده، والثاني في المسجد يحضره العامة والتلاميذ، وإن هؤلاء التلاميذ هم الذين كانوا يكتبون الحديث وهم يبلغون نحو عشر الحاضرين..

وقد كان وقت درسه في المسجد بعد العصر، كما جاء في تاريخ الذهبي، وكذلك كان مجلس أبي حنيفة في مسجد الكوفة؛ ولعلّ اختيار ذلك الوقت؛ لأنه قبل عتمة الليل وبعد وهج النهار، ولأنه وقت راحة لأكثر الناس، فيتيسر لهم أن يحضروا، ولأنه وقت صفاء النفس وفراغها من مشاغل الحياة واضطراباتها، فيكون الحديث أو الإفتاء، والنفس مستجمة مقبلة، لا كليلة مدبرة، والدرس عند إقبال النفس أعمق أثراً فيها، وأعظم تأثيراً..



كان لأحمد مجلسان للدرس، مجلس في المنزل لأولاده وخاصة تلاميذه، ومجلس في المسجد للعامة والخاصة، وكان درسه بعد العصر؛ لأنه وقت صفاء النفس وفراغها من مشاغل الحياة..

الإمام أحمد يناقش مع تلاميذه مسائل العلم

خواص درسه

وقد يلاحظ في درس أحمد ثلاثة أمور؛ جعلت له أثراً حميداً في النفوس، وهذه الأمور هي:
أولاً: أنه كان يسود مجلسه الوقار والسكينة، مع تواضع واطمئنان نفسي، ولم يكن الوقار في مجلس علمه وحده؛ بل كان في كل مجالسه لا يمزح ولا يلهو؛ لأن كل مزحة في موضع الجد مجة من العقل، وكل لهو فيه مهما يكن، باطل، وقد علم مخالطوه منه ذلك، فكانوا لا يمزحون في حضرته قط، في مجلس علم أو في غير مجلس علم، بل إن شيوخه علموا ذلك، فكانوا هم أيضاً لا يمزحون في حضرته..
كانت روح الجد والسكينة هي التي تظلل مجلسه، لأن ذلك هو الذي يتفق مع رواية السنة النبوية الشريفة، وآثار الرسول الكريم ﷺ، وفتاوى السلف الصالح رضوان الله تعالى عنهم، ومن شأن السكينة أن تجعل للقول مكانه من القلب، ومنزلته من النفس، وإنه وإن كانت الدعابة تذهب بالملال، فإن كثرتها تذهب بروعة وبهاء العلم، وقد تجنب أحمد المزاح جملة، إذ رواية السنة عبادة عنده، ولا مَزْح في وقت العبادة، بل المزح ينافيها، ولا خير فيمن يمل من العبادة برواية علم الرسول ﷺ، وخير ما وصل إليه أصحابه..

إن درس أحمد كانت له ثلاثة أمور جعلت له أثراً في النفوس، أولها أنه كان يسوده الوقار والسكينة، والاطمئنان النفسي، فكان لا يمزح ولا يلهو، ولا يمزح أحد في حضرته قط، وهذه السكينة جعلت لقوله مكاناً في القلب، ومنزلة في النفس..

البيان وقت الطلب

ثاني الأمور التي كانت تُلاحَظ في درس أحمد، أنه كان لا يلقي الدرس من غير طلب، بل يُسأل عن الأحاديث المروية في موضوع ما، فيستحضر الكتب التي دوّن فيها تلك الأحاديث، فهو أولاً ما كان يقول حتى يطلَب منه، وثانياً كان إذا قال حديثاً نبوياً لا يقوله إلا من كتاب، حرصاً على جودة النقل، وإبعاداً لمظنة الخطأ، وفي الأحوال النادرة جداً كان يقول الحديث من غير رجوع إلى كتاب..
وقد جاء في تاريخ الذهبي عن المروذي صاحب أحمد في وصف مجالسه: "لم أرَ الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلاً إليهم، مقصراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعجول، بل كان كثير التواضع، تعلوه السكينة والوقار، إذا جلس مجلسه بعد العصر، لا يتكلم حتى يُسأل"..
نرى من هذا النقل كيف كان لا يقول إلا إذا سُئل، حتى يكون البيان وقت الطلب، ويظهر أنه لما كتب مسنده كان يمليه على تلاميذه وخاصة أولاده من غير طلب، بخلاف ما كان في غير المسند، فإنه ما كان يذكر حديثاً حتى يُسأل عنه..

أما الأمر الثاني الذي جعل لدرس أحمد أثراً في النفوس، فهو أنه ما كان يقول حتى يطلب منه، فيكون البيان وقت الطلب، ولا يقول حديثاً نبوياً إلا من كتاب، حرصاً على جودة النقل..

إذا سُئِلَ أجاب

و يروي ابن الجوزي عن أبي حاتم الرازي، فيقول: "أتيتُ أحمد بن حنبل في أول ما التقيت به في سنة ثلاث عشرة ومائتين، وإذا هو قد أخرج معه إلى الصلاة كتاب الأشربة، وكتاب الإيمان، فصلّى، فلم يسأله أحد، فرده إلى بيته، وأتيته يوماً آخر، فإذا هو قد أخرج الكتابين، فظننت أنه يحتسب في إخراج ذلك، لأن كتاب الإيمان أصل الدين، وكتاب الأشربة يفرق الناس عن الشر، فإن أصل كل شر من السكر"..

وهذا النص يدل على أن أحمد كان يخرج إلى المسجد، ومعه كتب يظن الناس يسألونه عن وضوح ما فيها من حديث، فهو يخرج كتاب الإيمان في وقت قد اضطربت فيه العقائد، وتعددت أسباب الزيغ، ويُخرج أيضاً كتاب الأشربة في وقت كثرت فيه هذه الأشربة المحرمة، وتعددت أنواعها، وخشي فيه أهل التقى أن يقعوا في المحرم من حيث لا يشعرون، ويقعوا في خبيث الشراب من حيث يظنونه من طيبات ما أحل الله سبحانه..

كان أحمد إذا خرج إلى الصلاة، يحمل معه كتابَي الإيمان والأشربة، فإذا سُئل أجاب، وإلّا انصرف إلى بيته يحمل كتابيه بيمينه..

لا يحدّث إلا من كتاب

وهذه الأخبار كلها تنبئ عن أن أحمد -رحمه الله تعالى- ما كان يذكر حديثاً حتى يُسأل عن موضوعه، وأنه لا يجيب إلا عن كتاب منقول؛ وإن كان الحافظ الثبت الثقة؛ بل الذي يُجمع الرواة على أنه لم يكن في عصره أحفظ منه، وأثبت وأوثق..

ولقد قال ولده عبد الله: "ما رأيتُ أبي حدّث من حفظه من غير كتاب، إلا بأقل من مائة حديث"..

ولقد كان يحث تلاميذه وأصحابه على ذلك، ونهاهم أن يحدّثوا من غير كتاب خشية أن يضلوا، ويروى أن علي بن المديني كان لا يحدّث إلا من كتاب، وقال: إن سيدي أحمد بن حنبل أمرني ألا أُحدّث إلا من كتاب، وهو الذي يقول: ليس في أصحابنا أحفظ من أبي عبد الله، أحمد بن حنبل، إلا أنه لا يحدّث إلا من كتابه، ولنا فيه أسوة حسنة..

وقال يحيى بن معين: دخلتُ على أبي عبد الله أحمد ابن حنبل، فقلت له: أوصني، فقال: لا تحدث المسند إلا من كتاب..

أحمد الحافظ، الثبت، الثقة، الذي أجمع الرواة على أنه لم يكن في عصره أحفظ منه، ما كان يحدِّث إلا من كتاب، ويوصي تلاميذه ألا يحدِّثوا إلا من كتاب خشية الخطأ والنسيان.

الرواية والفتوى

و الأمر الثالث الذي يُلاحَظ في دروس أحمد، أنها كانت من حيث موضوعها قسمين: أحدهما: رواية الحديث ونقله، وهذه يمليها على تلاميذه من كتاب، ولا يعتمد على حفظه إلا نادراً..

وثانيهما: فتاويه الفقهية التي كان يضطر إلى استنباطها، وهذه لا يسمح لتلاميذه أن يدوّنوها، ولا يسمح لهم أن ينقلوها عنه، إذ إنه ما كان يستجيز التدوين إلا لأحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ويرى أن علم الدين وحده هو علم الكتاب والسنة، وكان أبغض الأشياء إليه أن يرى كتاباً قد دُونت فيه فتوى له رضي الله عنه، وكان يكره من أصحابه أن ينقلوا عنه فتاويه، لقد بلغه أن بعض تلاميذه روى عنه مسائل ونشرها بخراسان، فقال: اشهدوا أني رجعت عن ذلك كله..

وجاء إليه رجل خراساني يكتب، فنظر في كتاب من بينها، فوقع نظره، فوجد كلامه، فغضب ورمى الكتاب من يديه..

كان درس أحمد ينقسم قسمين: رواية الحديث ونقله، والفتاوى الفقهية، وكان لا يسمح بتدوين فتاويه ونقلها عنه، لأنه يرى أن علم الدين وحده هو الذي يُكتَب؛ وهو الكتاب والسنة..

لا تُكدرُه الدِّلاء

وقد سألَ رجلٌ الإمام أحمد: هل يَكتب كتب أهل الرأي من فقهاء العراق؟ فقال: لا..
قال السائل: فابن المبارك كتبها..
فقال: "ابن المبارك لم ينزل من السماء، إنما أُمرنا أن نأخذ العلم من فوق"..
بل إنه ينهى المحدِّثين عن أن يكتبوا كتب الشافعي، مع أن الشافعي منزلته منه بمنزلة الأستاذ، وله في نفسه المكان المكين، لأنه ما كان يرى علماً في الدين جديراً بالتدوين، ونقله للأخلاف إلا الكتاب والسنة، وذلك ليجعل كلام الرجال خاصاً بأزمانهم، وعلاجاً لمشاكل عصورهم، ولا ينتقل إلى من بعدهم، وذلك ما هو جدير بهم، لكيلا ينتقل إلى الناس إلا علم القرآن، وعلم النبي وأصحابه، والذين اتبعوهم بإحسان، صفواً لا تكدره الدلاء التي تأخذ منه، ولكيلا يكون تقليد العلماء، واتباع الرجال على أسمائهم..
ولكن أحمد الذي كان يبالغ في النهي تلك المبالغة قد ابتلاه الله تعالى، وأجرى الأمور على غير ما كان يحب، فروى عنه تلاميذه مجلدات ضخاماً..

لا يرى أحمد علماً في الدين جديراً بالتدوين إلا الكتاب والسنة، لكيلا ينتقل إلى الناس إلا علم القرآن و علم النبي ﷺ وأصحابه، والذين اتبعوهم بإحسان؛ صفواً لا تكدره الدلاء التي تأخذ منه، ولكيلا يكون تقليد العلماء، واتباع الرجال على أسمائهم كما هو في زماننا..

منهاج السَّلف

ما كان أحمد يشغل مجلسه بغير ما شغل به السلف أنفسهم؛ فقد كان السلف رضي الله تعالى عنهم لا يشغلون أنفسهم إلا بعلم الكتاب والسنة، والإفتاء، وتعليم الناس شؤون دينهم، مستَمَدة من الكتاب والسنة، فما نص عليه منها فإنه العقيدة التي تعتنق، ولا دليل عليها إلا كلام الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، لا يبحث عن العقيدة من طريق العقل المجرد، بل يبحث عنها من طريق النقل لا يتبع سواه، وقد اختار أن يحلق بروحه في جو الصحابة، والصفوة من التابعين، ومن جاء بعدهم، ممن نهج نهجهم، واختار سبيلهم؛ لذلك كان علمه وفقهه هو السنة وفقهها، لا يخوض في أمر، إلا إذا علم أن الصحابة خاضوا فيه، فإن علم بذلك اتبع رأيهم، ونفى غيره، وإن لم يعلم أن الصحابة خاضوا في ذلك الأمر، كف عنه، واستعصم متوقفاً حذراً، فلا يقف ما ليس له به علم، لأنه يعتقد أن الخروج عن تلك الجادة زيغ عن منهاج السلف، وإلحاد في دين الله سبحانه وتعالى، ولا يتكلف التعمق في مسائل عقلية قد تكون متاهات العقل البشري، وإن خرج من وعثائها سالماً فقد جهد نفسه في غير طائل، وشغل فكره في غير جدوى، ولها عن ذكر الله، وقسا قلبه، وصد نفسه عن سبيل العبادة..

اختار أحمد أن يحلّق بروحه في جو الصحابة والصفوة من التابعين، ومن نهج نهجهم، واختار سبيلهم، فلا يخوض في أمر لم يكن الصحابة يخوضون فيه، لأن الخروج عن تلك الجادة زيغ عن منهاج السلف، ولا يتعمق في المسائل العقلية..

النهي عن الكلام

لقد نهى أحمد عن علم الكلام، لأنه مسلَك لم يسلكه السلف، ولأنه قد يؤدي إلى الضلال، وقد قاطَع الذين يخوضون في غير ما أُثر عن السلَف مقاطعة تامة..

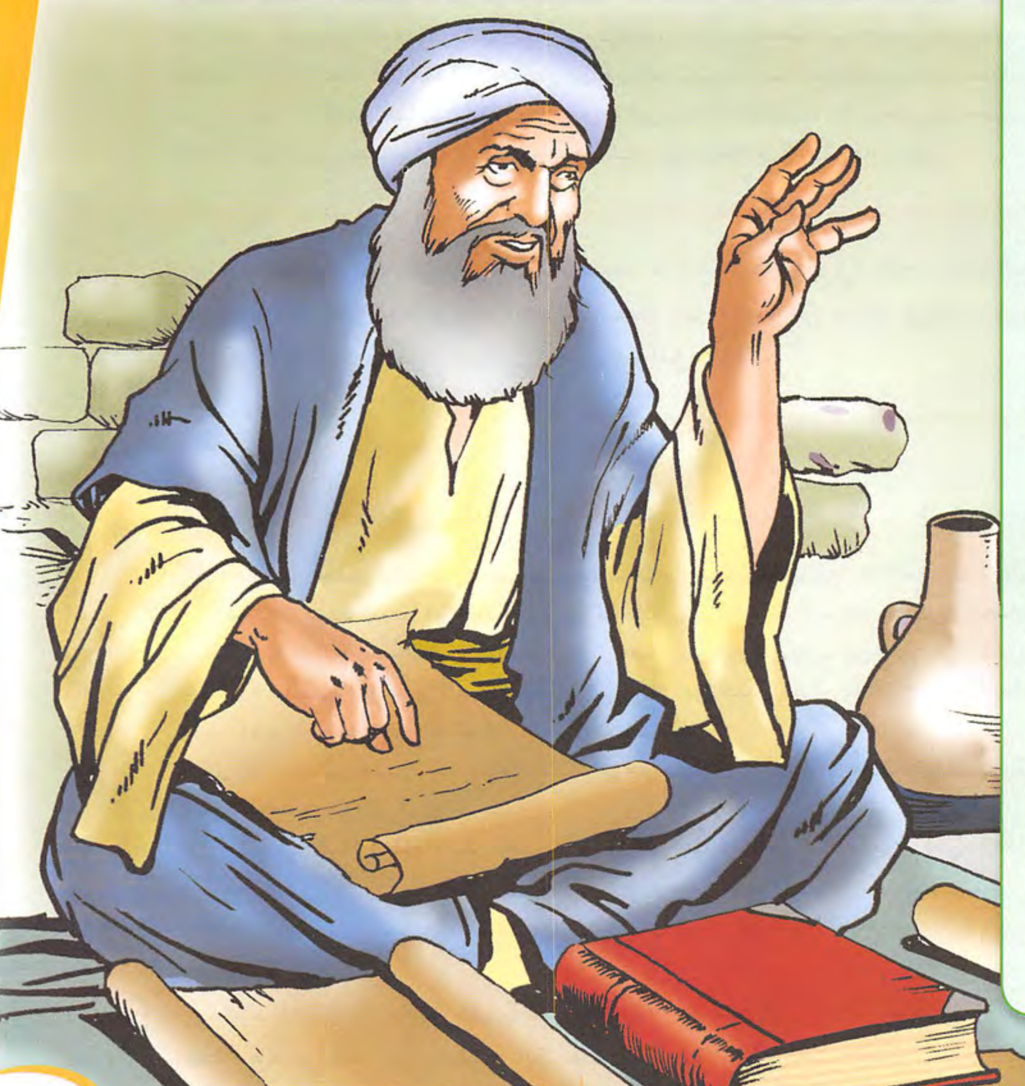
إن أحمد -رحمه الله تعالى- قاطَع الذين يخوضون في غير ما أُثر عن السلف مقاطعة تامة، حتى أنه ما كان يستجيز لنفسه الرد عليهم، وكان على ذلك إلى أن مات..

ولقد كتب رجل إليه يسأله عن مناظرة أهل الكلام، فكتب إليه أحمد رضي الله عنه الكتاب التالي:

"أحسَنَ اللهُ عاقبتك، الذي كنا نسمع، وأدركنا عليه من أدركنا، أنهم كانوا يكرهون الكلام، والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاء إلى ما في كتاب الله، لا تعدُ ذلك، ولم يزل الناس يكرهون كل مُحدَث، من وَضْع كتاب، وجلوس مع مبتدع، ليردوا عليه بعض ما يلبس عليه في دينه"..

لقد كان أحمد ينهى الناس عن علم الكلام، وهو العلم الذي يتكلم في العقائد بطرق فلسفية، فكان يذم أهل الكلام، وإن أصابوا، وينهى عن تدقيق النظر في أسماء الله تعالى وصفاته..

وما كان ذلك النهي إلا لأن هذا مسلك لم يسلكه السلف، وأنه إن أدّى إلى الصواب مرةً فقد يؤدي إلى الضلال، وقد يتيه العقل به في متاهات لا جدوى عند النجاة منها، وفيها الضلال البعيد إن لم تكن النجاة..



الإمام ينهى عن الخوض فيما لم يؤثر عن السلف

٢ أستاذ لشيوخه

الإمامة في الفقه والحديث درجة لا يصل إليها إلا مَنْ يفوق أهل زمانه فيهما، أو في أحدهما، بحيث يروي عنه جميع معاصريه، بما في ذلك أساتذته؛ وقد رأينا ذلك عند أبي حنيفة ومالك والشافعي، ولما كان أحمد ينتظم عقد هذه الصفوة من أئمة علماء المسلمين، فقد وجدنا شيوخه يروون عنه، ويأخذون منه، وقد رأينا كيف أخذ أحمد بن حنبل عن الشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجرّاح، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق بن همام..

إن هؤلاء الشيوخ الأئمة يأخذون من أحمد كما أخذ منهم، ويروون عنه كما روى عنهم، فقد روى عنه عبد الرحمن بن مهدي، وعبد الرزاق ابن همام، ووكيع بن الجراح، ويحيى بن آدم، ويزيد بن هارون، ومحمد بن إدريس الشافعي..

وامتدت إمامة أحمد في الفقه والحديث إلى من هم أكبر منه سناً من العلماء والحفاظ الثقات، من أمثال قتيبة بن سعيد، وداود بن عمر، وخلف بن هشام، كما روى عنه بعض أقرانه من رجالات الحديث مثل يحيى بن معين، وعلي بن المديني، والحسين بن منصور، وأبي قدامة السرخسي، وعنه روى أيضاً ثلاثة من الكبار؛ هم البخاري ومسلم وأبو داوود..

انتظم أحمد عقد الصفوة من الأئمة، فأخذ عنه شيوخه ورووا عنه، مثل وكيع وعبد الرزاق ويزيد والشافعي، وغيرهم، كما أخذ منه من هم أكبر منه سناً مثل قتيبة بن سعيد وغيره، وروى عنه بعض أقرانه مثل يحيى ابن معين، كما روى عنه البخاري ومسلم وأبو داوود..

ذو طاقة كبرى

إن أحمد بن حنبل يقف من بعض شيوخه موقف الأستاذية المباشرة، فإذا ما أخطأ الأستاذ صحح التلميذ خطأه، وبخاصة إذا أصاب التلميذ تبحراً في العلم وإحاطة به، ولم يكن تصويبه لأستاذه من قبيل المصادفة..

يقول محمد بن عبد الملك بن زنجويه رفيق أحمد في مجلس يزيد بن هارون: رأيت يزيد بن هارون يصلي، فجاء إليه أحمد بن حنبل، فلما سلّم يزيد من الصلاة التفت إلى أحمد بن حنبل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في العارية؟ قال: مؤداة.. فقال له يزيد: أخبرنا حجاج عن الحكم قال: ليست بمضمونة..

فقال له أحمد بن حنبل: "قد استعار النبي ﷺ من صفوان بن أمية أدرُعاً، فقال له: عارية مُؤَدّاة، فقال ﷺ: العارية مؤدّاة"..

فسكت يزيد ورجع إلى قول أحمد..

إن أحمد هنا ليس مجرد مذكِّر بحديث، وإنما هو هنا فقيه ذو طاقة كبرى على الإفتاء، والفقيه يستنبط أحكامه من الكتاب والسنة..

إن أحمد فقيه، ذو طاقة كبرى على الإفتاء، متبحِّرٌ في العلم، محيطٌ به، مما جعله يصحح لبعض أساتذته إن أخطأ، وليس عيباً أن يصحح التلميذ لأستاذه، إن كان على علم، وعنده الدليل والحجة على الصواب..

٣ الإمام القدوة

للإمامة مؤهلات معينة، وشروط خاصة، لا تتوافر لدى كل من وهب نفسه للعلم، وصار فيه ذا نباهة وشهرة، ولا تتهيأ لكل من سجد لله مصلياً، أو قضى الدهر صائماً، وإنما الإمامة علم وعمل وفقه وحديث، وحسن اجتهاد وجودة استنباط، وسلوك وعبادة، وتبصير وهداية، ونصح وقدوة، ودرس وتحصيل، وشجاعة وثبات، وزهد في المال والدنيا، وعزف عن الحكم والسلطان، وتعفف وهيبة، وحب للناس وتكريم لهم، وعطف على اليتامى وشفقة عليهم، وحلم وتسامح، ودفاع عن الحق، ودفع للظلم، ثم هي بعد ذلك مبايعة من خاصة العلماء، واتباع من عامة الناس، ومبايعة الثقة والحب والإجلال، فما لم يحز الإمام حب الناس وثقتهم واحترامهم، فقد حرم أوليات مؤهلات الإمامة..

ولقد كان أحمد بن حنبل يحوز كل تلك المزايا والمؤهلات، ويمتلك جميع هذه الشمائل والصفات..

ليس كل من وهب نفسه للعلم وصار فيه ذا نباهة وشهرة؛ صار إماماً، وليس كل من سجد لله مصلياً أو قضى الدهر صائماً، صار إماماً، فللإمامة مؤهلات وشروط، قد توافرت كلها في أحمد فصار إماماً..

لقب الإمامة

إذا لم يكن الإمام قدوة لغيره من الناس في عمله وقوله ونهجه في الحياة، فلا إمامة له، وإن أطلقوا عليه لقب الإمام، فكثير من الأسماء نقرأ عنها وليس لها من الإمامة غير اللقب؛ لأن الإمامة نهج في الحياة قائم على الفضل كل الفضل، والعلم كل العلم، والتقوى كل التقوى، والشمائل كل الشمائل، لا تغني واحدة من هؤلاء عن سائرها، فإذا لم تجتمع كلها في شخص بذاته دون نقصان، بات لقب الإمامة بالنسبة إليه مجرد ترف باطل، ولقب زائف، إن هذا أمر مألوف في بعض المجتمعات الإسلامية، وبخاصة في زمننا المعاصر، فما أكثر الألقاب الزائفة التي خُلعت على بعض من لا يستحقونها، وغالباً ما يكونون قد سَطوا عليها سطواً واغتصبوها اغتصاباً..

ومن مؤهلات الإمامة أن يكون حامل لقبها قدوة للناس في حياته المرتبطة بالأصول الدينية، وقدوة في سلوكه العام، والدفاع عما تتعرض له العقيدة من كيد الكائدين، وما يبيت لها من انحراف المنحرفين..

إن حامل لقب الإمامة يجب أن يكون قدوة للناس في حياته وفي سلوكه العام، لأن الإمامة نهج في الحياة قائم على الفضل والعلم والتقوى وكل الشمائل، فإذا لم تجتمع في شخص بات لقب الإمامة بالنسبة إليه مجرد لقب زائف، وما أكثر الألقاب الزائفة في زماننا..

قدوة في الزمنين

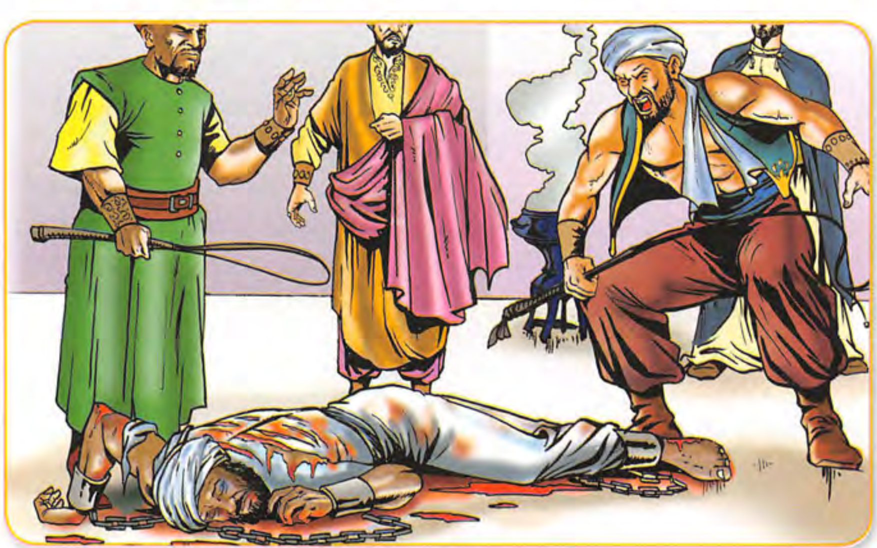
وقد مرَّ بنا حديث المحنة مفصلاً، وكيف كان أحمد مناط تفكير الناس، عليه علقوا رجاءهم، وإليه اشرأبت أعناقهم، وبه ارتبطت عواطفهم.. إذ لم يبقَ أمام الناس من مدافع عن العقيدة، منافح عن سلامتها، متحمل الأذى في سبيل الذود عنها غير أحمد بن حنبل، وإذا كان أحمد جديراً بالإمامة، فليتحمل حتى يكون القدوة.. والقدوة مؤهِّل أساسي من مؤهِّلات الإمامة، ولقد كان أحمد عند حسن الاعتقاد فيه، المنافِح المكافِح، والقدوة الصالحة..

كان أحمد في قمة من الشجاعة، وغاية من التماسك، وذروة من الثبات، ولم يكن أحمد بن حنبل بثباته في الفتنة قدوة لأوساط الناس وحسب؛ ولكنه صار قدوة الخاصة من العلماء والفقهاء، والجمهرة من أبناء البوادي والحضر..

إن الإمام ينبغي له لكي تصمد إمامته، وترسخ في قلوب الناس وعقولهم وخواطرهم، أن يكون قدوة لهم في زمن اليسر وفي وقت الشدة، ولقد كان أحمد بن حنبل خير قدوة في الزمنين..

ينبغي للإمام لكي تثبت إمامته أن يكون قدوة للناس في زمن اليسر وفي وقت الشدة، ولقد كان أحمد خير قدوة في الزمنين..





الإمام يعذب ويجلد لقوله الحق

٤ مبايعته بالإمامة

كان أحمد بن حنبل بعلمه، وفقهه وحفظه وسلوكه ونهج حياته وزهده وورعه وهيبته وثباته على معتقده، وتعرضه للمحنة، وقمعه للفتنة مؤهَّلاً لأن يبايعه علماء المسلمين بالإمامة، والإمامة التي نعنيها هنا إمامة العلم والدين، وليست إمامة الخلافة والملك والسلطان..

لم تكن بيعة علماء الإسلام لأحمد بالإمامة في مجلس أو جمع أو مؤتمر، وإنما هي منبثقة من خلال آرائهم فيه، وأقوالهم في شخصه، وتمثلهم لمواقفه..

يقول الحافظ المحدِّث أحمد بن سلمة البزاز: أحمد بن حنبل إمام الدنيا..

ويقول العالم المحدِّث إبراهيم الحربي: رأيت أحمد بن حنبل كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين..

وكثير من العلماء على اختلاف صنوفهم ومقاماتهم كانوا يحملون له الإجلال والتوقير، وكان ذلك سبباً وجيهاً لأن يُطلَق على الإمام أحمد في حياته لقب: "شيخ الإسلام"..

استحق أحمد لقب الإمامة بعلمه وفقهه ونهج حياته؛ وشهد له كثير من العلماء على اختلاف صنوفهم، بإمامته، بل أُطلق عليه لقب "شيخ الإسلام"..



سَعَتْ إليه

هكذا كانت مكانة أحمد بن حنبل في قلب صفوة العلماء، وعامة الناس، كلٌ يطلق عليه صفةً عليا ولقباً رفيعاً، وكانت كل هذه الصفات تنتهي بالإنسان العظيم أحمد بن حنبل إلى لقب الإمامة، فقد استحقها بجدارة، وحازها بمقدرة، إنه لم يسعَ إليها، ولكنها سَعَتْ إليه، بل إنه نفر منها، وأراد الهرب من الشهرة التي لاحقته، وتمنّى لو استطاع أن ينزل في شعب من شعاب مكة يعيش فيه، فلا يعرف أحد له مكاناً، وهذا التمني في حد ذاته يعتبر مؤهِّلاً من مؤهِّلات الإمامة..

لم يكن أحمد يسعى لينال لقب الإمامة، بل نَفَر منها، فسَعَتْ إليه، وهرب من الشهرة فلاحقته، وكان أهلاً لها..

أحمد بن حنبل إمام الدنيا، كما قال عنه المحدث البزاز





الباب الثالث
العالم الفقيه

الفصل الثاني

عقيدته وآراؤه

- في الإيمان
- مرتكب الكبيرة
- القدَر وأفعال الإنسان
- رأيه في الصفات
- رؤية الله تعالى يوم القيامة
- آراؤه السياسية
- كتاب عظيم للإمام أحمد

١ في الإيمان

كانت في هذا العصر تثار مسائل متصلة بالعقيدة الإسلامية، يثيرها كبار الفرق الإسلامية، وينشرونها بين جماهير المسلمين، وأولئك لا يثقون بعلم الفقهاء والمحدثين، فلا يسألون غيرهم عنها، ولا يجدون ما يجلو الشبهة عند غيرهم..

ومن هذه المسائل: مسألة حقيقة الإيمان، فكان لا بد أن يتكلم الفقهاء والمحدّثون في هذه المعاني بطريقتهم، وهي الاعتماد على الكتاب والسنة، دون الاعتماد على العقل المجرّد، ولقد اختلفوا في ذلك على آراء؛ وإن لم تكن متباعدة..

فأبو حنيفة يرى أن الإيمان هو الاعتقاد الجازم، والإذعان، ووجود أمارة حسيّة تدل على ذلك الاعتقاد، وهذه الأمارة هي النطق بالشهادتين، ولا يعد جزءاً من الإيمان، ولا يعد الإيمان إلا حقيقة مجردة إن وجدت كانت كاملة، فلا يقبل الزيادة والنقصان..

وقال مالك: إن الإيمان هو التصديق والإذعان، ولكنه يزيد؛ لأن القرآن الكريم صرّح بأن بعض الذين آمنوا قد ازدادوا إيماناً، وقد كان يقول: إنه أيضاً ينقص..

وكذلك قال الشافعي..

أُثيرت مسائل متصلة بالعقيدة في عصر أحمد، ومنها مسائل حقيقة الإيمان، وكان لا بد للفقهاء والمحدثين أن يدلوا بآرائهم في ذلك، فأبو حنيفة قال: الإيمان لا يقبل الزيادة ولا النقص.. ومالك والشافعي قالا: يزيد وينقص..

يزيد وينقص

أما أحمد بن حنبل؛ فهو يقرر في عدة مواضع أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص، فقد جاء في كتاب المناقب: أن أحمد كان يقول: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، والبر كله من الإيمان، والمعاصي تنقص من الإيمان"..

ويقول: صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة: مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأقرّ بجميع ما أتت به الأنبياء والرسل، وعقد قلبه على ما ظهر من لسانه، ولم يشك في إيمانه"..

ويقول في موضع آخر: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، زيادته إذا أحسنت، ونقصانه إذا أسأت، ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام، فإن تاب رجع إلى الإيمان، ولا يخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله العظيم، أو يرد فريضة من فرائض الله جاحداً لها، فإن تركها تهاوناً بها وكسلاً؛ كان في مشيئته، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه"..

يرى أحمد أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فالحسنات تزيده، والمعاصي تنقصه..

حقائق ثلاث

ومما تقدم يتبين أن أحمد يرى أن هناك حقائق ثلاثاً، يتميز بعضها عن بعض، وهي:

الإيمان وهو تصديق بالقلب ونطق باللسان، وعمل بالجوارح..

والكفر وهو الإشراك بالله أو جحود أمر من أوامر الدين، أو نهي من نواهيه.. وهو في هذا الرأي يعتمد على النصوص وحدها، ولا يخوض في أمور عقلية..

والإسلام وهو يكون إذا توافر التصديق والقول، وتخلف العمل من غير إشراك ولا جحود لأمر جاء به القرآن أو السنة..

الإيمان هو تصديق بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح، والإسلام توافر التصديق والقول وتخلف العمل من غير إشراك ولا جحود، والكفر: الإشراك بالله أو جحود أمر أو نهي..
هذه حقائق ثلاث يراها أحمد في هذه المسألة..

الإمام أحمد يشرح الحقائق الثلاث

٢ مرتكب الكبيرة

إن مسألة مرتكب الكبيرة كانت موضع نظر واختلاف بين العلماء..

فالخوارج يعدونه كافراً، والحسن البصري من التابعين كان يعده منافقاً، والمعتزلة يرونه في منزلة بين المنزلتين، وقد يسمونه مسلماً، وهو عندهم مخلّد في النار..

وأبو حنيفة ومالك والشافعي يعدونه مؤمناً، ويتركونه لأمر الله سبحانه وتعالى، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه..

وقال المنحرفون من المرجئة: لا تضر مع الإيمان معصية؛ كما لا ينفع مع الكفر طاعة، أي أنه لا عذاب ولا مؤاخذة..

وأحمد -رحمه الله تعالى- رأيُه كرأي الفقهاء، ويقول في وصف المؤمن: "أرجأ ما غاب عنه من الأمور إلى الله، وفوض أمره إلى الله، ولم يقطع بالذنوب العصمة من عند الله، وعلم أن كل شيء بقضاء الله وقدره، الخير والشر جميعاً، ورجا لمحسن أمة محمد ﷺ، وتخوف على مسيئهم، ولم يُنزل أحداً من أمة محمد ﷺ الجنة بالإحسان، ولا النار بذنب اكتسبه، حتى يكون الله الذي ينزل خلقه حيث شاء"..

ونرى من هذا أنه يرجئ أمر العصاة إلى الله تعالى، ولكن يتخوف عليهم، ويرد على المعتزلة قولهم إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن، فيقول: "فمن كان منهم كذلك فقد زعم أن آدم كافر، وأن إخوة يوسف حين كذبوا أباهم كفار"..

أحمد وباقي الفقهاء يعدون مرتكب الكبيرة مؤمناً، ويتركونه لأمر الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه..

٣ القدر وأفعال الإنسان

لعلّ أظهر ما امتاز به أحمد في حياته: هو التفويض المطلق لحكم الله، والخنوع الكامل لقدره سبحانه وتعالى، ففوّض أمره إلى الله سبحانه فيما غاب وما حضر، وإن كان يتخذ الأهبة لما يحضره من الأمور، فلا يكون من الذين يتمنون الأماني ويستسلمون ولا يعملون؛ بل يعمل ويتوكل على ربه، مؤمناً بقدرته، وبالقدر خيره وشره..

وكان منهاجه في دراسة مسائل الدين هو منهاج السلف، لا يعتمد على العقل دون النقل، وكذلك كان كلامه في القضاء والقدر وأفعال الإنسان، ينطق بما قرر السلف، ولا يخوض في أمر عقلي لم يخوضوا فيه، ولا يجادل ولا يماري..

يقول في القدر: "أجمع سبعون رجلاً من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار، على أن السنّة التي توفي عنها رسول الله ﷺ الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، والصبر تحت حكمه، والأخذ بما أمر الله به، والبعد عما نهى عنه، وإخلاص العمل لله، والإيمان بالقدر خيره وشره، وترك المراء والجدال، والخصومات في الدين..

امتاز أحمد بالتفويض المطلق لأمر الله، وهو يقرر وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، ووجوب الطاعة، فالقدر لا ينافي التكليف والاختيار في الطاعة..

بقدرة الله وإرادته

و أحمد إذ يؤمن بالقدر خيره وشره؛ يقرر أن الله سبحانه وتعالى يعلم بكل شيء، ويقدّر كل شيء، وما يفعله الإنسان فبقدرة الله سبحانه وإرادته، لذلك يخالف القدرية الذين يقولون: إن الإنسان يعمل ما عمل بقدرته الخاصة، لا بقدرة الله سبحانه وتعالى..

وأحمد يرى ما يراه جمهور المسلمين وأهل الفقه، وهو أن الله سبحانه وتعالى لا يقع شيء قط في الكون لا يريده، بل كل شيء بقدرة الله تعالى وإرادته، ولذلك يذم القدرية بهذه النحلة التي انتحلوها، ولقد سأله ابنه صالح عن الصلاة خلف القدري، فقال: "إنه يقول: إن الله لا يعلم ما يعمل العباد، حتى يعملوا، فلا تصلِّ خلفه"..

ولكن أحمد لا يناقش ولا يجادل، ولا يحاول أن يقيم دليلاً عقلياً على إبطال ما ينتحلون؛ لأنه يرى أن كل أمر ثبت بالسنة والقرآن لا يحتاج إلى دليل؛ ولذلك كان يقول: "لستُ بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا، إلا ما كان في كتاب، أو حديث عن رسول الله ﷺ، أو عن أصحابه، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود"..

إن الله يعلم كل شيء، ويقدّر كل شيء، وكل ما يفعله الإنسان هو بقدرة الله وإرادته، هذا ما قرره أحمد، وجمهور المسلمين، خلافاً للقدرية، الذين ذمهم أحمد، ومنع ابنه من الصلاة خلفهم..

٤ رأيه في الصفات

وصف الله سبحانه وتعالى ذاته العلية بصفات، فوصف ذاته العلية بالقدرة، والإرادة والعلم، والحياة، والسمع والبصر، وقال: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾(النساء: من الآية١٦٤)

فأثبت أحمد لله تعالى كل ما جاء في القرآن والحديث ذكره من صفات الله سبحانه وتعالى، فهو يصف الله تعالى بأنه سميع بصير، متكلم، قادر، مريد عليم، لطيف خبير، عزيز حكيم، ليس كمثله شيء، ويذكر كل ما وصف به الله تعالى ذاته من غير محاولة تأويل، ولقد روى عنه ابنه عبد الله أنه في أحاديث الصفات قال: "هذه الأحاديث نرويها كما جاءت"..

ولا يبحث عن كنه الصفات، ولا عن حقيقتها، ويعتبر التأويل خروجاً على السنة، إن لم يكن مستمداً منها، وذلك لأنه يرى أن اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة، وابتداع في الإسلام، ولذلك يقول -رحمه الله تعالى- "صفة المؤمن إرجاء ما غاب عنه من الأمور إلى الله كما جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ، فيصدقها ولا يضرب لها الأمثال"..

أثبت أحمد كل ما جاء ذكره في القرآن والحديث من صفات الله تعالى، من غير بحث عن كنه هذه الصفات، ولا عن حقيقتها، ويعتبر التأويل خروجاً على السنة، إن لم يكن مستمداً منها..

رَجُل سُنَّة

و نرى أحمد في مسائل الاعتقاد، التزم المنقول، ولم يستخدم ما تنتجه العقول، ذلك أنه كان رجل سنة، ولم يكن رجل فلسفة، فما كان يعتمد على القضايا الفلسفية، والمنازع العقلية، وإن العقول تتقاصر عما وراء الشاهد المحسوس، فالناس من عهد الفلاسفة اليونانيين إلى اليوم، وهم في قول مختلف بالنسبة لأمور الغيب، أو لما وراء الطبيعة كما يقولون، أو لما وراء المحسوس كما نقول..

فأحمد إذ اعتمد على النص الذي قام الدليل القاطع على أنه من عند الله، وعلى كلام الرسول الذي قام الدليل القاطع أنه ينطق عن الله؛ قد أوى إلى ركن حصين، وابتعد عن متاهات العقل وأوهامه، ولم يشغل نفسه إلا بما فيه جدوى، وعلم ينفع الناس في أعمالهم، ومعاشهم ومعادهم، فترك ما لا فائدة فيه إلى ما فيه الفائدة..

كان أحمد رجل سنة، ولم يكن رجل فلسفة، فالتزم المنقول في مسائل الاعتقاد، ولم يستخدم ما تنتجه العقول، وهو بذلك قد أوى إلى ركن حصين، وابتعد عن متاهات العقل وأوهامه..

٥ رؤية الله تعالى يوم القيامة

إن أحمد الذي كان يأخذ بالنصوص، ولا يُجري لها تأويلاً، يؤمن برؤية الله يوم القيامة إيماناً كاملاً، ويرى أنها جزء لا يتجزأ من إيمان أهل السنة، فيقول: "والإيمان بالرؤية يوم القيامة، كما روي عن النبي ﷺ، ثبت من الأحاديث الصحاح، وإن النبي ﷺ رأى ربه، فإن ذلك مأثور بحديث صحيح..

والحديث عندنا على ظاهره، كما جاء عن النبي ﷺ، والكلام فيه بدعة، ولكن نؤمن به على ظاهره، وأن الله يكلم العباد يوم القيامة ليس بينهم وبينه ترجمان..

وأساس ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ • إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣)

والخبر عن النبي ﷺ من الأخبار التي لا يدفعها إلا جاهل، أو معاند ظالم، لتتابع الروايات من الجهات الكثيرة عن الثقات..

يرى أحمد أن رؤية الله يوم القيامة، جزء لا يتجزأ من إيمان أهل السنة، فهو يؤمن بها إيماناً كاملاً، لما ورد في القرآن، وفي الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ من ثبوت هذه الرؤيا للمؤمنين..

٦ آراؤه السياسية

لقد كان مسلك أحمد في دراسته لبعض النواحي المتصلة بالسياسة رجلاً يتبع الأثر، ولا يتجانف عن مسلكه، وكان بالنسبة لآرائه في الصحابة، يتبع المنقول، وما عليه أكثر الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، وفي شأن الخلافة والخليفة، وممن يختار وكيف يختار؛ كان رجلاً واقعياً يتجنب الفتن، ويجتهد في أن يكون شمل المسلمين ملتئماً، ويؤثر الطاعة لإمام متغلب –ولو كان ظالماً- على الخروج على الجماعة..

ويتشابه نظر أحمد في مسائل السياسة، ونظر الإمام مالك رضي الله عنه، فهما يتفقان في ترتيب منازل الصحابة، ويتفقان في اختيار الخليفة، ويتفقان في أن الخروج على الخليفة - ولو كان ظالماً- لا يجوز، لأنه يرتكب في فتن الخروج من الظلم ما لا يرتكبه الحاكم المستبد من ظلم..

وهذه المسألة فيها نظر عند كثير من العلماء، فمن جهة هي رضىً بواقع خاطئ، ومن جهة أخرى فيها درء لفتنة قد تحدث بسبب الخروج على الحاكم..

والذي أراه أن احتمال حدوث فتنة لا يبرر الإقرار بالخطأ، فلا مانع من الصبر حتى نتمكن من إصلاح الخطأ، ولكن لا نقر الواقع الخاطئ..

حتى في الأمور السياسية كان أحمد يتبع الأثر، ولا يتجانف عن مسلكه، ويتبع المنقول في رأيه في الصحابة، أما في الخلافة، فإنه كان رجلاً واقعياً يتجنب الفتن، ويجتهد في أن يكون شمل المسلمين ملتئماً، وهو في ذلك يتفق مع الإمام مالك..

السمع و الطاعة

وقد جاء في إحدى رسائل أحمد ما يوضح رأيه، فقال: "السمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين، البر والفاجر، ومَنْ ولي الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به، ومَنْ غلبهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة، البر والفاجر، وقسمة الفيء وإقامة الحدود إلى الأئمة ماض، وليس لأحد أن يطعن عليهم، ولا ينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائز نافذ، مَنْ دفعها إليهم أجزأت عنه، براً كان أو فاجراً، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولي جائزة إمامته، ومَنْ أعادها فهو مبتدع، تارك للآثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجمعة شيء إذا لم يرَ الصلاة خلف الأئمة مَنْ كانوا برهم وفاجرهم، فالسُّنة أن تصلي معهم ركعتين، وتدين بأنها تامة لا يكن في صدرك شك، ومَنْ خرج على إمام من أئمة المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه، وأقروا له بالخلافة، بأي وجه كان، بالرضا أو بالغلبة، فقد شقّ هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار والمنقول عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية"..

(ومرة أخرى حكم المتغلب بالقوة خطأ يصبر عليه ولا يقر)..

وهكذا يرى أحمد السمع والطاعة للأمير، البر والفاجر، إذا اجتمع الناس عليه ورضوا به، ولا يرى الخروج عليه، بل يقول إن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية..

لا طاعة في معصية

ومع قول أحمد بوجوب الطاعة للأمير وعدم الخروج عليه؛ فإنه ما كان يرى الطاعة في أمر فيه معصية أو بدعة، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ويؤخذ ذلك من أفعاله، لا من أقواله، فالمعتصم والواثق، ومن قبلهما رسل المأمون حاولوا حمله على أن يقول في القرآن غير ما يعتقد، فما أجابهم إلى ما طلبوا، ولم يكن في ذلك النوع من المخالفة للسلطان خروج، ولا دعوة إلى الخروج، لأن الخروج أن يجاهر بعصيانه ويقاتله، والدّعوة إلى الخروج تحريض الناس على العصيان والقتال، وبث روح التمرد في النفوس، ولم يكن في امتناع أحمد عن أن يقول مقالة الخليفة في أمر القرآن شيء من ذلك، إنما هو الاستمساك بالعروة الوثقى في نظره، والصبر على المحنة في سبيلها..

ما كان أحمد يرى طاعة للأمير في معصية، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقد تبين ذلك من امتناعه عن أن يقول مقالة الخليفة في أمر القرآن، فليست الطاعة تقتضي أن يقول كل ما يرضي الخليفة بالحق والباطل، فإن ذلك رياء ونفاق..

٧ كتاب عظيم للإمام أحمد (فيه تلخيص لآرائه كتبه بنفسه)

أَجْمَلَ الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- كثيراً من عقائده في الكتاب الذي كتبه إلى مُسَدَّد بن مُسْرهَد شيخ الإمام البخاري، حين سأله هذا عما كان يشغل بال الناس من المسائل التي اختلفوا فيها، وما رأيُ أهل السنة في ذلك..

قال أحمد بن محمد التميمي الزرندي: لما أشكل على مسدَّد بن مسرهد أمرُ الفتنة وما وقع الناس فيه من الاختلاف... كتب إلى أحمد ابن حنبل: اكتُب إليّ بسنّة رسول الله ﷺ.

فلما ورد كتابه على أحمد بن حنبل؛ بكى، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، يزعم هذا البصري أنه قد أنفق على العلم مالاً عظيماً، وهو لا يهتدي إلى سنة رسول الله ﷺ!!

ثم كتب إليه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من آل العلم، يدّعون من ضلّ إلى الهُدى، وينهون عن الرّدى، يُحيون بكتاب الله تعالى الموتى، وبسنّة رسول الله ﷺ أهل الجهالة والردى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيَوه، وكم من ضالّ تائه قد هدَوه، فما أحسن آثارهم على الناس، ينفون من دين الله عز وجل تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الضالين، الذين عقدوا ألوية البدَع، وأطلقوا عنان الفتنة، يقولون على الله، وفي الله -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً- وفي كتابه بغير علم، فنعوذ بالله من كل فتنة مُضلّة، وصلى الله على محمد..

أما بعد، وفّقنا الله وإياكم لما فيه طاعته، وجنّبنا وإياكم ما فيه سخطه، واستعملنا وإياكم عمل العارفين به، الخائفين، إنه المسؤول عن ذلك..

أوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم، ولزوم السنّة، فقد علمتم ما حلّ بمن خالفها، وما جاء فيمن اتبعها، بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل ليُدخل العبد الجنة بالسنّة يتمسك بها» فآمركم ألا تؤثروا على القرآن شيئاً، فإنه كلام الله عز وجل، وما تكلّم الله به فليس بمخلوق، وما أخبر به عن القرون الماضية، فغير مخلوق، وما في اللوح المحفوظ، وما في المصاحف، تلاوة الناس، وكيفما قرئ، وكيفما يُوصَف، فهو كلام الله غير مخلوق، فمن قال مخلوق، فهو كافر بالله العظيم، ومن لم يكفّره فهو كافر..

ثم من بعد كتاب الله: سنة النبي ﷺ والحديث عنه، وعن المهديين أصحاب النبي ﷺ، والتصديق بما جاءت به الرسل، واتباع سنّة النجاة، وهي التي نقلها أهل العلم كابراً عن كابر..

كتب عالم إلى أحمد بن حنبل يسأله أن يبين له سنة رسول الله ﷺ، بعدما وقع الناس فيه من الاختلاف، فأرسل له أحمد كتاباً ضمّنه معظم آرائه في مسائل العقيدة، وحثّه على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، ففيهما النجاة..

تحذير وبيان

ويتابع أحمد:

"واحذروا رأي جهم، فإنه صاحبُ رأي وكلام وخصومات، فقد أجمع مَن أدركنا من أهل العلم: أن الجهمية افترقت ثلاث فرق، فقالت طائفة منهم: القرآن كلام الله مخلوق، وقالت طائفة: القرآن كلام الله وسكتت، وهي الواقفة الملعونة، وقال بعضهم: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، فكل هؤلاء جهميةٌ كفار، يُستتابون، فإن تابوا، وإلا قتلوا..

وأجمع من أدركنا من أهل العلم أنّ مَن هذه مقالتُه إن لم يتب لم يُناكَح، ولا يجوز قضاؤه، ولا تؤكل ذبيحته..

والإيمان قول وعمل يزيد وينقص؛ زيادته إذا أحسنتَ، ونقصاه إذا أسأتَ، ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام شيء إلا الشرك بالله العظيم، أو بردّ فريضة من فرائض الله عز وجل، جاحداً بها، فإن تركها كسلاً أو تهاوناً كان في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه"..

ثم يذكر أحمد آراء بعض الفِرَق التي كانت في عصره، ويدحضها، وينكر على أصحابها ما ذهبوا إليه..

> ويتابع أحمد كتابه محذّراً من رأي جهم ومَنْ اتبعه، ويبين أن الإيمان قول وعمل؛ يزيد وينقص، وأنه لا يخرجه من الإسلام شيء إلا الشرك بالله، أو ردّ فريضة من فرائض الله جاحداً بها..

الإيمـــان

و نؤمن بالقضاء والقدر خيره وشرّه، وحلوه ومرّه، وأن الله خلق الجنة قبل الخلق، وخلق لها أهلاً، ونعيمها دائم، ومَن زعم أنه يبيد من الجنة شيء فهو كافر، وخلق النار قبل الخلق، وخلق لها أهلاً، وعذابُها دائم..

وأن أهل الجنة يَرَون ربَّهم لا محالة، وأن الله يُخرج أقواماً من النار بشفاعة محمد ﷺ، وأن الله كلّم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، والصراط حق، والميزان حق، والأنبياء حق، وعيسى ابن مريم رسول الله وكلمته، والإيمان بالحوض والشفاعة، والإيمان بمنكر ونكير وعذاب القبر، والإيمان بملك الموت يقبض الأرواح، ثم تُرَدُّ الأجساد في القبور، فيُسألون عن الإيمان والتوحيد..

والإيمان بالنفخ في الصور –والصور قَرْن ينفخ فيه إسرافيل– وأن القبر الذي في المدينة قبرُ محمد ﷺ معه أبو بكر وعمر، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن..

والدّجّال خارجٌ في هذه الأمة لا محالة، وينزل عيسى بن مريم، فيقتله بباب لدّ..

وما أنكرَتْ العلماء من التشبيه فهو منكر، واحذروا البدع كلها..

> وبيّن أحمد أنه يجب الإيمان بالقضاء والقَدَر، وبالجنة والنار، والصراط والميزان، والحوض والشفاعة..
> وعدّ أموراً كثيرة، ثم ذكر أن ما أنكره العلماء فهو منكَر، وحذّر من البدع كلها..

فضلُ الصحابة

ولا عينٌ نظرتْ بعد النبي ﷺ خيراً من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولا بعد أبي بكر عينٌ نظرت خيراً من عمر، ولا بعد عمر عينٌ نظرت خيراً من عثمان، ولا بعد عثمان بن عفان عينٌ نظرت خيراً من علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين..

قال أحمد: هم –والله– الخلفاء الراشدون المهديّون..

وأن نشهدَ للعشرة بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، ومَنْ شهد له النبي ﷺ بالجنة شهدنا له بالجنة..

أحكام فقهية

و رفعُ اليدين في الصلاة زيادة في الحسنات، والجهر بـ: "آمين" عند قول الإمام: "ولا الضالين"..

والصلاة على مَن مات من أهل هذه القبلة، وحسابهم على الله عز وجل، والخروج مع كل إمام في غزوه وحجه، والصلاة خلفهم صلاة الجماعة والجمعة والعيدين..

والكفّ عن مساوئ أصحاب رسول الله ﷺ، تحدّثوا بفضائلهم، وأمسكوا عما شجر بينهم، ولا تشاور أحداً من أهل البدع في دينك، ولا ترافقه في سفرك، ولا نكاح إلا بوليٍّ، وخاطب وشاهدَي عدل، والمتعة حرام إلى يوم القيامة..

وتحدّث أحمد عن فضل الصحابة، والعشرة المبشرين بالجنة، وأنه ينبغي التحدُّث بفضائلهم، والإمساك عما شجرَ بينهم..

أَحِبُّوا أهلَ السنَّة

ومن طلّق ثلاثاً في لفظ واحد، فقد جهل، وحرمتْ عليه زوجته، ولا تحلُّ له أبداً حتى تنكح زوجاً غيره..

والتكبير على الجنائز أربع، فإن كبّر خمساً فكبِّر معه، قال ابن مسعود: "كبِّر ما كبَّر إمامك".. قال أحمد: خالفني الشافعي، وقال: إن زاد على أربع تكبيرات أعاد الصلاة، واحتجَّ عليّ بأن النبي ﷺ صلّى على النجاشي فكبّر عليه أربع تكبيرات..

والمسح على الخفين للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن، وللمقيم يوماً وليلة، وإذا دخلتَ المسجد فلا تجلس حتى تركع ركعتين تحية المسجد، والوتر ركعة، والإقامة فرادى..

أحبُّوا أهلَ السنَّة على ما كان منهم، أماتنا الله وإياكم على السنّة والجماعة، ورزقنا الله وإياكم اتباع العلم، ووفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه"..

هذا هو نص كتاب الإمام أحمد إلى مسدَّد بن مسرهد، وهو ملخص ما عليه الإمام من عقيدة..

ويذكر أحمد أموراً في الفقه، ثم يدعو إلى محبة أهل السنّة، جعلنا الله منهم، وكان هذا الكتاب ملخص ما عليه الإمام من عقيدة..

الباب الثالث

العالِم الفقيه

الفصل الثالث



تلاميذه الخريجون

- مدرسة الإمام أحمد
- صالح بن أحمد
- عبد الله بن أحمد
- أبو بكر الأثرم
- عبد الملك الميموني
- أبو بكر المروذي
- إبراهيم بن إسحاق الحربي
- حرب الكرماني

١ مدرسة الإمام أحمد

كانت مدرسة أحمد بن حنبل في الفقه والحديث، واحدة من تلك المدارس الكبرى، التي خرّجت عظماء العلماء، ونبهاء الفقهاء، وجمهرة من المحدّثين، فضلاً عمن يمكن أن يطلق عليه لفرط علمه وزهده وفقهه وتقواه لقب إمام..

إن مدرسة أحمد تذكرنا بالمدارس الكبرى السابقة عليها مثل مدرسة أبي حنيفة، ومدرسة مالك، ومدرسة الشافعي، على اختلاف بينها في الفكر والفقه والمنهج والمشرب، غير أنها تنبع جميعاً من مدرسة النبوة، وتصب كلها في بحر علم الإسلام، محاطة بهالة من نور، مطوقة بسياج من التقوى، مزدانة بعقد من الصفوة، متميزة بفيض من العطاء..

وإنه من الصعوبة بمكان أن نحصي تلاميذ مدرسة أحمد، الذين جلسوا إليه، وأخذوا عنه، وكتبوا حديثه وسجلوا فقهه، وارتحلوا إلى حلقته من مختلف بقاع الأرض الإسلامية، وليس من بينهم إلا مَنْ صار علماً في الفقه، سيداً بين الحفاظ، مبرزاً في الثقات، مقدماً في الزاهدين، ولذلك نختار من هؤلاء الصحاب بضعة رجال، كان لهم فضل في نشر علمه رضي الله عنه..

تخرّج من مدرسة أحمد عظماء العلماء، ونبهاء الفقهاء، فكانت واحدة من المدارس الكبرى، مثل مدرسة أبي حنيفة ومالك والشافعي، وقد تجاوز عدد من سمع منه الحسبة، لذلك سنقتصر على ذكر أشهرهم..

٢ صالح بن أحمد

هو أكبر أولاد الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-، ولد سنة ٢٠٣هـ وتوفي سنة ٢٦٦هـ، وكان أحمد معنياً بتربيته، حفياً بأن يكون من الزهاد مثله، وكانت طريقته في تهذيبه أمثل طرق التربية، وهي التربية بالأسوة الحسنة، وكثرة مشاهدة ذوي الخلق القويم، وبيان مناحي فضلهم، فإنه يُروى أنه كان إذا زاره رجل من ذوي التقى والورع، أحضر ابنه صالحاً هذا ليراه، إذ يروي أن صالحاً كان يقول: "كان أبي يبعث خلفي إذا جاءه رجل زاهد، أو رجل صالح متقشف، لأنظر إليه، يحب أن أكون مثلهم، أو يراني مثلهم"..

وكان صالح كثير العيال، وكان سخياً جواداً، يجود بما عنده قلّ أو جلّ، وقد اضطرته كثرة العيال إلى أن يلي قضاء طرسوس، ولما جاءه العهد بالولاية بكى؛ لأنه أحسّ بأنه خالف ما كان أبوه يريده منه، ولأنه كان يريد أن يكون له من أبيه أسوة حسنة في العزوف عن أي عمل للسلطان، ولكنه اضطر إلى الولاية لدَيْن ركبه، ولكثرة عياله، ولذا قال معتذراً عن مخالفة طريقة أبيه: "الله يعلم ما دخلتُ في هذا الأمر إلا لدَيْن قد غلبني، وكثرة عيال، أحمد الله تعالى"..

صالح هو أكبر أولاد أحمد، وقد عني أحمد بتربيته، بأمثل طرق التربية، وهي التربية بالأسوة الحسنة، ومشاهدة الصالحين، علّه يكون مثلهم ويتأثر بهم.



صالح بن أحمد بن حنبل أكبر أولاد الإمام

راوي الفقه

و كان صالح ذا علم وفقه وحديث، وقد تلقى هذا الفقه والحديث عن أبيه، وعن غيره من معاصريه، وقد نقل إلى الناس كثيراً من مسائل الفقه، التي أفتى فيها أبوه، رحمها الله تعالى، وقال فيه أبو بكر الخلال: راوي الفقه الحنبلي، سمع من أبيه مسائل كثيرة، وكان الناس يكتبون إليه من خراسان، يسأله لهم عن المسائل، أي أنهم كانوا يكتبون إليه ليسأل أباه عن المسائل، ويرسل إليهم بالأجوبة التي يتلقاها عنه، وبهذا كان طريقاً لنشر فقه أبيه في حياته، ومن بعده..

ويظهر أن ولايته القضاء التي اضطرته الحاجة إليها، والتي خالف بقبولها منهاج أبيه؛ كانت خيراً، فقد استطاع فيها أن يطبق فقه أبيه، عملاً بالقضاء، وقد كان من قبل نظرياً لم تصقله التجربة، وإذا كان مذهب أحمد هو السنة، أو ما اشتق منها، فقد كان القضاء به قضاء بعلم السنة غضاً كاملاً..

تلقى صالح الفقه والحديث عن أبيه، وعن غيره من معاصريه، وعُدَّ راوي الفقه الحنبلي، وطريقاً لنشر فقه أبيه، ولعلّ أول تجربة في القضاء طُبِّق فيها فقه أحمد كانت على يد ولده صالح حين ولي القضاء..

٣ عبد الله بن أحمد

ولد عبد الله في جمادى الأولى سنة ٢١٣هـ، وكان لأحمد عناية بتربيته كأخيه صالح، ويُكنى عبد الله بأبي عبد الرحمن، وكان يقص الأخبار المرتبطة بحياة والده –شأنه في ذلك شأن أخيه صالح- أما من ناحية العلم فعبد الله أوفر حظاً، وأرفع قدراً من صالح، وكان أحمد يرى فيه عناية خاصة بعلوم الحديث وأسانيده، فنماها فيه، وشجعه على الاستمرار فيها، ويقول: "ابني عبد الله محظوظ من علم الحديث، لا يكاد يذاكرني إلا بما لا أحفظ"..

وقد روى عبد الله عن أبيه، وعن كثيرين غيره، ولذلك كان يذاكره فيما حفظه عن غيره، وإذا كان أخوه صالح قد عني بنقل فقه أبيه ومسائله، ورويت عنه مسائل جياد، كما قال أبو بكر الخلال؛ فقد كانت عناية عبد الله متجهة إلى رواية حديث أبيه، وروى المسند وتممه، فزاد فيه ما رأى زيادته، وهو صاحب الزوائد على كتاب الزهد الذي كتبه أبوه..

يشهد أحمد لابنه عبد الله بأنه محظوظ من علم الحديث، وكان رأى فيه عناية خاصة بعلوم الحديث؛ فنماها، وشجعه على الاستمرار فيها، فروى المسند عن أبيه، ورتبه وزاد فيه، وهو صاحب الزوائد على كتاب الزهد لأبيه..



الإمام أحمد يشجع ابنه عبد الله على العناية بعلوم الحديث

المكانة العلمية

يقول ابن المنادى في شأن عبد الله: لم يكن في الدنيا أحد أروى منه عن أبيه؛ لأنه سمع المسند وهو ثلاثون ألف حديث، والتفسير وهو مائة ألف وعشرون ألفاً، سمع منها ثمانين ألفاً والباقي وجادة، وسمع الناسخ والمنسوخ، والتاريخ، وحديث شعبة، والمقدم والمؤخر في كتاب الله تعالى، وجوابات القرآن، والمناسك الكبير، والصغير، وغير ذلك من التصانيف، وحديث الشيوخ..

ويمضي ابن المنادى في التعريف بالمكانة العلمية لعبد الله قائلاً: وما زلنا نرى أكابر شيوخنا يشهدون له بمعرفة الرجال، وعلل الحديث، والأسماء والكنى، والمواظبة على طلب الحديث في العراق وغيرها..

لم يكن أحد في الدنيا أروى منه عن أبيه، هكذا يقول ابن المنادى في شأن عبد الله، وشهد له أكابر الشيوخ بمعرفة الرجال، وعلل الحديث، والأسماء والكنى..

في المقدمة

وكان عبد الله بالإضافة إلى ذلك لا يكتب عن أحد، إلا من أمره أبوه بالكتابة عنه، وكل ذلك يجعل من عبد الله واحداً من القمم الشامخة، والينابيع الثرة، والمصادر الصادقة للفقه الحنبلي، ولقد كان كذلك بالفعل..

لعل عبد الله بن أحمد يجيء في مقدمة أبناء الأئمة إذا ما قورن بهم، فلقد كان حماد بن أبي حنيفة صادقاً نابهاً، ولقد كان عبد الله بن الإمام الشافعي كذلك، ولكن عبد الله بن أحمد كان من العلم والفضل بحيث يرجحهما، ولقد صدق أبو بكر الخلال حين قال: كان عبد الله رجلاً صالحاً، صادق اللهجة، كثير الحياء..

وكانت وفاته ببغداد سنة ٢٩٠هـ، عن سبعة وسبعين عاماً، وصلى عليه زهير ولد أخيه صالح، وشيَّعته بغداد تشييعاً يليق بمقامه ومقام أبيه..

إن عبد الله يجيء في مقدمة أبناء الأئمة إذا ما قورن بهم، فكان واحداً من القمم الشامخة، والينابيع الثرة، والمصادر الصادقة للفقه الحنبلي، توفي سنة ٢٩٠هـ عن سبعة وسبعين عاماً..



عبد الله ابن الإمام أحمد ويظهر انشغاله بالعلم

٤ أبو بكر الأثرم

إنه أحمد بن محمد بن هانئ الطائي، أبو بكر الأثرم، وهو واحد من أنجب تلاميذ الإمام، وأكثرهم تشبهاً به في الزهد، والتوقف عن الكلام إلا فيما دعت الضرورة إليه، صحب الإمام أحمد وتفقه عليه، ونقل عنه، وكتب في ذلك الكثير المفيد..

قال عنه الخلال: كان معه تيقظ عجيب جداً، وكان الأثرم قد روى عن شيوخ الحفاظ، ومن بين مَنْ روى عنهم أبو بكر بن أبي شيبة، فجاءه رجل طلب منه أن يكتب له من كتاب الصلاة ما ليس في كتب ابن أبي شيبة، فكتب له في ذلك ستمائة ورقة من كتاب الصلاة، ليس فيها شيء من الكتاب المذكور..

أبو بكر الأثرم، أحمد بن محمد، من أنجب تلاميذ الإمام أحمد، وأكثرهم تشبهاً به، صحب الإمام وتفقه عليه، ونقل عنه، وكان معه تيقظ عجيب جداً..



أبو بكر بن الأثرم تلميذ الإمام أحمد

اتّسمَ بِسماتِها

وكان الأثرم في بداية أمره يحفظ الفقه والخلاف، فلما التحق بمدرسة الإمام أحمد، أخذ بتقاليدها، واتسم بسماتها، ونهج على طريق شيخه من زهد وورع وتقوى، وكان يقول في شيخه: "أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ستر من الله على أصحابه، فينبغي لأصحاب أحمد أن يتقوا الله ولا يعصوه مخافة أن يعيّروا بأحمد"..

لقد كتب الأثرم كثيراً من فقه الإمام أحمد، وروى كثيراً من أحاديثه، وهو القائل عن الإمام بأن قراءة القرآن بالألحان بدعة، إلا أن يكون صوت الرجل لا يتكلفه، كما أنه روى عن الإمام أحمد جواز المسح على العمامة في الوضوء، وإغنائه عن المسح على الرأس، قال: "سمعت أبا عبد الله سُئل عن المسح على العمامة، قيل: تذهب إليه؟ قال: نعم، من خمسة وجوه عن النبي ﷺ"..

وأبو بكر الأثرم هو ناقل رأي الإمام أحمد في أن المضمضة والاستنشاق ركنان من أركان الوضوء..

لما التحق الأثرم بمدرسة الإمام أحمد، أخذ بتقاليدها، واتّسم بسماتها، ونهج على طريق شيخه، وكتب كثيراً من فقهه، وروى كثيراً من أحاديثه..

٥ عبد الملك الميموني

عبد الملك بن عبد الحميد بن ميمون بن مهران الجزري، ولد سنة ١٨١هـ، وذكر رواة الأخبار أنه توفي سنة ٢٧٤هـ، وهو صاحب المكانة المتميزة في مجلس أحمد وفي قلبه، وقد قال فيه أبو بكر الخلال: "الإمام في أصحاب أحمد، جليل القدر، كانت سنهُ يوم مات دون المائة، فقد كان أحمد يكرمه، ويفعل معه ما لا يفعل مع غيره، وقال لي: صحبتُ أبا عبد الله على الملازمة، من سنة خمس ومائتين إلى سنة سبع وعشرين ومائتين، وكنتُ بعد ذلك أخرج وأقدم عليه الوقت بعد الوقت، فكان أبو عبد الله يضرب بي مثل ابن جريج بن عطاء من كثرة ما أسأله، ويقول لي: ما أصنع بأحد ما أصنع بك.. وعنده من أبي عبد الله مسائل كثيرة في ستة عشر جزءاً، وجزأين كبيرين عنده بخط جليل، مائة ورقة، إن شاء الله تعالى، ونحو ذلك لم يسمعه منه أحد غيري، فيما علمت، ومنه مسائل لم يشركه فيها أحد، كبار جياد، تجوز الحد في عظمها وقدرها وجلالها"..

وكان الميموني حسن الكتابة عن أحمد، وكان الإمام يحترمه ويستحيي منه، فلا ينهاه عن الكتابة كما كان ينهى غيره، ومن ثم فقد جمع من فقه الإمام وكتب من مسائله، ما قد شكّل منبعاً صافياً وفير العطاء من فقه المذهب الحنبلي..

الميموني هو صاحب المكانة المتميزة في مجلس أحمد وفي قلبه، لزم الإمام أحمد فترة طويلة، وكان أحمد يكرمه ويحترمه ويستحيي منه، فلا ينهاه عن الكتابة كما كان ينهى الآخرين، وقد قُدِّر ما جمعه من مسائل الإمام ستة عشر جزءاً، شكّلت منبعاً صافياً، وفير العطاء من فقه المذهب الحنبلي..

عبد الملك الميموني تلميذ الإمام أحمد

٦ أبو بكر المروذي

أحمد بن محمد بن الحجاج، هو ألصق أصحاب أحمد به، وأقرب تلامذته إليه، وأكثرهم حيازة لثقته، إنه يقول: كان أبو عبد الله -يعني الإمام- يبعث بي في الحاجة، فيقول: كل ما قلتَ على لساني فأنا قلتُه، وكان الإمام يأنس به، ويرتاح إليه، وقد قام على خدمته ومصاحبته حتى انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى، فكان هو الذي غمض عينيه وقام على غسله، ولقد صحب المروذي الإمام أحمد في كل الظروف التي مرت به، كان يراقبه إبان المحنة، وقلبه يتمزق ألماً على شيخه وأسى لأستاذه..

ولقد قيل في فضل المروذي أخبار كثيرة، قال إسحاق بن داوود: لا أعلم أحداً أقوم بأمر الإسلام من أبي بكر المروذي، يقصد علمه..

وقال عنه أبو بكر بن صدقة برواية الخلال: ما علمتُ أحداً كان أذب عن دين الله منه..

كان المروذي بحراً من العلم، وكان عنده أكثر كتب الإمام أحمد، وبخاصة كتب الورع، وهو من أنفس ما كتب الإمام، وحين توفي المروذي ببغداد سنة ٢٧٥هـ، نهضت بغداد لتشييعه، وتولى الصلاة عليه هارون بن العباس الهاشمي، ودُفن قريباً من قبر شيخه ابن حنبل..

كان المروذي بحراً من العلم، وهو من أخصّ أصحاب أحمد به، وأقربهم إليه، قام على خدمته ومصاحبته، حتى انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى، وتولى هو غسله، وقد روى فقهاً كثيراً، وكان عنده أكثر كتب الإمام أحمد..

أبو بكر المروذي أقرب تلاميذ الإمام أحمد إلى قلبه

٧ إبراهيم بن إسحاق الحربي

إذا كان كل أصحاب أحمد بن حنبل متميزين بالعلم والفضل والورع والزهد، فإن إبراهيم الحربي كان أكثر تميزاً وأعمق ثقافة، وأوسع شمولاً، فقد كان فقيهاً، حافظاً، محدثاً، زاهداً، أديباً، شاعراً، لغوياً، نحوياً، صاحب أخبار ونوادر، وهو إلى ذلك يمتلك مكتبة تضم اثني عشر ألف كتاب..

وأصل إبراهيم من مرو، وأمه عربية تغلبية، وأخواله من نصارى تغلب، ولقّب بالحربي نسبة إلى منطقة الحربية ببغداد، كما كان يلقب المروذي أيضاً نسبة إلى مرو..

وكان إبراهيم بن إسحاق الحربي صاحب بسطة في العمر والعمل، فقد عاش سبعة وثمانين عاماً، ولد سنة ١٩٨هـ، وتوفي سنة ٢٨٥هـ..

إبراهيم بن إسحاق الحربي من أكثر أصحاب أحمد تميزاً، وأعمقهم ثقافة، وأوسعهم شمولاً، أصله من مرو، وكان صاحب بسطة في العمر والعمل، عاش سبعة وثمانين عاماً..

إبراهيم الزاهد

كان إبراهيم الحربي من أبناء الأغنياء الذين باعوا ما يملكون، وأنفقوه في طلب الحديث، يذكر إبراهيم ثروته فيقول: قطائعنا في المراوزة، كان لي فيها اثنتان وعشرون داراً وبستاناً فبعتها وأنفقتها على الحديث، وورثتُ من خال لي بجولايا -قرية كانت بنواحي النهروان- عشرين ومائة جريب فيها رطبة، فلم أفرغ لها، ولا ذهبت لآخذ منها أصلاً ولا فرعاً..

مع هذه الحال من اليسار والغنى آثر إبراهيم أن ينفض عن نفسه كواهل الثروة، وعبء المال، وعاش للعلم بفروعه، ونزع إلى الزهد، فصار كما قال محمد بن صالح القاضي: لا نعلم أن بغداد أخرجت مثل إبراهيم بن إسحاق الحربي في الأدب والفقه والحديث والزهد..

وكان إبراهيم يهذب نفسه بالحرمان، ويروضها على الزهد في كل ما يشتهي..

آثَرَ إبراهيم أن ينفض عن نفسه كواهل الثروة، وعبء المال، فمع ما كان عليه من الغنى واليسار، إلا أنه نزع إلى الزهد، وعاش للعلم، وأنفق كل ما يملك في طلب الحديث..

على نهج شيخه

إن إبراهيم الحربي قد نهج منهج شيخه ابن حنبل في رفض هدايا الخلفاء، والامتناع عن أخذ صلات الناس امتناعاً كاملاً، جاء رجل من أصحاب الخليفة المعتضد إليه بعشرة آلاف درهم، بعثها الخليفة إليه، فردّها، فانصرف الرسول ثم عاد، فقال له: إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرّق المال في جيرانك، فقال إبراهيم: عافاك الله، هذا مال لم نشغَل أنفسنا بجمعه، فلا نشغلها بتفرقته، قل لأمير المؤمنين: إن تركتَنا، وإلا تحولنا من جوارك..

وقد ردّ هدية من المعتضد، قدرها ألف دينار، وهو وأهله في حال من الجوع تُعَدُّ من المخمصة..

نَهَجَ إبراهيم منهج شيخه ابن حنبل في رفض صِلات الحكام والخلفاء، ويعيدها إليهم إذا بعثوا بها إليه، فهذا المعتضد يرسل إليه مرة عشرة آلاف درهم، ومرة ألف دينار، فيردها؛ رغم حاجته الماسّة إليها..

من رجال التربية

و إبراهيم الحربي أحد رجال التربية الإسلامية، بما يصدر عنه من قول وفعل، قال إبراهيم لجماعة عنده: مَنْ تعدّون الغريب في زمانكم هذا؟ فقال واحد منهم: الغريب مَنْ نأى عن وطنه، وقال آخر: الغريب مَنْ فارق أحبابه، وقال كل واحد منهم شيئاً مما يعتقد في تعريف الغريب، فقال لهم إبراهيم: الغريب في زماننا رجل صالح، عاش بين قوم صالحين، إن أمر بالمعروف آزروه، وإن نهى عن المنكر أعانوه، وإن احتاج إلى سبب من الدنيا مانوه، ثم ماتوا وتركوه..

ومن وسائل التربية الإسلامية التي كان يعمد إليها إبراهيم الحربي ما رواه محمد بن بنان العكي، قال: حضرت مع أبي وأخي عند أبي إسحاق الحربي، فقال لأبي: هؤلاء أولادك؟ قال: نعم، قال: احذر، لا يَرَوْنَك حيث نهاك الله، فتسقط من أعينهم..

إبراهيم أحد رجال التربية في قوله وفعله، قال عن الغريب، بعد أن سأل أصحابه عنه: هو مَنْ عاش في قوم صالحين.. ثم ماتوا وتركوه، فهو غريب بعد مفارقته الصالحين وحذّر أحدهم أن يراه أولاده حيث نهاه الله، فيسقط من أعينهم..



إبراهيم بن إسحاق الحربي العالم الزاهد

المكانة العلمية

لقد طالت مصاحبة إبراهيم الحربي لأحمد نحواً من عشرين سنة، وكان يقول عن شيخه الإمام: كل شيء أقول لكم هذا قول أصحاب الحديث، فهو قول أحمد بن حنبل، هو ألقى في قلوبنا مذ كنا غلماناً اتِّباع حديث رسول الله ﷺ، وأقاويل الصحابة، والاقتداء بالتابعين..

وكان إبراهيم شيخاً في الفرائض على زمن أستاذه ابن حنبل، وكان الإمام يوجِّه الدارسين إليه، وفي مقدمتهم ولده عبد الله، إن عبد الله بن أحمد يقول: كان أبي يقول: امضِ إلى إبراهيم الحربي حتى يُلقي عليك الفرائض..

وقد كان الحربي لغوياً بشهادة علماء اللغة، وبخاصة المبرِّد وثعلب؛ رأسي مدرستي البصريين والكوفيين، وكان أبو العباس ثعلب يقول: ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة أو نحو خمسين عاماً..

هكذا كانت شخصيَّة إبراهيم بن إسحاق الحربي أبي إسحاق، الذي كان مصدراً من مصادر الفقه الحنبلي، ونبعاً من ينابيع مسائله، ولقد ترك مؤلفات كثيرة منها: كتاب سجود القرآن، كتاب مناسك الحج، كتاب الهدايا والسنَّة فيها، كتاب الحمَّام وآدابه، كتاب غريب الحديث، كتاب دلائل النبوة، كتاب ذم الغيبة، كتاب النهي عن الكذب، وعدداً كبيراً من البحوث في علوم اللغة، كما خلَّف عدداً كبيراً من المسانيد، في مقدمتها مسانيد الخلفاء الراشدين والصحابة..

امضِ إلى إبراهيم الحربي حتى يُلقي عليك الفرائض، هكذا كان أحمد يقول لابنه عبد الله، وهكذا بلغت مكانة إبراهيم عند أستاذه، فيوجِّه الدارسين إليه، وكان إبراهيم عالماً في اللغة، وهو مصدر من مصادر الفقه الحنبلي، وله مؤلَّفات كثيرة..

٨ حرب الكرماني

حرب بن إسماعيل الحنظلي الكرماني، ابتدأ حياته سالكاً مسلك الصوفية التي سادت في ذلك العصر ولذلك تأخَّر في لقاء أحمد، فلم يلقه إلا في سن متقدمة، وقد سأله أبو بكر الخلال عن سبب تأخره في لقاء أحمد، فأجاب: "كنتُ أتصوف قديماً، فلم أتقدم في السماع"..

وقد كانت بينه وبين المروذي مودة، وقد أنزله في بيته عندما جاء للقاء أحمد، والمروذي هو الذي حرَّض تلميذه الخلال على السفر إليه والسماع منه، ونقل مسائل أحمد عنه، قال الخلال في وصفه: "رجل جليل القدر"..

وقد نقل عن أحمد فقهاً كثيراً، ولكنه لم يسمع منه كل ما أذاع عنه، حتى أن الخلال قال: إنه حفظ أربعمائة مسألة عن أحمد وإسحاق بن راهويه قبل أن يستمع إليهما..



حرم الكرماني أحد تلاميذ الإمام أحمد

حرب بن إسماعيل الكرماني، تأخَّر في لقاء أحمد، وقال عن سبب ذلك: كنتُ أتصوف قديماً، فلم أتقدم في السماع، سمع منه الخلال، ونقل مسائل أحمد عنه، وقال فيه: رجل جليل القدر..



الباب الرابع

أصول المذهب وخصائصه





الباب الرابع

أصول المذهب وخصائصه

الفصل الأول



مذهب الإمام

- فقه أحمد
- الفقه التقديري
- أساس فقهه

١ فقــه أحمــد

عاش الإمام أحمد حياته المباركة كلها في رحاب حديث رسول الله ﷺ، آخذاً حافظاً كاتباً، جامعاً، مرتحلاً، محدِّثاً، ثم مؤلِّفاً "المسند" الذي يُعتبر أحد الكتب العمدة في حديث رسول الله ﷺ، ومن ثم فإن الإمام أحمد قد دخل إلى ساحة الإمامة، ودلف إلى باحة الفقه من باب الحديث الشريف، وإمامٌ هذه وسيلته يكون فقهه فقه أثر، وليس فقه رأي، وهو يقرر ذلك النهج مؤكداً عليه بقوله: "ما أجبتُ في مسألة إلا بحديث رسول الله ﷺ إذا وجدتُ السبيل إليه، أو عن الصحابة"..

ومن الحقائق المقررة عند أئمة المذاهب جميعاً أن الصحابة مصدر أساسي من أصول الفقه، وعلى آرائهم تدور الفتيا؛ فقد عايشوا الرسول ﷺ ومنه تعلموا، وعنه تلقوا، وعلى نهجه ساروا..

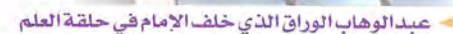
دَلَف أحمد إلى باحة الفقه، ودخل إلى ساحة الإمامة؛ من باب الحديث الشريف، فكان فقهه فقه أثر، وليس فقه رأي، فلا يجيب في مسألة إلا بحديث رسول الله ﷺ إن وُجد، أو عن الصحابة..

اشتهاره بالسنَّة

يروي العليمي أن عبد الوهاب الورَّاق تلميذ الإمام أحمد وخليفته في حلقته، يصف طريقة الإمام في الإجابة عن المسائل والإفتاء فيها، إذا ما سُئل، فيقول: "ما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل، فقالوا له: وأي شيء بان لك من فضله؟ فقال: رجل سُئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها: حدثنا وأُخبرنا"..

وهذا العدد وإن كان فيه شيء من المبالغة، فإنه يدل على أن أحمد سُئل عن مسائل كثيرة جداً؛ إذ اشتهاره بالسنة والعلم بها، مع الأمانة والدين والورع، وصبره على البلاء في اعتقاده، جعله مقصوداً بالاستفتاء من كل البقاع الإسلامية، فقد كانت خراسان وما وراءها، والعراق وفارس، وما حولهما، لا يجدون مؤتَمَناً على الفتوى في عصره مثله..

سُئل أحمد عن مسائل كثيرة جداً، لاشتهاره وعلمه، ومكانته بين الناس، فكانوا يقصدونه للفتوى من كل البقاع الإسلامية..


عبد الوهاب الوراق الذي خلف الإمام في حلقة العلم

من مشكاة واحدة

كان أحمد يعتمد في فتاويه على أحاديث وأخبار وآثار عن السلف الصالح رضي الله عنهم، وكان علمه بذلك واسعاً مستفيضاً، وثروته في علم الرواية كانت كبيرة جداً، فكانت تمده بما تقتضيه الفتوى، يفتي بقول الرسول ﷺ وأقضيته، وفتاوى الصحابة ما لا يعلم فيه خلافاً، ويختار مما اختلفوا فيه، وإن وجد الصحابة مختلفين، ولم يجد سبيلاً للترجيح، ترك المسألة ذات قولين، وإن لم يجد فتوى الصحابي، استأنس لرأيه بقول تابعي، أو بقول فقيه من الفقهاء الذين اشتهروا بعلم الأثر، كمالك والأوزاعي وغيرهما، وهو في ذلك غير مقلد، بل هو مجتهد لا يريد أن يكون مبتدعاً، وما انفرد فيه بالاجتهاد ليس بالقليل، قال ابن القيّم في اجتهاده: "إن المخالفين لمذهبه بالاجتهاد، والمقلدين لغيره، ليعظمون نصوصه وفتاواه، يعرفون لها حقها وقربها من النصوص وفتاوى الصحابة، ومَنْ تأمل فتاويه وفتاوى الصحابة، رأى مطابقة كل منهما على الأخرى ورأى الجميع كأنها تخرج من مشكاة واحدة، حتى أن الصحابة إذا اختلفوا على قولين، جاء عنه: في المسألة روايتان"..

إن المتأمل في فتاوى أحمد، وفتاوى الصحابة، رأى مطابقة كل منهما على الأخرى، ورأى الجميع كأنها تخرج من مشكاة واحدة، فهو يفتي بقول الرسول ﷺ وأقضيته، وفتاوى الصحابة، فإن لم يجد استأنس بقول تابعي، أو أحد فقهاء الأثر..

٢ الفقه التقديري

ولحرص أحمد في فقهه أن يكون بعيداً عن الابتداع في الدين؛ كان لا يفتي إلا فيما يقع من الأمور؛ لأن الفتوى بالرأي لا يُصار إليها إلا عند الضرورة، ولا ضرورة تلجئ إلى الإفتاء فيما لا يقع في المسائل، إلا إذا كان في ذلك سنة أو فتوى صحابي، فإن الفتوى في هذه الحال ليست فتوى بالرأي، بل هي نشر لعلم السلف، وقد كانت فتواهم في أمور واقعة؛ ولذلك لم يكن عنده الفقه التقديري الذي أكثر منه أبو حنيفة وتلاميذه، وقد وجد مثله في كتب الشافعي، فإنك ترى فروضاً كثيرة في المروي من كتبه؛ وذلك لاختبار أقيسته التي كان يضعها، والتي عدّ بها أول ضابط للقياس راسم لحدوده..

والفقه التقديري له مزاياه إذا لم يكن ثمة إفراط فيه، وذلك وقع من المتأخرين من أتباع الأئمة القياسيين، أما الفقه الحنبلي فلتجنب إمامه الفقه التقديري، واجتهاده في أن يكون فقهه أثراً أو كالأثر، لم يُفت إلا في الواقع، ولما فرّع أتباعه من بعده الفروع على مذهبه وقواعده، التي استنبطوها؛ كان لا بد من الفرض والتقدير، لأن التفريع والفقه لا يتم إلا بذلك، ولذلك سلكوا مسلك التقدير والفرض من غير أن يفرطوا ويوغلوا..

تجنّب أحمد الفقه التقديري، واجتهد في أن يكون فقهه أثراً، فلم يكن يفتي إلا فيما يقع من الأمور، ولكن الفقه التقديري له مزاياه إذا لم يكن فيه إفراط، ولذلك لما فرّع أتباعه من بعده الفروع، كان لا بد من الفرض والتقدير..

٣ أساس فقهه

إن اعتماد أحمد على الآثار في فقهه لا يخرج عنها إلا وهو مستضيء بضوئها، لا يعني أن فقهه كان جامداً، أو بعيداً عن حاجة الحياة والأحياء، فإن الواقع غير ذلك، لأنه قد وجد في العبادات ما يسعفه بالنصوص الكاملة، وإن الأقيسة في العبادات لا يتسع لها الضمير الديني، كما يتسع للأقيسة في المعاملات، فكان الاستمساك بالآثار في العبادات يسير على ما ينبغي أن يكون عليه العالم الديني، أما في المعاملات الدنيوية فقد كان في التحريم والتأثيم يستمسك أشد الاستمساك بالنصوص والآثار، حتى لا يحرم ما أحل الله، ثم يترك الأمور التي لم يقم فيها دليل على التحريم، على الإباحة، أو في مرتبة العفو، أو بعبارة أدق: ما حرّمه الله يثبت تحريمه، وما أحله الله بالنص أو علم عن طريق السلف أو الرأي أنه أحله حكم بتحليله، وما لم يقم دليل من نص على حرمته أو حله، فهو في مرتبة العفو، لا إثم فيه..

ليس في العبادات قياس، بل استمساك بالآثار، أما في المعاملات الدنيوية؛ فكان أحمد في التحريم يستمسك بالنصوص والآثار أشد الاستمساك، ويترك الأمور التي لم يقم فيها دليل على التحريم، على الإباحة، أو في مرتبة العفو..

أوسع المذاهب

قال ابن قيم الجوزية في تقرير هذه الحقيقة: "والأصل في العبادات البطلان، حتى يقوم دليل على الأمر، والأصل في العقود والمعاملات الصحة، حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم، والفرق بينهما: أن الله سبحانه وتعالى لا يُعبَد إلا بما شرعه على ألسنة رسله، فإن العبادة حقه على عباده، وحقه الذي أحقَّهُ هو ورضي به وشرعه، وأما العقود والمعاملات فهي عفو حتى يحرمها، ولهذا نعى الله سبحانه وتعالى على المشركين مخالفة هذين الأصلين، وهو تحريم ما لم يحرمه، والتقرب بما لم يشرعه، وهو سبحانه لو سكت عن إباحة ذلك وتحريمه لكان ذلك عفواً، لا يجوز الحكم بتحريمه وإبطاله، فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه، وما سكت عنه فهو عفو"..

وقد كان ذلك الأصل الموسع -وهو جَعْلُ معاملات الناس على أصل العفو أو الإباحة، حتى يقوم الدليل من الشارع على التحريم- سبباً في أن كان المذهب الحنبلي أوسع المذاهب في إطلاق حرية التعاقد، وفي الشروط التي يلتزم بها العاقدان، فأقرّ من الشروط ما لم يقره غيره من الفقهاء، وسار في ذلك على منهاج أساسه احترام كل ما يشترطه العاقدان، والإلزام به، حتى يقوم دليل من الشارع على تحريم ذلك الاشتراط، أو بطلان الحقيقة الشرعية التي تتكون منه..

الأصل في العبادات البطلان، حتى يقوم دليل على الأمر، والأصل في العقود والمعاملات الصحة، حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم، وما سكتَ عنه فهو عفو، إن هذا الأصل يعطي الفقه الحنبلي صفة الحركة والمرونة اللتين تحلان أكثر مشاكل العصور والأمم، ويجعل المذهب الحنبلي أوسع المذاهب في بعض المعاملات..



الباب الرابع

أصول المذهب وخصائصه

الفصل الثاني

المصادر الفقهية

- الكتاب
- السنة
- فتوى الصحابي
- القياس
- مصادر فرعية

تعريف عام

يُجمل الإمام أحمد مصادر فقهه في قوله هذا الذي يعرِّف فيه بالدين، ومن ثم بالمصادر الأساسية التي منها تستقى الأحكام الفقهية:

"الدين إنما هو كتاب الله عز وجل، وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة، يصدق بعضها بعضاً حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، والتابعين، وتابعي التابعين، ومن بعدهم الأئمة المعروفين المُقتدى بهم، المتمسكين بالسنة، والمتعلقين بالآثار، لا يعرفون بدعة، ولا يُطعَن فيهم بكذب، ولا يرمون بخلاف، وليسوا بأصحاب قياس ولا رأي؛ لأن القياس في الدين باطل، والرأي مثله، وأبطل منه، وأصحاب الرأي والقياس مبتدعة ضلال، إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة"..

يعرِّف أحمد بالمصادر الأساسية التي استقى منها فقهه، فهي: الكتاب، والآثار والسنن والروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة والتابعين وتابعيهم، والأئمة المتمسكين بالسنة، ويبطل الرأي والقياس، إلا إذا كان فيه أثر عن السلَف..

١ الكتـاب

المصدر الأول من المصادر التي استقى منها أحمد فقهه؛ القرآن الكريم، اعتماداً على قوله تعالى:

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: من الآية٣٨)

وأن القرآن الكريم هو عمود هذه الشريعة، وأصلها، وينبوعها الأول، وبه التعريف العام لها، وفيه قواعدها، والأحكام التي لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، والتي تعمّ بأحكامها الناس جميعاً، ولا يخص فريقاً دون فريق، وبه الأحكام الكلية، وبيان العقيدة الإسلامية الصحيحة، وفيه الحجة القائمة على صحة هذا الدين المتين..

ولأنه الينبوع الأول للشريعة الإسلامية؛ عني العلماء قديماً بدراسته، وطرق استخراج الأحكام من عباراته وإشاراته، وظاهره ونصه، كما اجتهدوا في طريقة تأويل متشابهه، وتفصيل مجمله، وتبيين ما عساه يحتاج إلى بيان منها، وبيان عامّه وخاصّه، وناسخه ومنسوخه، وطريق نسخه، و كيف يكون إن وقع، وقد اختلف العلماء تحت ظلّه في هذا، واتفقوا جميعاً على أنه المصدر الأول لكل شرائع الإسلام، لا يختلفون في ذلك..



اتفق العلماء جميعاً -ومنهم أحمد- على أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لكل شرائع الإسلام، فهو عمود هذه الشريعة وأصلها، وينبوعها الأول، ولذلك عُني العلماء بدراسته، وطرق استخراج الأحكام منه..

٢ السنــة

لقد قرَّر أحمد رضي الله عنه في كلام كثير من المأثور عنه: أن طلب علم الكتاب يكون عن طريق السنة، وأن طلب هذا الدين يكون عن طريق السنة، وأن السبيل المعبّد لطلب فقه الإسلام وشرائعه الحق يكون عن طريق السنة، وأن الذين يقتصرون على الكتاب من غير الاستعانة بالسنة في بيانه و تعرف شرائعه، يضلون السبيل، ولا يهتدون إلى الطريق القويم؛ وذلك استناداً إلى قول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: من الآية٥٩)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: من الآية٧)

وقول رسول الله ﷺ: "عليكم بسنتي"..

يقرر أحمد أن طلب علم الكتاب، والدين، وطلب الفقه لا يكون إلا عن طريق السنة، وأن الذين يقتصرون على الكتاب من غير الاستعانة بالسنة، يضلون السبيل..

مرتبة السُّنَّة

إن كون السنة متأخرة عن القرآن اعتباراً واستدلالاً، أمر لا مرية فيه ولا اختلاف عند أهل النظر، وإنما موضع النظر هو في كون استخراج الأحكام من القرآن لا بد فيه من السنة، إذ هي بيانه، وأنه من حيث دلالته على فيه من أحكام، تعتبر هي المبينة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: من الآية٤٤)..

إن الحنفية والمالكية يستخرجون الأحكام من الكتاب، ويعرضون آحاد الأحاديث على الكتاب، فما كان منها متفقاً مع الكتاب قالوه، وما لا يتفق مع الكتاب، أو يخصص عامّه ردوه، يفعل الحنفية ذلك، ويقع من المالكية ذلك أحياناً، كما كان منهم إذ ردوا ولوغ الكلب في الإناء لمعارضته ظاهر القرآن، وغير ذلك..

أما الشافعية، فيجعلون السنة بياناً للقرآن، فحيثما كان ظاهر القرآن مخالفاً لسنة، لا تُردَ السنة بل تخصص ظاهر القرآن، ويُفهم القرآن عن طريقها، وهي بيانه المبين ومفسره، حتى لقد عبّر بعض الفقهاء عن هذا المعنى، بأن السنة حاكمة على القرآن، من حيث أنها طريق تفسيره، والسبيل لبيانه، وإنها تفصل مجمله، وتبين الناسخ من المنسوخ من القرآن، وتقيد المطلق.. وهكذا..

ولهذا يجعلهما الشافعي في الاستدلال في مرتبة واحدة؛ لأن الثانية مبينة للأول، وإن كان الاعتبار الأول للقرآن..

وإن أحمد بن حنبل ينظر ذلك النظر، ولقد شدّد أحمد في اعتبار السنة النبوية مفسرة تفسيراً صحيحاً للقرآن الكريم، ولم يفرض أن يقع تعارض بين ظاهر القرآن والسنة؛ لأن ظاهر القرآن يُحمل على ما جاءت به السنة، فهي مبينة، وهي الحاكم المفسِّر لما اشتمل عليه من فقه وأحكام..

إن القرآن الكريم ونصوصه مقدَّمة لا شك من حيث الاعتبار على السنّة، أما من ناحية الأحكام، فإن الحنفية والمالكية اعتبروها متأخرة عندهم عن الكتاب، فما لا يتفق مع الكتاب من أحاديث الآحاد ردّوه، وأما الشافعية والحنابلة فيجعلون السُّنّة في مرتبة مساوية، لأن ظاهر القرآن عندهم لا يُقدّم على السنة، فهي مفسرة مبينة له، مفصلة لما أجمله من أحكام، ومقيدة المطلق منها. وعندما يتعمق الفقيه لا يجد تعارضاً بينها.

كتاب في الردّ

ولقد ألّف أحمد بن حنبل كتاباً في الرد على من أخذ بظاهر القرآن، وترك السُّنة، جاء في مقدمة هذا الكتاب:

"إن الله جلّ ثناؤه، وتقدّستْ أسماؤه، بعث محمداً بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأنزل عليه كتابه بالهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسول الله على ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصّه وعامّه، وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب، فكان رسول الله ﷺ هو المعبِّر عن كتاب الله، الدال على معانيه، شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه، واصطفاهم له، ونقلوا ذلك عنه، فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ، وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم، وما قصد له الكتاب، فكانوا هم المعبِّرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ"..

بيّن أحمد في كتابه الذي ألّفه في الردّ على من أخذ بظاهر القرآن، وتَرَك السنة، بين مكانة السنة، وأن رسول الله ﷺ هو المعبِّر عن كتاب الله الدال على معانيه، شاهده في ذلك الصحابة، فكانوا أعلم الناس به، والمعبِّرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ.

أقسام السنّة

لقد قسّم ابن القيم السنة بالنسبة إلى القرآن إلى ثلاثة أقسام، وقال في ذلك: السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها..

الثاني أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له..

الثالث أن تكون موجبة لحكم سكتَ القرآن عن إيجابه، أو محرِّمة لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام..

ابن القيم الجوزية العالم المشهور

فلا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ، تجب طاعته، ولا تحل معصيته، وليس هذا تقديماً على كتاب الله، بل هو امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، وكيف يمكن أحداً من أهل العلم ألا يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله؛ فلا يقبل حديث تحريم زواج المرأة على عمتها، ولا على خالتها، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النَّسَب..

قسّم ابن القيم السنة بالنسبة للقرآن إلى ثلاثة أقسام؛ إما أن تكون موافقة له، أو تكون بياناً وتفسيراً له، أو تكون موجبة لحكم سكَت عنه، أو محرِّمة لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام، ولا تعارض القرآن بوجه ما..

٣ فتوى الصحابي

كان الإمام أحمد يأخذ في فتاواه بفتوى الصحابة، ويجعلها الأصل الثالث لفقهه بعد كتاب الله وسنة رسوله، إن فتوى الصحابي عنده تلي ما قد أُخذ من الحديث الصحيح، ولكنها مقدَّمة على الحديث المرسل..

وليست المجموعة الفقهية المأثورة عن الصحابة قدراً قليلاً، إنما هي قدر كبير، جاء في متنوع الأحداث ومختلف الأقاليم، فكانت جامعاً كبيراً لأحكام جزئية، عالجت أشتاتاً من الحوادث، لأناس تخالفت مشاربهم، وتباينت مسالكهم في الحياة، فمنها ما عالج أحداثاً وقعت في العراق، ومنها عالج ثانية وقعت بمصر أو الشام، ومنها ما عالج أخرى وقعت في فارس، وهكذا..

فكانت ألواناً مختلفة من الغذاء الفكري، وأشكالاً متنوعة من العلاج الاجتماعي..

الأصل الثالث لفقه أحمد بعد الكتاب والسنة: فتوى الصحابي، وهي مقدَّمة على الحديث المرسل، والمجموعة الفقهية المأثورة عن الصحابة هي قدر كبير، جاء في متنوع الأحداث ومختلف الأقاليم..

بين القلة والكثرة

كان الصحابة مختلفين في قدر الفتيا، فمنهم مَن أكثر من الإفتاء، ومنهم مَن كان المأثور من فتواه قليلاً، وأكثرهم فتوى عمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهم أجمعين..

ولقد قال ابن حزم في هؤلاء الصحابة الستة: "ويمكن أن يجمع فتيا كل واحد من هؤلاء مجلد ضخم"..

ومن أصحاب الفتاوى من الصحابة أيضاً، ولكن بقدر أقل: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، ومعاذ بن جبل، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسلمان الفارسي.. وغيرهم.

والسبب في كثرة الفتوى من الأولين: أن بعضهم امتد به الزمن بعد وفاة الرسول ﷺ، وجدَّتْ أحداث كثيرة، فسُئلوا عن أحكامها، فأفتوا بما فهموا من الكتاب، وبما سمعوا من الرسول ﷺ، أو على ضوء هذين الأصلين الكبيرين..

وأكثر أهل الفتيا على الإطلاق من بين الصحابة: عمر وعليّ رضي الله عنهما، لأنهما وليا إمارة المؤمنين، فسُئلا، فأفتيا، وقد نقل ابن سعد في طبقاته عن محمد بن عمر الأسلمي أنه قال: "وإنما كثُرت الفتوى عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، لأنهما وليا، فسُئلا، وقضيا بين الناس، وكل أصحاب رسول الله ﷺ أئمة يُقتدى بهم، ويُحفظ عنهم، ويُستفتون، فيفتون"..

اختلف الصحابة في قدر الفتوى، فمنهم المُقِلُّ منها، ومنهم المكثر، وأكثرهم فتوى على الإطلاق: عمر وعلي رضي الله عنهما، لأنهما وليا إمارة المؤمنين، فسُئلا، فأفتيا، ولأنهما قضيا بين المسلمين، فكَثُرت أحكامهما وفتاواهما..

يعضّ عليها بالنواجذ

تخرج أحمد على تلك المجموعة الفقهية الأثر، التي كانت نوراً يهتدى به، وكانت قبسة نبوية من علم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومن علم أصحابه، فكان يعض عليها بالنواجذ، يرجع إليها في كل ما يُسأل عنه ويستفتى فيه؛ ولذلك كانت أقوال الصحابة وفتاواهم حجة عنده، تلي حجية أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة، وتُقدّم على المرسل من الأحاديث، والضعيف من الأخبار، وقد اتفق العلماء الذين نقلوا فقهه على ذلك، ولم يختلفوا فيه، فكلهم مجمع على أنه كان يأخذ بفتوى الصحابة، ولا يجتهد برأيه، ما وجد في موضوع الفتوى أثراً منقولاً عن صحابي..

وأما إذا وجد الإمام أحمد اختلافاً في فتوى في موضوع بعينه بين صحابي وآخر؛ تخيّر من الأقوال ما كان أقربها إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فإذا لم يتبين له موافقة أي من الأقوال للكتاب والسنة عَمَد إلى ذكر الخلاف، ولم يجزم بقول..

ويأخذ الإمام أحمد بقول الواحد من الصحابة إذا انتشر ولم يعرف له منكر أنكره..

كانت أقوال الصحابة وفتاواهم حجة عند أحمد، يرجع إليها في كل ما يُسأل عنه، ويعض عليها بالنواجذ، وإذا اختلفوا في فتوى، تخيّر الأقرب إلى الكتاب والسنة، وإلا ذكر الخلاف، ويأخذ بقول الصحابي إذا انتشر، ولم يُعرف له مُنكِر..

فتوى التابعي

إن جمهور الفقهاء وإن كانوا يصرحون بأنهم لا يأخذون بفتوى التابعين، باعتبارها أصلاً يرجع إليه، قد يأخذون بفتاوى بعض كبار التابعين، فأبو حنيفة كان يأخذ أحياناً بقول إبراهيم النخعي، من غير أن يعتبر أقوال التابعين أصلاً من أصول الاستنباط، بل صرّح بأنهم رجال، له أن يجتهد كما اجتهدوا..

ومالك رضي الله عنه كان يأخذ أحياناً بقول سعيد بن المسيب، ويزيد بن أسلم، والقاسم بن محمد بن أبي بكر..

والشافعي كان يأخذ أحياناً بقول عطاء..

ويظهر أن هؤلاء كان يستقيم عندهم الدليل المنتج للرأي، ويجدون رأي بعض كبار التابعين المشهود لهم بالفقه والعلم والتقى، فيستأنسون به..

هذه نظرة الأئمة الثلاثة الذين سبقوا أحمد، وتتلمذ لثالثهم، أما أحمد، فإن الروايات قد اختلفت عنه في الاحتجاج برأي التابعي، فرواية تقول: يحتج به، ورواية تقول: لا يحتج به، وفقه التابعي كتفسيره، وكأنه عن أحمد روايتان في فتاوى التابعي، إحداهما تعتبرها حجة يجب الأخذ بها، والثانية: لا يلزم الأخذ بها، وموضع ذلك بلا شك إذا لم يكن في الموضوع نص ولا فتوى صحابي، ولا حديث مرسل، أو غيره مما يكون حجة عند أحمد بالاتفاق..

وهذه الأقوال لا يأخذ بها أحمد على أنها أصل فقهي، بل بالاحتياط والاستئناس، كما هو شأنه في الخبر الضعيف، فقد احتاط فأخذ به، وإن لم يعتبره صحيح النسبة ولم يحكم بصدقه، فأخذ به لأنه أحب إليه من القياس، ولأنه أحوط..

اختلفت الروايات عن أحمد في الاحتجاج برأي التابعي، فرواية تقول: يحتج به، ورواية تقول: لا يحتج به، وهو إن أخذ به فليس على أنه أصل فقهي، بل بالاحتياط والاستئناس..

٤ القيـــاس

القياس في الفقه الإسلامي: إلحاق أمر غير منصوص على حكمه، بأمر آخر منصوص على حكمه لاشتراكهما في الوصف الموجب للحكم..

ويعرِّف ابن تيمية القياس قائلاً: "والقياس لفظ مجمل، يدخل فيه القياس الصحيح، والقياس الفاسد، والقياس الصحيح: هو الذي وردت به الشريعة، وهو الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين، والأول قياس الطرد، والثاني قياس العكس، وهو من العدل الذي بعث الله به رسوله"..

أخذ أحمد بالقياس وقرره كما جاء في الروضة لابن قدامة المقدسي، إذ فيها: أن أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال: "لا يستغني أحد عن القياس"..

وهي كلمة حق بالنسبة للمفتي الذي يتصدى للإفتاء، فإنه مضطر إليه لا محالة، لأن الناس يجدّ لهم من الحوادث ما يقتضي قياس غير منصوص على منصوص، ولا يستطيع الفقيه أن يجد لكل حادثة نصاً من الكتاب أو السنة أو فتاوى الصحابة، وما دام لا يجد شيئاً من ذلك، فإما أن لا يفتي، فيكون الناس في حرج شديد، ولا يعلمون أحكام الدين في أعمالهم، وإما أن يقيس دفعاً للحرج، وإجابة لداعي الإرشاد والهداية، ولا يغني التوقف في هذا فتيلاً..

إن القياس مبدأ لا مناص من الأخذ به؛ لأن أحداث الحياة مستمرة ومتجددة، فكان لا بد للفقيه من الأخذ به، إذ لا يستطيع أن يجد لكل حادثة نصاً من الكتاب أو السنة أو فتاوى الصحابة..

عند الضرورة

أخذ أحمد بالقياس، كما نقل عنه أصحابه، وما كان أحمد مبتدعاً؛ بل كان متبعاً، فإن الصحابة الذين تخرّج على فقههم، وإن باعد بينه وبينهم الزمن، قد أخذوا بالقياس ونُقل عنهم، وكثير من الأحكام التي استنبطوها بنيت عليه، قال ابن القيم: "كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتهدون في النوازل، ويقيسون بعض الأحكام على بعض، ويعتبرون النظير بنظيره.."

ومع أننا نقرر مع الحنابلة أن أحمد كان يأخذ بالقياس، فإننا نقول: إنه ما كان يميل إلى التوسع فيه، بل كان يأخذ به فقط عند الضرورة، وهو في ذلك يسلك مسلك الشافعي، جاء في كتاب الخلال عن أحمد: سألتُ الشافعي عن القياس، فقال: إنما يُصار إليه عند الضرورة، أو ما هذا معناه..

ولأن القياس ما كان يأخذ به إلا للضرورة، أي للاضطرار إلى الإفتاء، وليس ثمة نص يسعفه، ولا فتوى صحابي تعينه، فإنه لا يتجه إلى القياس، وعنده حديث صحيح، أو فتوى صحابي ثابتة، بل كان أحب إليه أن يفتي بالحديث الضعيف عن أن يقيس ويفتي برأيه..

أخذ أحمد بالقياس، لكنه ما كان يميل إلى التوسع فيه، بل يأخذ به فقط عند الضرورة، وهو في ذلك يسلك مسلك الشافعي..

٥ مصادر فرعية

المصادر الفرعية التي جعلها الإمام أحمد صالحة لأن يبني عليها فقه الحنابلة هي: الاستصحاب، والمصالح، والذرائع..

الاستصحاب

هو أصل فقهي، أجمع الأئمة الأربعة على الأخذ به، ولكنهم اختلفوا في مقدار الأخذ، فأقلهم أخذاً به الحنفية، وأكثرهم أخذاً به الحنابلة ثم الشافعية، وبين الفريقين المالكية..

ولكي نفهم الاستصحاب فهماً دقيقاً، فإننا نقدم له أكثر من تعريف لأكثر من فقيه..

يقول ابن قيم الجوزية في الاستصحاب: إنه استدامة إثبات ما كان ثابتاً، ونفي ما كان منفياً، يعني بقاء الحكم على ما هو عليه نفياً وإثباتاً حتى يقوم دليل على تغيير الحالة، فهذه الاستدامة أو بقاء الحكم لا تحتاج إلى دليل إيجابي لبقائها، وإنما تستمر لعدم وجود دليل يستدعي تغييرها..

مثال ذلك: ثبوت الملكية في عين بدليل يدل على شرائها، فإن الملكية تستمر قائمة بدليل هذا الشراء، حتى يوجد دليل يفيد نقل الملكية إلى غيره، ولا يكفي احتمال البيع لزوالها، بل لا بد من قيام دليل عليه..

ومثال آخر: شخص عُلم أنه حيّ في زمن معين، فإنه يغلب على الظن وجوده في الحاضر والمستقبل، ما لم يقم الدليل على موته، فيحكم باستمرار حياته حتى يوجد الدليل الذي يثبت الوفاة، ومن ثم فالقاعدة من خلال الاستصحاب: هي الحكم بحياة المفقود حتى يوجد ما يدل على وفاته، أو توجد أمارات يغلب الظن معها أنه قد توفي..

وقد بيّن الشوكاني معنى الاستصحاب في إرشاد الفحول، فقال: "معناه أن ما ثبت في الزمن الماضي، فالأصل بقاؤه في الزمن الحاضر والمستقبل مأخوذ من المصاحبة، وهو بقاء ذلك الأمر ما لم يوجد ما يغيره، فيقال: الحكم الفلاني كان فيما مضى، وكل ما كان فيما مضى، لم يُظن عدمه، فهو مظنون البقاء"..

الاستصحاب أصل فقهي أجمع الأئمة الأربعة على الأخذ به، والاستصحاب هو بقاء الحكم على ما هو عليه نفياً أو إثباتاً، حتى يقوم دليل على تغيير الحالة..

نتيجته

وعلى ذلك إذا كان الأصل في الشيء الإباحة، فإنها تستمر حتى يقوم دليل على الحظر، وإذا كان الأصل في أمر الوجوب، استمر الوجوب حتى يقوم دليل على عدمه، فإذا كان الأصل في العقود والشروط وجوب الوفاء بها، أخذاً من عموم النصوص الموجبة، فإن ذلك الوفاء ثابت لكل عقد وشرط، مهما يكن، حتى يقوم الدليل على عدم وجوب الوفاء، وإذا كان الأصل في المصالح والمنافع الإباحة، فإن كل أمر فيه منفعة يصح تناولها، حتى يقوم الدليل على حظرها..

وهكذا كان ذلك الأصل في الاستنباط موسعاً في المذهب الحنبلي، وإن كان ذلك المذهب أثرياً نقلياً، يعتمد على اتباع السلف ويشدد في هذا الاتباع، لأنه إن كان يشدد في قبول الدليل المثبت من حيث موافقته للآثار، فهو يشدد أيضاً في قبول الدليل المغير للأحوال الذي يبطل الاستصحاب، وعلى ذلك تكثر أحكام الاستصحاب، ولهذا كان ذلك المذهب الكريم من أقل المذاهب تقييداً، وأوسعها إطلاقاً..

نتيجة العمل بالاستصحاب أنه إذا كان الأصل في شيء الإباحة، فإنها تستمر حتى يقوم دليل على الحظر، وإذا كان الأصل في شيء الحظر، فإنه يستمر حتى يقوم دليل على الإباحة..

وهكذا كان هذا الأصل موسعاً في المذهب الحنبلي، فكان من أقل المذاهب تقييداً، وأوسعها إطلاقاً..

المصالح المرسلة (أي المطلقة)

وهي (المصلحة التي يشرع الشارع حكماً لتحقيقها ولم يدل دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها، وسميت مطلقة لأنها لم تقيد بدليل اعتبار أو إلغاء)..

ومثالها: المصلحة التي شَرَع الصحابة لأجلها اتخاذ السجون، أو ضرب النقود، أو غير هذا من المصالح التي اقتضتها الضرورات، أو الحاجات، أو التحسينات، ولم تشرع أحكام لها..

وقد جاءت الشريعة للتيسير على الناس، وتنظيم حياتهم، والحفاظ على مصالحهم، ومن ثم فقد اهتم الأئمة والفقهاء بمصالح الناس، وجعلوها أصلاً من أصول التشريع، ما لم تكن مخالفة لروح الدين أو نص العقيدة، وإن الأخذ بالمصالح المرسلة، واعتبارها أصلاً فقهياً يبنى عليه الاستنباط في غير مواضع النص، هو الذي يتفق مع اتباع أحمد - رحمه الله - للسلف الصالح في استنباطهم، وعدم الخروج عن طريقتهم، حتى عُدّ تابعياً، وذلك لأن الصحابة الذين اقتدى بهم، وتخرّج على فتاويهم قد كانوا يأخذون بالمصالح المرسلة، ومن أمثلة ذلك:

جمع القرآن في مصحف في عهد أبي بكر رضي الله عنه، لأن المصلحة اقتضت ذلك، واتفاق الخلفاء الراشدين على تضمين الصنّاع؛ ليحافظوا على ما تحت أيديهم، وكان عمر يشاطر الولاة أموالهم لأنه رأى في ذلك صلاح الولاة، ونُقل عنه أنه قَتَل الجماعة بالواحد إذا اشتركوا في قتله، لأن فيه حقناً للدماء وصيانة للمجتمع، وقد نفى عمرُ نصرَ بن حجاج، لأنه سمع بعض النساء يتشبب به.. وغير ذلك..

رأى أحمد - رحمه الله - فتاوى الصحابة التي بنيت على المصالح، وهي كثيرة جداً، ولعلّ أكثر فتاويهم بالرأي كان النظر فيها إلى المصلحة، وإذا كان ذلك الرجل الأثري المتمسك بما عليه السلف يأخذ بفتاويهم المنصوص عليها؛ فهو إذا لم يجد نصاً لهم أخذ بمنهاجهم، واتبع مثل طريقهم، حتى يكون دائماً مستضيئاً بمشكاتهم، وقد أخذوا بالمصلحة سبيلاً من سبيل الفتوى، فحقّ عليه أن يأخذ بها..

أخذ الإمام أحمد بالمصالح المرسلة، واعتبرها أصلاً فقهياً يبنى عليه الاستنباط في غير مواضع النص، وهذا يتفق مع اتباع أحمد للسلف الصالح في استنباطهم، وعدم الخروج عن طريقتهم، وذلك لأن الصحابة الذين اقتدى بهم، وتخرّج على فتاويهم، كانوا يأخذون بالمصالح المرسلة، وقاموا بكثير من جلائل الأعمال التي لم يرد بها نص بنفي أو إثبات..

صلاح المجتمع

أخذ أحمد - رحمه الله - بالمصالح المرسلة في السياسة الشرعية بشكل عام، وهي ما ينهجه الإمام لإصلاح الناس، وحملهم على ما فيه مصلحة، وإبعادهم عما فيه مفسدة، وقرّر رضي الله عنه في ذلك عقوبات في الأخذ بها إصلاح الناس، وإن لم يرد فيها نصوص، لأن العقوبات تكون للناس بقدر ما يحدثون من جرائم، وكل ما يدفع الناس عن شر هذه الجرائم، فهو مشروع ما لم يكن منهياً عنه بصريح النص، وفي مثل هذه الأحوال..

وإن فتاوى أحمد التي هي من قبيل السياسة الشرعية كثيرة، منها نفي أهل الفساد والدعارة إلى بلد يُؤمَن فيه شرهم، ومنها تغليظ الحد على شارب الخمر في نهار رمضان.. وغير ذلك..

ولقد تبع الحنابلة أحمد في ذلك، فأكثروا من الإفتاء في باب السياسة الشرعية، بكل ما فيه مصلحة للرعية، وإقامة للحق والعدل، ورفع الفساد والشر..

أخذ أحمد بالمصالح المرسلة في السياسة الشرعية بشكل عام، وأصدر فتاوى تستهدف صلاح المجتمع وتطهيره من الفساد، وزجر المستهينين بالقيم الأخلاقية، وتبعه في ذلك الحنابلة من بعده، لخدمة المسلمين وتأمين مصالح الناس..

شروط المصلحة

وهكذا نرى الفقه الحنبلي خصباً، إذ أخذ بالمصالح، ونهج فيه الإمام أحمد منهج السلَف، وسار على مثل طريقهم، ولم يعتبر كل مصلحة للأخذ، بل كانوا يقيدونها بقيود شرعية؛ فقد اشترط الحنابلة:

١ - أن تكون المصلحة متفقة مع مقاصد الشارع الإسلامي؛ بأن تكون ملائمة للمصلحة التي أخذ بها السلَف الصالح رضي الله عنهم، وبالأولى لا تنافي أصلاً من أصوله، ولا دليلاً من أدلته، بل تكون متفقة مع المصالح التي قصد الشارع إلى تحصيلها، بأن تكون من جنسها، وليست غريبة عنها، وإن لم يشهد لها دليل خاص..

٢ - ويشترط أن تكون معقولة في ذاتها، جرت على المناسبات المعقولة، التي إذا عرضت على أهل العقول تلقوها بالقبول..

٣ - وأن يكون بالأخذ بها رفع حرج لازم في الدين، فلو لم يؤخذ بالمصلحة في موضعها لكان الناس في حرج، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: من الآية٧٨)..

ليس الأخذ بالمصلحة هكذا على إطلاقه، وإنما لا بد لها من شروط تضبطها وتقيدها، وقد اشترط الحنابلة: أن تكون متفقة مع مقاصد الشرع لا تنافي أصلاً من أصوله، وأن تكون معقولة في ذاتها، وأن يكون بالأخذ بها رفع حرج لازم في الدين..

سد الذرائع

وهي ما يكون وسيلة لأمر، فهو مطلوب بطلبه كالنهي عن البيع عند النداء خشية التخلف عن الجمعة وما شابه ذلك..

وكل ما يكون وسيلة لنهي فهو حرام كحرمته، كالنهي عن التشاحن والتباغض، ويتبعه كل ما يكون وسيلة إليه كالنهي عن بيع بعض على بعض، وأمثال ذلك..

هذا أصل فقهي اعتمده الحنابلة تابعين لإمامهم أحمد، وذلك لأن الشارع إذا طالب بأمر، فكل ما يوصل إليه مطلوب، وإذا نهى عن أمر فكل ما يؤدى إليه منهي عنه، فالذرائع هي الوسائل، وهي تأخذ حكم ما هو ذريعة إليه، طلباً إن كان مطلوباً، ومنعاً إن كان ممنوعاً..

والمذهب الحنبلي أشد المذاهب الإسلامية أخذاً بالذرائع، يقول ابن قيم الجوزية في بيان ذلك الأصل:

"ولما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع بها بحسب إفضائها إلى غاياتها، وارتباطها بها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها، والإذن بها، بحسب إفضائها إلى غاياتها، فوسيلة المقصود بها تالية للمقصود، وكلاهما مقصود، ولكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل، فإذا حرّم الرب شيئاً، وله طرق ووسائل تفضي إليه، فإنه يحرّمها تحقيقاً لتحريمه، وتثبيتاً له، ومنعاً أن يُقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه، لكان ذلك نقضاً للتحريم، وإغراء للنفوس به، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء، بل إن سياسة ملوك الدنيا تأبى ذلك، فإن أحدهم إذا منع جنده أو رعيته، أو أهل بيته، من شيء ثم أباح لهم الطرق والأسباب والذرائع الموصلة إليه لعُدّ متناقضاً، ولحصل من رعيته وجنده ضد مقصوده، وكذلك الأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه، وإلا فسد عليهم ما يرمون إصلاحه، فما الظن بهذه الشريعة التي هي أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال؟!

ومن تأمل مصادرها ومواردها علم أن الله تعالى ورسوله سدّ الذرائع المفضية إلى المحارم، بأن حرّمها ونهى عنها"..

اعتمد الحنابلة وفي مقدمتهم الإمام أحمد، سد الذرائع كأصل فقهي، والذرائع هي الوسائل، وهي تأخذ حكم ما هو ذريعة إليه، فإذا طالب الشارع بأمر؛ فكل ما يوصل إليه مطلوب، وإذا نهى عن أمر فكل ما يؤدي إليه منهي عنه..

الباعث والمآل

إن النظر في الذرائع في المذهب الحنبلي يتجه اتجاهين:

أحدهما: النظر إلى الباعث الذي يبعث الشخص على الفعل، أقصَدَ به أن يصل إلى حرام أم إلى حلال، والنبي ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"..

وثانيهما: أن ينظر إلى المآلات المجردة، ولو كانت النية طيبة، فمَن يسب الأوثان ولو قصد نية حسنة، ولكن أدى ذلك إلى أن يسب المشركون الذات العلية، فإنه يكون ملوماً، ولو كانت نيته حسنة..

وعلى ذلك لا يكون النظر إلى الذرائع يعتمد على النية فقط، بل يعتمد عليها أحياناً، وفي الكثير ينظر إلى المآل ذاته..

وقد أخذ الحنابلة بالأمرين؛ فالأعمال التي تؤدي إلى مفاسد تُمنع، ولو كانت هي ذاتها لا تعد مفسدة، ومَن قَصَد بفعله الشر، ولو أدى فعله إلى غير ذلك، كان مرتكباً إثماً؛ فمَن صوّب سهماً على إنسان نائم ليقتله، فلم يصبه، وأصاب حية بجواره تريد أن تلدغه، فهو آثم أمام الله، ولو كانت النتيجة خيراً..

وفي المذهب الحنبلي أمثلة كثيرة على هذا الأصل..

النظر في الذرائع في المذهب الحنبلي يتجه اتجاهين: النظر إلى الباعث على الأفعال، أقصَدَ به أن يصل إلى حرام أم إلى حلال، والنظر إلى المآلات المجردة، ولو كانت النية طيبة، فالأعمال التي تؤدي إلى مفاسد تُمنع، ولو كانت هي في ذاتها لا تُعدُّ مفسدة..

خاتمة

هذه هي أصول المذهب الحنبلي التي ينسبها الحنبليون إلى إمام دار السلام رضي الله عنه، وكلها ينتهي إلى السنة، وهي كيفما تنوعت، وتفرعت، تنبع من معين واحد، وهو الآثار، فهو إما أن يستقي من الآثار نصاً، فإن لم يجد أثراً يسعفه في قضيته؛ حاكى الأثر في طريقته، فهي مأخوذة منها بالمنهاج، كما أُخذت فروع كثيرة من الآثار بالنص، وهو في كلا الأمرين متبع، ينهج منهاج السلف، أو يقول مقالة السلف..

وبذلك كان في فقهه كله يتبع أهل الأثر، سواء في ذلك ما اجتهد فيه، وما نقل حكمه، فكان آخذاً من مشكاة السلف دائماً في فقهه، وإن ذلك لم يجعل فقهه جامداً، بل جعله خصباً نيراً..



الباب الرابع
أصول المذهب وخصائصه

الفصل الثالث

المؤلَّفات وانتشار المذهب



- كتب الإمام
- نقل الفقه الحنبلي
- نمو المذهب
- انتشار المذهب

١ كُتُب الإمام

كان الإمام أحمد لا يرى وضع الكتب، وينهى أن يُكتب عنه كلامه ومسائله، أي اجتهاده وفتاويه، فعنده أن العلم دين، ودين الله لا يكون برأي أحد، ولهذا لم يجنح إلى تأليف ما لم يكن مستنده الله ورسوله، ولم يكن يرضى أن يكتب في الدين كلام أحد، ومِن ثَم كَرِه أن تُكتب كتب الاجتهاد..

وعلم الله إخلاصه بإصراره أن لا يُنشَر شيء من مسائله وكلامه وفتاويه، فأبقاها الله له الدهر كله، فنَقَل أصحابه عنه ألوف المسائل، وهي مبثوثة في كتب المذهب، ذلك لأنها لا تخرج عن مقصده في أن لا يُنشر إلا الأثَر، فإنه ما كان يفتي إلا بأثر، وقليلٍ من قياس جليٍّ على أثر، ولم تكن مؤلَّفات الإمام إلا من هذا القبيل وما يتعلق به، أو الدفاع عنه..

والكُتُب التي ذُكرت لابن حنبل هي:

كتابه العظيم "المسند"، والتفسير، والناسخ والمنسوخ، وحديث شعبة، والمقدَّم والمؤَخَّر في كتاب الله، وجوابات القرآن، والمناسك الكبير، والمناسك الصغير، وكتاب التاريخ، وكتاب الصلاة وما يلزم فيها، ويتحدث فيه عن أهمية صلاة الجماعة، وأحكام إقامتها على وجهها، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة، وكتاب طاعة الرسول، يبين فيه ما ينبغي اتباعه عندما يبدو الحديث متعارضاً مع بعض الآيات، وكتاب السنة، وقرر أحمد ابن حنبل عقائده فيه، وله مخطوطان لم يطبعا، وهما: "المسند من مسائل أحمد" الذي رواه أبو بكر الخلَّال، وهو مهم في دراسة آراء الإمام السياسية والدينية، و"كتاب الأمر" الذي رواه غلام الخلال، وله كتاب الورع، وفيه ما ينمّ عن شخصية أحمد في زهده وعفته وورعه، وكتاب الزهد، وله كتاب المسائل وهي مشتملة على العقائد والأخلاق والفقه، وله كتاب الأشربة، وله كتاب علل الحديث..

الإمام يقدم لتلميذه كتاب الصلاة

مع نهي أحمد أن يُكتب عنه كلامه ومسائله؛ إلا أن الله عز وجل علم إخلاصه فأبقاهما له الدهر كله، ونقل أصحابه عنه ألوف المسائل، وهي مبثوثة في كُتُب المذهب..

المسند

مسند الإمام أحمد وهو أجَلّ كتاب في عصر المؤلف وما بعده، وهو المورد العذب المستفيض لحديث رسول الله ﷺ واجتهاد الصحابة، وأقوالهم، وبعض التابعين، وفيه من الأسانيد والمتون شيء كثير..

فهو مجموعة من الأحاديث التي رواها أحمد رضي الله عنه، وضرب في مناكب الأرض ساعياً جاهداً في جمعها، والمسند هو خلاصة ما تلقاه أحمد من الأحاديث، ودونها بأسانيدها، ولذلك ابتدأ جمعه من وقت أن ابتدأ بتلقي الحديث، جاء في كتاب المنهج لأحمد: "كان ابتداؤه فيه سنة ثمانين ومائة"..

وضع أحمد إذن نصب عينيه منذ اتجه إلى طلب الحديث، أن يجمع الأحاديث عن الثقات الذين يراهم ويلتقي بهم ويروي عنهم، وقد كان يسعى إليهم جاهداً مهما بَعُدت الشقة، وعظمت المشقة، وقد استمر في جمع مسنده هذا مدى حياته، وقد بيّن سبب ذلك في إجابته عن سؤال وجهه إليه ابنه عبد الله، فقد روي أن عبد الله قال: "قلتُ لأبي: لمَ كرهتَ وضع الكتب، وقد عملتَ المسند؟ فقال له: عملتُ هذا الكتاب إماماً، إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله ﷺ رُجع إليه"..

مسند الإمام أحمد هو مجموعة من الأحاديث التي رواها أحمد، وابتدأ جمعه من وقت أن ابتدأ يتلقى الأحاديث، واستمر في جمعه طول حياته..

الجمع و التدوين

لم تكن همة أحمد متجهة في عمل المسند إلى الترتيب والتنظيم والتبويب، بل كانت متجهة إلى الجمع والتدوين، ويظهر أنه استمر في الجمع والكتابة في أوراق متفرقة على نحو المسودات، حتى أحسّ بدنو الرجل، فجمع بنيه وخاصته، وأملى عليهم ما كتب، وأسمعهم إياه مجموعاً، وإن لم يكن مرتباً، ولذلك قال شمس الدين الجزري: "إن الإمام أحمد شرع في جمع المسند، فكتبه في أوراق منفردة، وفرقه في أجزاء منفردة، على نحو ما تكون المسودة، ثم جاء حلول المنية قبل حصول الأمنية، فبادر بإسماعه لأولاده وأهل بيته، ومات قبل تنقيحه وتهذيبه، فبقي على حاله، ثم إن ابنه عبد الله ألحق به ما يشاكله، وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله"..

ويقول الإمام أحمد: "إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث، فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله ﷺ، فارجعوا إليه، فإن كان فيه، وإلا فليس بحجة"..

جعل أحمد مسنده مرجعاً يرجع إليه المسلمون فيما اختلفوا فيه من حديث رسول الله ﷺ، ولم يعمل على ترتيبه وتبويبه، بل كانت همته متجهة إلى الجمع والتدوين..

الإمام وأمامه كتابه العظيم (المسند)

منهج المسند

إنه على الرغم مما يبدو لقارئ المسند أنه لا يخضع لمنهج معين في جمعه وتأليفه، وآية ذلك أنه غير مقسَّم على أبواب، وهي ضرورة كانت تقتضيها طبيعة الانتفاع بهذا الكتاب الجليل، فإن المتتبع لمراحل جمع المسند يستطيع أن يتعرف على منهج الإمام أحمد فيه..

إن الإمام أحمد قصد إلى جمع الأحاديث المشهورة كلها بغض النظر عن رتبتها صحة وضعفاً، وقد ذكر الذهبي في تاريخه أن الإمام أحمد - رحمه الله - لم يكن في روايته مقتصراً على الحديث القوي، بل كان فيه القوي والغريب، ولقد صرّح الإمام أحمد بأنه كان يروي الأحاديث التي يذكرها الثقات من معاصريه من غير أن يرد إلا ما يتعارض مع المشهور، فقد روي أنه قال لابنه عبد الله: "قصدتُ في المسند الحديث المشهور، وتركتُ الناس تحت ستر الله تعالى، ولو أردتُ أن أقصد ما صحَ عندي لم أرو من هذا المسند إلا القليل، ولكنك يا بني تعرف طريقتي في الحديث، لستُ أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه"..

فأحمد في المسند لا يرد ما يضعف في نظره إلا إذا كان عنده سند صحيح من السنة نفسها، فهو لا يرد ما ينسب إلى السنة إلا بالسنة نفسها، لا بشيء سواها..

وعلى ذلك كان في المسند القوي وغيره، وقد اتفق العلماء على أن فيه الحديث الصحيح في اصطلاح المحدثين والحديث الحسن، والحديث الغريب..

يقول شمس الدين بن الجزري في المصعد الأحمد: "لعلّ الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامي مَنْ يخدمه ويبوب عليه، ويتكلم على رجاله، ويرتب هيئته ووضعه، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوي، وقلّ أن يثبت حديث إلا وهو فيه"..

قَصَد أحمد في مسنده إلى جمع الأحاديث المشهورة كلها، بغضّ النظر عن رتبتها صحة وضعفاً، فكان في مسنده القوي وغيره، ويقول في ذلك: لستُ أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه..

دراسات حول المسند

كان المسند موضع اهتمام كل علماء الحديث، وقد ذهب المحدِّثون مذاهب شتى في إجلاله وتعظيمه، ومبعث الإجلال والتعظيم أن الكتاب يضم أحاديث خير البشر، وأن الذي قام على جمعه إمام ليس إلى الشك في أمانته وتقواه وورعه واحترازه من سبيل، حتى إن شمس الدين بن الجزري يقول في كتابه "المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد": هو كتاب لم يُرْوَ على وجه الأرض كتاب في الحديث أعلى منه.. وقد أُلِّف أربعة كتب اهتمت بمسند أحمد، وضمت دراسات دقيقة شاملة عنه:

أولها: "خصائص المسند" للحافظ أبي موسى المديني المتوفى سنة ٥٨١هـ..

والثاني: "المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد" للحافظ شمس الدين بن الجزري إمام القراءات المتوفى سنة ٨٣٣هـ..

والثالث: "القول المسدد في الذَّبّ عن المسند" للحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ..

والرابع: "ذيل القول المسدد" لمحمد صبغة الله المدارسي الهندي المتوفى سنة ١٣٠٠ هـ تقريباً..

على أن الناظر في المسند المشتغل به، لا بد من أن يضع في الحسبان رجالاً ثلاثة، كأنما كان يجري المسند على ألسنتهم - على حد قول المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله - وهم شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، وتلميذاه: الحافظ شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ، وعماد الدين بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ، فثلاثتهم أئمة في الفقه الحنبلي، وهم مجددوا المذهب، ويضعهم كثير من الحنابلة في الترتيب بعد الإمام أحمد مباشرة، على بعد الشقة الزمنية بينه وبينهم..

شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية

حاز المسند إجلال كل علماء الحديث واهتمامهم، حتى قال ابن الجزري: لم يرو على وجه الأرض كتاب في الحديث أعلى منه، وقد أُلِّفت كُتُب أربعة اهتمت بالمسند، وضمت دراسات دقيقة شاملة عنه، وجاء من بعد رجال ثلاثة كأنما كان المسند يجري على ألسنتهم، وهم مجددوا المذهب؛ ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، رحمهم الله تعالى..

٢ نقل الفقه الحنبلي

ذكرنا أن أحمد لم يُصنِّف كتاباً في الفقه يُعَدّ أصلاً يؤخذ منه مذهبه، ويعد مرجعه، ولم يكتب إلا الحديث، وقد ذكر العلماء أن له بعض كتابات في موضوعات فقهية، منها المناسك الكبير، والصغير، وغيرها..

وإذا كان أحمد لم يدوِّن في الفقه كتاباً، ولم ينشر آراءه، ولم يملها على تلاميذه، كما كان يفعل أبو حنيفة، فإن الاعتماد في نقل فقهه على عمل تلاميذه فقط، وقد ذكرنا في فصل سابق أبرز وأشهر هؤلاء التلاميذ، الذين كانوا من نَقَلة فقهه، ولقد جاء فقيه جمع من أصحاب أحمد الذين ذكرناهم وغيرهم، وقطع الفيافي والقفار في سبيل هذا الجمع، وهو أبو بكر الخلال، الذي يُعَدّ جامع الفقه الحنبلي، وناقله، وهو لم يَرَ أحمد ولم يتتلمذ عليه، ولم يحضر حلقته، فقد ولد في الفترة التي انتقل فيها الإمام أحمد إلى رحمة الله..

إنه - والأمر كذلك - يُعتبر بالنسبة لمذهب أحمد مثل سحنون بالنسبة لمذهب مالك، فكلاهما لم يَرَ إمام مذهبه، وكلاهما العمدة في جمع فقه المذهب، وإذا لم يكن أبو بكر الخلال تلميذاً للإمام، فهو تلميذ غير مباشر له، لأنه صحب أبا بكر المروذي ألصق تلاميذ الإمام به، وصحبه إلى أن توفي..

إن الاعتماد في نقل فقه أحمد على عمل تلاميذه فقط؛ لأنه لم يدوِّن في الفقه، ولم ينشر آراءه، ولم يملها على تلاميذه، ثم جاء أبو بكر الخلّال الذي يُعَدُّ جامع الفقه الحنبلي وناقله، وهو في ذلك مثل سحنون بالنسبة لمذهب مالك..



أبو بكر الخلال أهم وأشهر ناقلي الفقه الحنبلي

أبو بكر الخلّال

وقد قيض الله ذلك العالم الجليل، لحفظ مذهب ذلك الإمام الأثري الكبير، وقد قال ابن القيم في ذلك: "كان أحمد شديد الكراهية لتصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث، ويكره أن يُكتَب كلامه، ويشتد عليه ذلك جداً، فعلم الله حسن نيته وقصده، فكُتبَ من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفراً، ومَن الله علينا بأكثرها، فلم يفُتْنا منها إلا القليل، وجمع الخلال نصوصه في الجامع الكبير، فبلغ نحو عشرين سفراً، أو أكثر، ورويت فتاويه وأحاديثه ومسائله، وحدث بها قرناً بعد قرن، فصارت إماماً وقدوة لأهل السنة على اختلاف طبقاتهم"..

وقال ابن الجوزي فيه: إنه صرف عنايته إلى جمع علوم أحمد ابن حنبل، وسافر لأجلها، وكتبها عالية ونازلة، وصنفها كتباً، ومعنى أنه كتبها عالية ونازلة؛ أنه روى بعضها عن أصحاب أحمد، وبعضها عمن روى عنهم..

صحب الخلال أبا بكر المروذي إلى أن مات، ويظهر أنه هو الذي حبب إليه رواية فقه أحمد، شغف بذلك شغفاً شديداً، وقد جاب الآفاق في سبيل ذلك، فأخذ عن أولاد الإمام أحمد وعمه، وحرب الكرماني، والميموني، وغيرهم كثير جداً، وقد وصف العليمي من أخذ عنهم ممن لم يحصهم، فقال: يكثر تعدادهم، ويشق إحصاء أسمائهم، سمع منهم مسائل أحمد، ورحل إلى أقصى البلاد في جمع مسائل أحمد، وسماعها ممن سمعها من أحمد، وممن سمع من سمعها من أحمد، فنال منها، وسبق إلى ما لم يسبقه إليه سابق، ولم يلحقه من بعده لاحق"..

صرف الخلال عنايته إلى جمع علوم أحمد بن حنبل، وسافر لأجلها، وسمعها من أصحاب أحمد، وممن سمعها من أصحاب أحمد، وجمع نصوصه في الجامع الكبير، فبلغ نحو عشرين سفراً أو أكثر..

ناقل المذهب

يقول الذهبي عن الخلال: إنه جامع علم أحمد ومرتبه، وكان الخلّال بعد أن جمع رواياته، يدارسها تلاميذه في جامع المهدي ببغداد، وكان يُعتبر إمام المذهب بين فقهاء الحنابلة المعاصرين له، ومن هذه الحلقة المباركة انتشر المذهب الحنبلي، وتناقله الناس مجموعة فقهية مدونة في نحو عشرين مجلداً، بعد أن كان روايات منثورة، ورسائل متفرقة في الأقاليم، وفي صدور الرجال، أو في خزائنهم الخاصة، ولا تنشر إلا لخاصة الناس..

يقول أبو بكر بن شهريار الحنبلي في وفرة علم الخلال وكثرة ما جمع: كلنا تَبَع للخلال، لأنه لم يسبقه إلى جمعه وعلمه أحد، ويقول أيضاً: مَنْ يقدر على ما يقدر عليه الخلال من الرواية؟

هذا هو عمل الخلال ناقل الفقه الحنبلي، وقد تبعه من جاؤوا بعده في نقله، ولخَصوه، ثم شرحوه، ثم وزنوه بأقوال الأئمة أصحاب المذاهب، وعُدَ لهذا بحقَ ناقل المذهب الحنبلي، وقد توفي سنة ٣١١هـ..

اعتُبِر الخلّال ناقل المذهب الحنبلي، بعد أن جمع رواياته، وأخذ يدارسها تلاميذه ومن هذه الحلقة انتشر المذهب الحنبلي، وتناقله الناس مجموعة فقهية مدونة في نحو عشرين مجلداً..

الخرقي ومُختَصَره

إن من يتكلم عن أبي بكر الخلال وجامعه الكبير، لا مفرّ له من أن يذكر الخرقي وكتابه "المختصر"، ذلك لأن المختصر هو أشهر كتاب في الفقه الحنبلي على الإطلاق، وأما صاحب المختصر فهو عمر بن الحسين الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤هـ، وقد قال فيه العليمي: "أحد أئمة المذهب، كان عالماً بارعاً في مذهب أبي عبد الله، وكان ذا دين، وأخا ورع، رحمه الله، قرأ العلم على من قرأ على أبي بكر المروذي، وحرب الكرماني، وصالح وعبد الله ابني إمامنا أحمد، له المصنفات الكثيرة، وتخريجات على المذهب، لم يُنشر منها إلا المختصر"..

وإنما لم يُنشر من كتب الخرقي إلا المختصر، لأن الخرقي غادر بغداد، ورحل منها إلى دمشق، ومات بها ، في السنة التي سقطت فيها بغداد، وهي سنة ٣٣٤هـ، واحترقت كتبه، ولم ينجُ منها إلا "المختصر" الذي بين أيدينا..

ومختصر الخرقي أشهر كتاب في الفقه الحنبلي، ولذا توافر عليه العلماء بالشرح و التعليق، حتى لقد كان له أكثر من ثلاثمائة شرح، وقد نقل فيه خلاصة لما جمع الخلال، وأحصى بعض العلماء عدة ما فيه من مسائل، فبلغت ثلاثمائة وألفي مسألة..

عمر بن الحسين الخرقي أحد أئمة المذهب، وكتابه "المختصر" هو أشهر كتاب في الفقه الحنبلي على الإطلاق، ولذا توافر عليه العلماء بالشرح والتعليق، حتى كان له أكثر من ثلاثمائة شرح..

عمر بن حسين الخرقي أحد أئمة المذهب الحنبلي

المغني

ومَن يذكر "المختصر" لا بد له من أن يذكر أكبر شروحه، وأعظمها، وأنْفَسَها، وهو "المغني" لمؤلِّفه موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٦٢٠هـ..

وشرح المغني كتاب كبير، طبع في ثلاثة عشر مجلداً كبيراً، وهو فقه مقارَن، فإنه لا يكتفي بشرح عبارة "المختصر" وبيان مدلولها، ومفهومها، بل يتبع ذلك ببيان شامل للاختلاف بين الروايات فيها في الفقه الحنبلي، ثم الاختلاف بين الأئمة على اختلاف مذاهبهم، حتى بعض المذاهب التي لم يكن لها أتباع مشهورون، كمذاهب بعض التابعين، ومَنْ جاء بعدهم، كالأوزاعي وغيره، ويذكر الأدلة الفقهية والآثار الصحيحة المثبتة للمدعي، مشيراً إلى صحيحها من سقيمها، ويرجح قولاً من بين الأقوال التي يسوقها، مشيراً إلى قوة دليله، وضعف دليل غيره بجواره..

وقد نظر إليه الحنابلة وغيرهم نظرة تقدير، واعتبروه مرجعاً من مراجع الفقه الإسلامي المقارَن الذي يرفع قارئه من التقليد إلى مكان من الاجتهاد، والموازنة والترجيح الصحيح، والاختيار عن بينة وحجة وبرهان، وقد قال ابن مفلح الحنبلي فيه، وفي مؤلِّفه: "اشتغل الموفق بتأليف أحد كتب الإسلام، فبلغ الأمل في إنهائه، وهو كتاب بليغ في المذهب، تعب فيه، وأجاد، وجمل به المذهب، وقرأه عليه جماعة"..

وقال فيه عز الدين بن عبد السلام الشافعي: "ما رأيت في كتب الإسلام مثل المحلى لابن حزم، وكتاب المغني للشيخ موفق الدين في جودتها، وتحقيق ما فيها"..

والمغني لا يقتصر على ذكر أصول المسائل، ويوازن بين المذاهب المختلفة فيها، بل بَعْدَ سَوْق الأقوال، والترجيح والاختيار، يفرع عليها ويخرج، فيأتي بأوفى المطلوب، وأقصى الغاية، وأكثر تفريعاته على مقتضى المذهب الحنبلي، وإن القارئ لهذا السفر الجليل ليحسّ بحلاوة العبارة مع دقة المعنى، وجمال الأسلوب مع جلال الفكر..

أعظم شروح المختصر وأنفسها: "المغني" لابن قدامة المقدسي، يقع في ١٣ مجلداً، ويُعتبر مرجعاً من مراجع الفقه الإسلامي المقارَن، حيث لا يكتفي مؤلفه بشرح عبارة المختصَر، بل يذكر الروايات المختلفة بين مختلف المذاهب، ويرجح بينها، ويذكر الأدلة الفقهية، وبذلك كان من أعظم كتب الإسلام، مع ما يمتاز به من حلاوة العبارة، وجمال الأسلوب مع دقة المعنى، وجلال الفكر..

غلام الخلّال

عبد العزيز بن جعفر غلام الخلّال، وكنيته أبو بكر، كان قريناً لعمر بن حسين الخرقي، وقد تلقى عن الخلال أكثر علمه، وأخذ عن كثيرين غيره ممن أخذوا عن أصحاب أحمد، وقد وصفه ابن أبي يعلى في طبقاته، فقال: "إنه كان حادّ الفهم، موثوقاً به في العلم، متسع الرواية، مشهوراً بالدراية، موصوفاً بالأمانة، مذكوراً بالعبادة، وله المصنفات في العلوم المختلفة"..

ويُعَدّ أشد تلاميذ الخلال اتباعاً له، ونقلاً عنه، وكان حرّ التفكير والترجيح بالرواية والدراية، ولذا كان يرجح روايات وأقوالاً، قد رجح الخلّال غيرها، ويصرح بالمخالفة، وقد ذكر القاضي ابن أبي يعلى طائفة من اختياراته التي خالف بها شيخه، وقدّم في بعضها اختياره على اختيار شيخه..

وإن عبد العزيز لم يكن فقهه مقصوراً على النقل الحنبلي، والترجيح بين أقواله، بل وازن بين الفقه الحنبلي والفقه الشافعي، وسجل ذلك في كتاب سماه "خلاف الشافعي"، ولقد كانت وفاة عبد العزيز سنة ٣٦٣هـ..

أبو بكر عبد العزيز بن جعفر، غلام الخلّال، تلقى عن الخلال أكثر علمه، ويُعَدّ أشدّ تلاميذه اتباعاً له، ونقلاً عنه، وكان حرَّ التفكير والترجيح بالرواية والدراية..

٣ نمو المذهب

الحنابلة يقررون أن باب الاجتهاد لم يُقفل، فإذا كان الذين يتعصبون لبعض المذاهب يقررون إغلاق باب الاجتهاد، فالحنابلة يفتحون الباب لكل من تأهل للاجتهاد، وتحققت فيه أوصاف الاجتهاد، بل إنهم أكثر من ذلك يَرَون أن وجود مجتهد مستقل مطلق، فرض كفاية لا يصح أن يخلو منه عصر، لأنه يجدّ للناس من الأحداث ما يجعل وجوده ضرورياً، حتى لا يضل الناس، ويفتي من ليس لهم علم بالفتوى، وحتى لا يندرس علم الكتاب والسنة، فيرجع الناس إلى المذاهب يخرّجون عليها، وكأنها أصول بذاتها، بدل أن يرجعوا إلى الكتاب والسنة..

وإنه لهذا ولغيره، نما المذهب الحنبلي نمواً كبيراً، ونموه يرجع مع هذا إلى أمور ثلاثة: أصوله، والفتاوى، والتخريج فيه..

فتح الحنابلة باب الاجتهاد لكل مَنْ تأهل للاجتهاد، ويَرَون أنه لا يصح أن يخلو عصر من مجتهد مستقل مطلق، حتى لا يضل الناس، وكان هذا سبباً في نمو المذهب الحنبلي نمواً كبيراً، بالإضافة إلى أصوله والفتاوى والتخريج فيه..

الأصول

أما بالنسبة للأصول فإنا نراها كثيرة خصبة، وقد ذكرناها، وقد كان أعظم ما نمّى ذلك المذهب هو ما اشتمل عليه الحديث والسنة في ذلك المذهب من إحاطة كبيرة بفتاوى الصحابة والتابعين وأقوالهم، فقد بنى عليها الكثير من الفتاوى في المذهب بعد ذلك، إذ كانت مرجعاً للمجتهدين فيه، يخرِّجون عليه، ويقيسون ويهتدون به..

ثم هذه الأصول الأخرى كانت فيها خصوبة، وخصوصاً المصالح، والذرائع، فإنها فتحت أبواباً واسعة للاجتهاد على مقتضاها، ولذلك كثرت الفروع المبنية عليها، وقد وسعوا في باب الاستصحاب، فأبيح به ما لم يُبَح في غيره بالنسبة للعقود..

كانت أصول المذهب الحنبلي كثيرة وخصبة، بسبب ما اشتمل عليه الحديث والسنة في ذلك المذهب من إحاطة كبيرة بفتاوى الصحابة والتابعين وأقوالهم، وكان هذا من أعظم ما نمّى ذلك المذهب، بالإضافة للأصول الأخرى..

الفتاوى

وأما بالنسبة للفتاوى، فإن الحنابلة كانوا يشددون في شروط الإفتاء، فلا يتولاها إلا من له قدم ثابتة في علم الكتاب، وعلم السنة، وعلى اطلاع بفتاوى الصحابة والتابعين، وعلم بأصول المذهب وتفريعاته، وله عقل مدرك، ونية خالصة، ومعرفة لأحوال الناس، ومَنْ كان هذا شأنه يستطيع أن يفتي فتاوى سليمة مناسبة لحال الناس، مع الاستمساك بالأصول..

وقد ادعى الاجتهاد المطلق الكثيرون من فقهاء المذهب، وقد قال ابن القيم: "إن منهم من وصل إلى درجة الاجتهاد المستقل المطلق، وإن لم يصل إلى قدرة أحمد، ومنهم من كان دون ذلك"..

ويقول في فقهاء المذهب أيضاً: "ومَنْ تأمّل أحوال هؤلاء وفتاويهم واختياراتهم، علم أنهم لم يكونوا مقلدين لأئمتهم في كل ما قالوه، وخلافهم لهم فأظهر من أن ينكر، وإن كان منهم المقل، ومنهم المكثر"..

وبمقدار الكفاءة العلمية عند أهل الفتيا والتفريع يكون نماء المذهب، وسلامة التخريج فيه..

إنه بمقدار الكفاءة العلمية عند أهل الفتيا والتفريع يكون نماء المذهب، وسلامة التخريج فيه، وقد شدّد الحنابلة في شروط الإفتاء، حتى تكون الفتوى سليمة مناسبة لحال الناس، مع الاستمساك بالأصول..

ترتيب مُحْكَم

بالنسبة لرجال المذهب وعملهم في تنميته فوق ما ذكرنا من قبل، فإنهم قد رتبوا المذهب ترتيباً محكماً، فرتبوا عملهم في الفتاوى والتفريعات، وقد قسّموا الفتاوى والأقوال إلى ثلاثة أقسام:

الروايات المنسوبة لأحمد، وكان الحكم فيها صريحاً، فقد أخذوا بها وبنوا عليها، وفرعوا الفروع، وخرجوا التخريجات..

والتنبيهات، وهي الأقوال التي لم تُنسَب إلى أحمد بعبارات صريحة صدرت عنه، بل فهم رأي الإمام فيها عن طريق التنبيه بما تومئ إليه العبارة، كأن يسوق حديثاً يدل الحكم، ويبين حسن الحديث أو يقويه بأي عبارة، وإن هذه تُعتبر أقوالاً في المذهب أيضاً، بنوا عليها، وخرجوا وفرعوا بما أوتوا من قوة الاستنباط الفقهي، وعلم بما رُوي من فتاوى الصحابة والتابعين وغيرهم..

والأوجه، وهي ليست أقوال الإمام بالنص، ولا بالتنبيه، ولا بالإشارة، بل هي أقوال المجتهدين، والمخرجين في المذهب، وإن كان كل اجتهاد للفقهاء الذين بلغوا رتبة الإفتاء، يضاف إلى المذهب يُعَدّ وجهاً فيه، ولو لم يرد بالعبارة أو الإشارة عن الإمام رأي فيه، وقد يُنسَب إلى الإمام، والأصح في المذهب أنها تكون أقوالاً فيه، ولا تُنسَب إلى الإمام..

وأجازوا مخالفة الإمام في المسائل القياسية، ويكون ذلك وجهاً آخر في المذهب، وإن لم يُنسَب إلى الإمام..

إن رجال المذهب الحنبلي قد رتبوا المذهب ترتيباً مُحْكَماً، و قسّموا الفتاوى ثلاثة أقسام؛ الروايات المنسوبة لأحمد، والتنبيهات التي لم تُنسَب لأحمد بعبارات صريحة، والأوجه وهي أقوال المجتهدين والمخرجين في المذهب..

قواعد جامعة

ولقد كان لرجال المذهب الحنبلي جهود كبيرة في خدمة المذهب، ولعل من أعظمها، استخراج قواعد جامعة لفروع المذهب وأشتات مسائله، فقد وجدوا أشتاتاً من الفروع موزعة في الأبواب المختلفة، ووجدوا أحكاماً متشابهة، ينص عليها في أبواب مختلفة، فجمعوا تلك الأشتات والنظائر، وجعلوا كل طائفة متحدة الفكرة والعلة والحكم تدخل في قاعدة جامعة لها، فتكون من هذه الطوائف الفقهية قواعد تجمع المسائل الموحدة..

وهي تسهل الاطلاع على الأحكام العامة للمذهب، وتكون باباً للعلم بالفروع، وتعطي صورة واضحة عن منطقه واتجاهاته..

وقد أُلفت عدة كتب في القواعد؛ كالقواعد الصغرى لنجم الدين الطوفي، والقواعد الكبرى لابن رجب، والقواعد لعلاء الدين ابن عباس المعروف بابن اللحام، المتوفى سنة ٨٠٣ هـ..

بَذَل رجال المذهب الحنبلي جهوداً كبيرة في خدمة المذهب، وكان من أعظمها استخراج قواعد جامعة لفروع المذهب وأشتات مسائله، فجعلوا كل طائفة متحدة الفكرة والعلة والحكم تدخل في قاعدة جامعة لها..

٤ انتشار المذهب

بالنظر إلى قوة الفقه الحنبلي ورجاله فإن انتشاره لم يكن متناسباً مع هذه القوة، واتساع الاستنباط فيه، وإطلاق حرية الاجتهاد لأهله، فقد كان أتباع المذهب من العامة قليلين، حتى إنهم لم يكونوا سواد الشعب في أي إقليم من الأقاليم، إلا ما كان من أمرهم في نجد، ثم في كثير من الجزيرة العربية بعد سيادة حكم آل السعود في تلك الجزيرة..

ولماذا كانت تلك القلة؟ والجواب عن ذلك أن عدة أسباب تضافرت، فقللت من انتشار هذا المذهب:

أولها: أنه جاء بعد أن احتلت المذاهب التي سبقته الأمصار الإسلامية، فكان في العراق مذهب أبي حنيفة، وفي مصر المذهب الشافعي والمالكي، وفي المغرب والأندلس المذهب المالكي..

ثانيها: أنه لم يكن منه قضاة، والقضاة إنما ينشرون المذهب الذي يتبعونه، فأبو يوسف ومن بعده محمد بن الحسن، نشرا المذهب العراقي، وخصوصاً آراء أبي حنيفة وتلاميذه..

وأسد بن الفرات في المغرب نشر المذهب المالكي، والحكم الأموي في الأندلس عمل على نشر ذلك المذهب أيضاً، ولم يَنَل المذهب الحنبلي تلك الحظوة إلا في الجزيرة أخيراً..

ثالثها: شدة الحنابلة وتعصبهم، وكثرة خلافهم مع غيرهم، لا بالحجة والبرهان، بل بالعمل، وكانوا كلما قويت شوكتهم اشتدوا على الناس باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واقرأ ما كتبه ابن الأثير في الكامل عنهم: "وفيها أي في سنة ٣٢٣هـ عظم أمر الحنابلة، وقويت شوكتهم، وصاروا يكبسون دور القواعد والعامة، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها، وكسروا آلات الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، ومشي الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه، فأخبرهم وإلا ضربوه، وحملوه إلى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة، فأرهجوا بغداد.."

وبهذه الأعمال وغيرها، نفر الناس منهم، وقلّ أتباعهم، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى الأمور بحكمته..

ومع ذلك فقد ذكر المقدسي: أنه رأى الحنابلة في أصفهان والريّ وشهرزور..

ومنذ أكثر من قرن أصبح المذهب الحنبلي المذهب السائد في المملكة العربية السعودية..

لم يكن انتشار المذهب الحنبلي متناسباً مع قوة رجاله، واتساع الاستنباط فيه، وربما يعود ذلك لانتشار المذاهب الثلاثة قبله، و لأنه لم يكن منه قضاة، ولشدة الحنابلة وتعصبهم وكثرة خلافهم مع غيرهم، فقلّ أتباع هذا المذهب وقلّ انتشاره في البلاد الإسلامية..





الباب الرابع

أصول المذهب وخصائصه

الفصل الرابع

نهاية المطاف

- مَرَض الإمام
- الرحيل
- وصيته
- شهادات وثناء
- ثناؤه على غيره

١ مرض الإمام

لو كان البقاء تكريماً لأحد من خلق الله؛ لكان أجدر الخلق بهذا التكريم محمد رسول الله ﷺ، ولكن الموت سنة الله لهذه الحياة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً..

وهكذا كانت حياة أبي عبد الله حافلةً بالخير للأمة، بل أيقظت شعور الاعتزاز بالإسلام عامة، وبسنَّة رسول الله ﷺ خاصة، وحين أتمَّ الله له ما أراد، كتب الله عليه ما كتبه على كل حي، فسعى إليه المرض، ثم استأثر الله به على خير ما يموت الأفذاذ من الرجال..

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: استكملتُ سبعاً وسبعين سنة، ودخلت ثمان وسبعين، فحُمَّ من ليلته، وذلك في يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول..

يقول صالح: ودخلتُ عليه يوم الأربعاء وهو محموم يتنفس الصعداء، وهو ضعيف، فقلت: يا أبت، ما كان غداؤك؟ فقال: ماء الباقلاء، ثم إنه أراد القيام، فقال: خذ بيدي، فلما صار إلى الصلاة ضعفت رجلاه حتى توكأ عليّ، وكان يختلف إليه أكثر من متطبب كلهم مسلمون..

الموت سنَّة الله لهذه الحياة، وحين أتمَّ اللهُ للإمام أحمد ما أراد، كتب عليه ما كتبه على كل حي، فسعى إليه المرض، وأُصيب بالحمّى، بعد حياة كريمة كانت حافلة بالخير للأمة، أيقظت شعور الاعتزاز بالإسلام، وبسنة رسول الله ﷺ..

الازدحام على بابه

وكان ربما أذن للناس فيدخلون أفواجاً، يسلمون عليه، ويرد عليهم، وتسامع الناس وكثروا، وسمع السلطان بكثرة الناس، فوكّل ببابه، وبباب الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار، ثم أغلق باب الزقاق، فكان الناس في الشوارع والمساجد، حتى تعطل بعض الباعة، وحيل بينهم وبين البيع والشراء، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل ربما دخل من بعض الدور وطرز الحاكة، وربما تسلق، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الباب..

وجاء حاجب ابن طاهر، فقال: إن الأمير يقرئك السلام، وهو يشتهي أن يراك، فقال: هذا مما أكره، وأمير المؤمنين أعفاني مما أكره..

وأصحاب الخبر يكتبون بخبره إلى العسكر، والبُرُد تختلف كل يوم، وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه، وجعلوا يبكون عليه..

وجاء قوم من القضاة وغيرهم، فلم يؤذن لهم، ودخل عليه شيخ فقال: اذكر وقوفك بين يدي الله، فشهق أبو عبد الله، وسالت الدموع على خديه..

ازدحم الناس على باب أحمد حين سمعوا بمرضه، حتى وكّل السلطان ببابه من ينظم الناس، وطلب الأمير أن يراه، فرفض، وقال: هذا مما أكره، وجعل الناس يدخلون يسلمون عليه جماعات وأفواجاً..

أنتَ في حِلّ

وجاء

رجل من جيران الإمام يعوده، وقد خضب، فدخل عليه، فقال الإمام: إني لأرى الرجل يحيي شيئاً من السنَّة فأفرح به..
وجاء رجل فقال لصالح بن أحمد: تلطف لي بالإذن عليه، فإني قد حضرتُ ضربه يوم الدار، أريد أن أستحله..
فقلتُ له: فأمسك..

فلم أزل به حتى قال: أدخله، فأدخلتُه، فقام بين يديه، وجعل يبكي، وقال: يا أبا عبد الله، أنا كنتُ ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك، فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك، وإن رأيت أن تُحلّني فعلت..

فقال: على ألا تعود لمثل ذلك..

قال: نعم..

قال: إني جعلتك في حِلّ..

فخرج يبكي، وبكى من حضر من الناس..

هذا وقد بلغه في مرضه عن طاووس أنه كان يكره أنين المريض، وأنه قال: أنين المرضى شكوى الله، قال عبد الله: فما أَنّ حتى مات..

دخل رجل على أحمد في مرضه، وأراد أن يستحله مما كان منه حين شهد ضرب الإمام، فاشترط عليه أحمد ألا يعود، وقال: أنت في حِلّ، وما أَنّ أحمد حتى مات..

يدعون لك

وكان

قد وُلد لأحمد صبي قبل موته بخمسين يوماً، فسماه سعيداً، وكان له ولد آخر اسمه محمد، قد مشى حين مرض، فدعاه، فالتزمه وقبله، ثم قال: ما كنتُ أصنع بالولد على كبر السن؟ فقيل له: ذرية تكون بعدك، يدعون لك، قال: وذاك إن حصل، وجعل يحمد الله تعالى..

قال صالح: وكان له في خريقته قطيعات - أي من الفلوس والدراهم - فإذا أراد الشيء أعطينا من يشتري له، فقال لي يوم الثلاثاء: انظر في خريقتي، فنظرت فإذا فيها درهم، قال: وجِّه فاشتر تمراً وكفِّر عني كفارة يمين، ففعلت، وبقي من ثمن التمر ثلث درهم أو نحو ذلك، فأخبرتُه، فقال: الحمد لله، وقال: اقرأ عليّ الوصية، فقرأتها عليه، فأقرها على حالها..

كان لأحمد ولدان صغيران، أحدهما مشى حين مرض أحمد، والآخر وُلد قبل موته بخمسين يوماً، فقال: ما كنتُ أصنع بالولد على كبر السن؟ فقيل: ذرية يدعون لك..
وطلب من ابنه صالح أن يأخذ درهماً ويخرج عنه كفارة يمين، وقرأ عليه الوصية فأقرها..



الإمام أحمد يطمئن على ولده سعيد الذي ولد قبل وفاته بخمسين يوما

شدة المرض

وكان أحمد يصلي قاعداً، ويصلي وهو مضطجع لا يكاد يفتر، ويرفع يديه في إيماء الركوع..
يقول صالح: وأدخلتُ الطست تحته فرأيتُ بوله دماً عبيطاً، ليس فيه بول، فقلت للطبيب، فقال: هذا الرجل قد فتَّ الحزن والغمُّ جوفه..

واشتدت به العلة يوم الخميس، ووضأتُه، فقال: خلّل الأصابع.. فلما كانت ليلة الجمعة ثقل، فظننتُ أنه قُبض، وأردنا أن نمدده، فجعل يقبض قدميه وهو موجه، وهو يهلل، وتوجه إلى القبلة، واستقبلها بقدميه..

وقال صالح: لم يزل أبي يصلي في مرضه قائماً، أمسكه فيركع ويسجد، وأرفعه في ركوعه وسجوده..

ودخل عليه مجاهد بن موسى، فقال: يا أبا عبد الله، قد جاءتك البشرى، هذا الخلق يشهدون لك، ما تبالي لو وردتَ على الله عز وجل الساعة.. وجعل يقبل يده ويبكي..

واجتمعت عليه أوجاع الحصر وغير ذلك، ولم يزل عقله ثابتاً، وهو في خلال ذلك يقول: كم اليوم في الشهر؟

وكنتُ أنام بالليل إلى جنبه، فإذا أراد حاجة حركني فأناوله..

لم يزل أحمد يصلي قائماً في مرضه، يساعده ابنه في الركوع والسجود، حتى اشتدّ به المرض، وصار يخرج منه دم عبيط بدل البول، واجتمعت عليه أوجاع الحصر، وبقي عقله ثابتاً..



الإمام أحمد في مرضه وحوله أبناؤه

عند الاحتضار

قال

عبد الله بن أحمد: لما حضرت أبي الوفاة جلستُ عنده، وبيدي الخرقة لأشد به لَحْييه، فجعل يغرق ثم يفيق، ثم يفتح عينيه، ثم يقول بيده هكذا: لا، بَعْد، لا بَعْد.. ثلاث مرات، ففعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبت أي شيء هذا؟ قد لهجت به في هذا الوقت، تغرق حتى نقول: قد قضيتَ، ثم تقول: لا بعد، لا بعد؟!

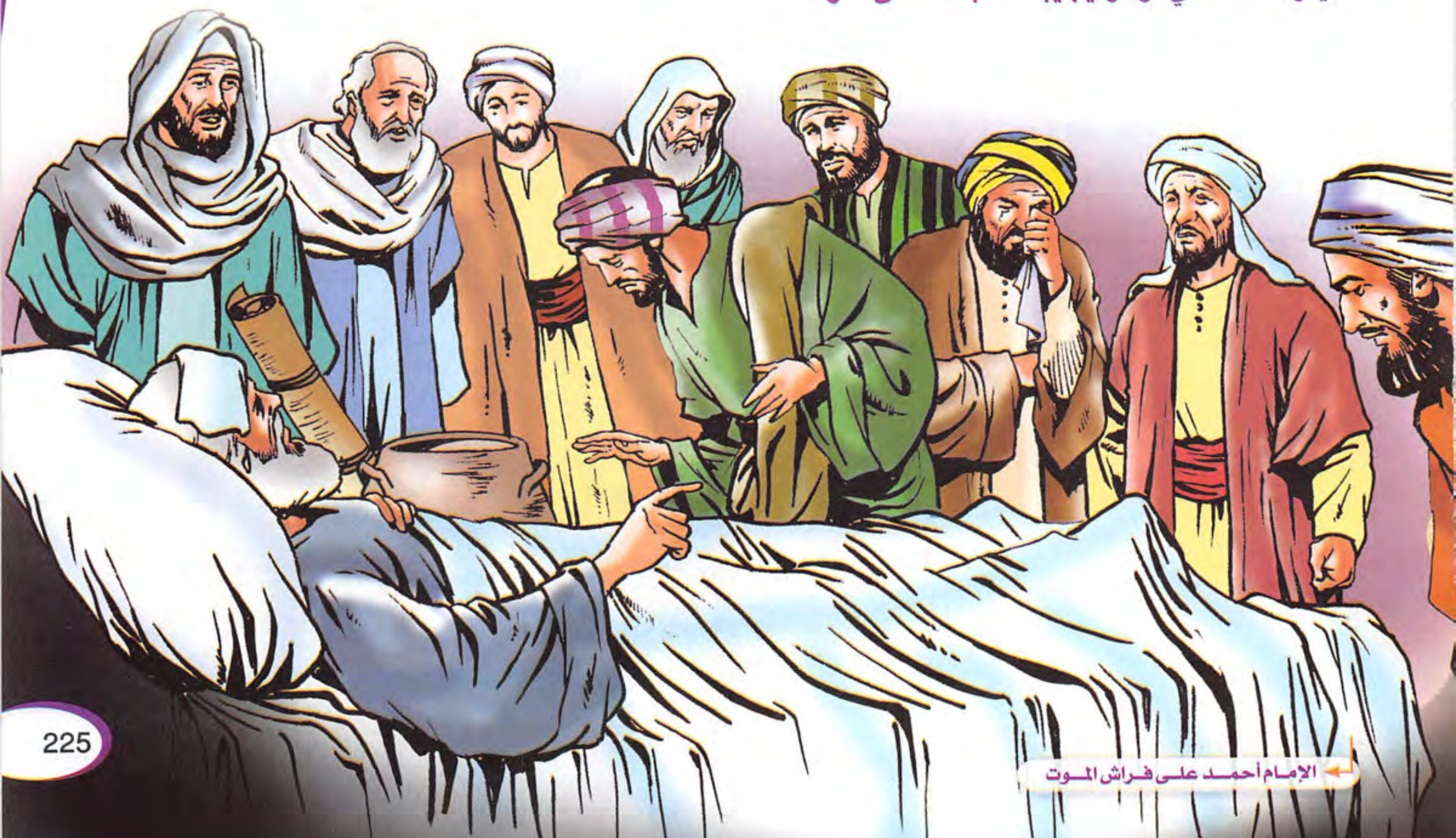
فقال لي: يا بني، ما تدري؟..

قلت: لا..

فقال: إبليس لعنه الله، قائم بحذائي عاضّ على أنامله، يقول لي: يا أحمد، فُتَّني (أي لم أستطع إغواءك)، وأنا أقول له: لا، بعد، حتى أموت..

وقال صالح بن أحمد: جعل أبي يحرك لسانه إلى أن توفي..

لما حضرت أحمد الوفاةُ، جعل يغيب ويردد: لا، بَعْد.. فلما أفاق سأله ابنه عبد الله عن هذا، فأخبره أن إبليس يقول له: فُتَّني، وهو يجيبه: لا، بَعْد، حتى أموت..



الإمام أحمد على فراش الموت

٢ الرحيـل

في يـوم الجمعة الثـاني عشر مـن ربيع الأول من سنة مائتين وإحدى وأربعين، توفي أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، عظيم القرن الثالث، وأعظم سند للسنَّة وأهلها، توفي وله من العمر سبع وسبعون سنة، وأيام..

قال صالح بن أحمد: لما توفي أبي واجتمع الناس في الشوارع، وجهت إليهم أعلمهم بوفاته، وأني أخرجه بعد العصر..

توفي إمام السنّة أحمد بن حنبل يوم الجمعة ١٢ربيع الأول سنة ٢٤١هـ، وله من العمر ٧٧ عاماً.. رحمه الله تعالى..

الناس أمام منزل الإمام أحمد وقد بلغهم نبأ وفاته

غسله وتكفينه

وبعث محمد بن طاهر بحاجبه مظفر، ومعه غلمان، ومعهم مناديل فيها أكفان وطيب، وأرسل يقول: الأمير يقرئك السلام، ويقول: قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضره، فكان يفعل ذلك له، فأرسل أولاده يقولون: إن أمير المؤمنين قد أعفاه في حياته مما يكره..

وأَبَوا أن يكفنوه بتلك الأكفان، وأُتي بثوب كان قد غزلته جاريته فكفنوه به، واشتروا معه لفافة وحنوطاً، واشتروا له راوية ماء، وامتنعوا أن يغسلوه بماء بيوتهم؛ لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل منها، ولا يستعير من أمتعتهم شيئاً، وكان لا يزال متغضباً عليهم، لأنهم كانوا يتناولون ما رتب لهم على بيت المال، وهو في كل شهر أربعة آلاف درهم، وكان لهم عيال كثيرة وهم فقراء..

وحضر غسله نحو مائة من بيت الخلافة من بني هاشم..

أرسل الأمير إلى أولاد أحمد بثياب وطيب ليكفنوه بها، فرفضوا أن يكفنوه بها؛ لأنه كان يكره مال السلطان، وكفنوه بثوب غزلته جاريته، واشتروا له لفافة وحنوطاً، وماء، ولم يغسلوه بماء بيوتهم، لأنه قد هجر بيوتهم..

الصلاة عليه

صلى على الإمام أحمد داخل الدار: أولاده والهاشميون، قبل أن يُخرج إلى المصلى، وقد كان الناس يتزاحمون في الشوارع منتظرين خروج الجنازة ليصلوا عليها..

وخرج الناس بنعشه، والخلائق من حوله لا يعلم عددهم إلا الله، وأمَّ الناس بالصلاة عليه محمد بن عبد الله بن طاهر نائب بغداد، وغلب أولاده على الصلاة عليه، ثم وقف في جملة الناس، وتقدَّم بعد ذلك فعزّى أولاد الإمام أحمد فيه، فكان المتوكل بعد ذلك يقول لابن طاهر: طوبى لك يا محمد، صليتَ على أحمد بن حنبل، رحمة الله عليه..

وقال حجاج بن محمد الشاعر: ما كنتُ أحب أن أُقتَل في سبيل الله، ولم أُصلِّ على أحمد بن حنبل..

لقد امتلأت بغداد بمئات الآلاف من المشيعين..

تزاحم الناس في الشوارع منتظرين خروج الجنازة، وتسابقوا للصلاة عليه، حتى قال المتوكل لابن طاهر: طوبى لك، صليتَ على أحمد بن حنبل..
وامتلأت شوارع بغداد بمئات الآلاف من المشيعين..

٣ وصيته

وصية أحمد عند موته:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون..

وأوصى من أطاعه من أهل بيته وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين ، وأن يحمدوه في الحامدين، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين..

وأوصي أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً..

وأوصي لعبد الله بن محمد - المعروف ببوران - عليَ نحواً من خمسين ديناراً، وهو مصدّق فيها، فيقضى ما له عليَ من غلة الدار إن شاء الله، فإذا استوفى أعطي ولد صالح كل ذكر وأنثى عشرة دراهم..

ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعو لهم..

شهد أبو يوسف وصالح وعبد الله ابنا أحمد بن حنبل..

ذكر أحمد في وصيته أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأوصى أهل بيته بعبادة الله، وأنّ عليه دَيْناً يُقضَى من غلة الدار..

٤ شهادات وثناء

وصف الذهبي أحمد بن حنبل نقلاً عن حرملة تلميذ الشافعي بهذا القول: "عالم العصر، وزاهد الوقت، ومحدّث الدنيا، ومفتي العراق، وعَلَم السنة، وباذل نفسه في المحنة، وقلّ أن ترى العيون مثله، كان رأساً في العلم والعمل، والتمسك بالأثر، ذا عقل رزين، وإخلاص مكين، وخشية ومراقبة العزيز العليم، وذكاء وفطنة، وحفظ وفهم، وسعة علم، هو أجَلّ من أن يُمدَح بكلمي، وأن أفوه بذكره بفمي"..

ويقول الشافعي: رأيت ببغداد شاباً إذا قال: حدّثنا ؛ قال الناس كلهم: صدق، قلت: مَنْ، قال: أحمد بن حنبل..

ويقول أيضاً: خرجتُ من بغداد وما خلّفتُ بها أحداً أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل..

ويقول عبد الرزاق أستاذ أحمد: ما رأيتُ أفقه من أحمد بن حنبل ولا أورع..

وأما يحيى بن معين فيقول: والله ما تحت أديم السماء أفقه من أحمد بن حنبل، ليس في شرق ولا غرب..

ويقول الذهبي: نقلتُ من خط حرملة عن أحمد: "انتهت إليه الإمامة في الفقه والحديث، والإخلاص والورع، وأجمعوا على أنه ثقة، حجة، إمام"..

ما من أحد عاصَر الإمام أحمد من شيوخه أو أقرانه - بل كل مَنْ جلس إليه واستمع منه - إلا شهد له بالعلم والفقه والورع..

ما رأينا مثله

قال

حوثرة بن محمد: تتبين السنّة في الرجل بشيئين: حبّ أحمد بن حنبل، وكتْب كُتُب الشافعي..

ويقول الحسين الكرابيسي: مَثَل الذين يذكرون أحمد بن حنبل - أي بالسوء - مَثَل قوم يجيئون إلى أبي قُبيس يريدون أن يهدموه بنعالهم..

وقال إبراهيم الحربي: رأيتُ أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف، يقول ما يشاء، ويمسك ما يشاء..

وقال حمدان بن سهل: ما رأيتُ أعلم من أحمد بن حنبل..

وقال ابن ماكولا: كان أعلم الناس بمذاهب الصحابة والتابعين..

وقال أحمد بن سلمة: سمعتُ أحمد بن سعيد الدارمي يقول: ما رأيتُ أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله ﷺ، ولا أعلم بفقهه ومعانيه من أبي عبد الله أحمد بن حنبل..

ويقول أبو داود السجستاني: لقيتُ مائتين من مشايخ العلم، فما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل، لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذُكر العلم تكلَّم..

وقال يحيى القطان: ما قدم بغداد أحدٌ أحب إليَّ من أحمد بن حنبل..

ويقول ابن العماد صاحب الشذرات: وكان - أي الإمام أحمد - إماماً في الحديث وضروبه، إماماً في الفقه ودقائقه، إماماً في السنّة ودقائقها، إماماً في الورع وغوامضه، إماماً في الزهد وحقائقه..

شهد أئمة الفضل والعلم لأحمد بإمامته وتقدّمه في العلم والفقه، وبأنهم لم يروا مثله في جمع أصناف العلوم..

٥ ثناؤه على غيره

كان أحمد يقول عن سفيان الثوري: لا يتقدمه في قلبي أحد.. وكان يصفه وحده بالإمام، فيقول لبعض أصحابه: تدري مَنْ الإمام؟ الإمام هو سفيان الثوري..

وكان يقول: كان يحيى بن سعيد لا يعدل بسفيان الثوري أحداً، وكان الإمام أحمد - رحمه الله - ما يشبهه الناسُ إلا بسفيان الثوري لورعه واحتياطه في دينه..

وقال عن الإمام مالك: مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه، ومَنْ مثل مالك متبع لآثار مَنْ مضى مع عقل وأدب؟

وقال: مالك حافظٌ متثبت، من أثبت الناس في الحديث..

وقال أحمد عن الشافعي: لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث، وقال: كان الفقه قفلاً على أهله حتى فتحه الله بالشافعي..

وكان يقول: الشافعي من أحباب قلبي، وقد باينا وبايناه، ما رأينا منه إلا خيراً، وكان شديد الاتباع للسنن..

وقال فيه أيضاً: كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، فهل ترى لهذين من خَلَف، أو عنهما من عوض؟!

تمَّ بحمد الله تعالى

مقارنة فريدة بين الأئمة الأربعة

رحمهم الله تعالى ورضي عنهم

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
الاسم والنسب	النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الفارسي (أصله من فارس).	مالك بن أنس بن مالك من بني أصبح، ليست بينه وبين الصحابي الجليل أنس بن مالك قرابة.	محمد بن إدريس الشافعي، يلتقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم في جده عبد مناف.	أحمد بن حنبل الشيباني، عربي من شيبان سكن أهله خراسان.
مكان الولادة والنشأة	الكوفة.	المدينة.	ولد أثناء سفر والده في غزة ولكنه من مكة ونشأ فيها.	بغداد.
مولده ووفاته	٨٠ - ١٥٠ هـ	٩٣ - ١٩٧ هـ	١٥٠ - ٢٠٤ هـ	١٦٤ - ٢٤١ هـ
رحلاته	لم تثبت له رحلات.	لم تثبت له رحلات.	المدينة، اليمن، العراق، مصر.	البصرة، مكة، المدينة، الشام، اليمن
الصفات الخلقية	متوسط القامة، أسمر مائل للبياض، طويل اللحية، جميل الطلعة، حسن الصوت، أنيق اللباس، كثير التطيب والتعطر والنظافة.	طويل، عظيم الجسد، شعره أشقر فيه صفرة، شديد البياض، واسع العينين، أشم الأنف، لحيته عظيمة تبلغ صدره، يأخذ من شاربيه ولا يحلقها.	طويل قليل لحم الوجه، طويل العنق، طويل الساقين، أسمر لكنه مشرق، خفيف العارضين، لحيته بقدر قبضة، يخضبها بالحناء الحمراء القانية.	طويل، نحيف أسمر اللون، يخضب لحيته بالحناء، يلبس البياض، والعمامة.

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
أهم الصفات	تاجر ماهر، عالم بالمنطق والفلسفة، وعلوم الجدل، يحب المناظرة والمناقشة، اختار التخصص بالفقه حتى برع فيه.	أنيق، يلبس الحسن من الثياب، ويختار الطيب من الطعام، شديد الإتقان والحفظ، شديد الصبر، قوي العزيمة، مثابر وصابر على العلم، صاحب فراسة ونظر عميق، له مهابة خاصة خصوصاً عند العلماء.	اشتهر بالفراسة والبديهة، صاحب نظر ثاقب، معرفته واسعة بالطب، عالم بالأنساب، قوي الذاكرة، عميق المعرفة، كريم معطاء.	قوي الحفظ، شديد الورع، كثير الزهد، متين العلم، متقد الذهن، اشتهر بالاستقامة والثبات.
من أبرز مشايخه	حمّاد بن أبي سليمان، عطاء بن أبي رباح، ابن شهاب الزهري، نافع مولى ابن عمر، زيد بن علي، جعفر الصادق، عكرمة.	ابن شهاب الزهري، يحيى ابن سعيد القطان، ربيعة الرأي بن عبدالرحمن.	محمد بن الحسن، الليث ابن سعد، الإمام مالك، سفيان بن عيينه، عمرو ابن الحارث، عبدالله بن أبي جعفر.	سفيان بن عيينة، هشيم بن بشير، عبدالرزاق الصنعاني، أبويوسف، يحيى بن سعيد القطان.
المنهجية العلمية	التوسع في مصادر التشريع، التوسع في الرأي والاجتهاد، اشتهر بالقياس والعمل به، له منهج خاص في استخراج الأحكام.	اعتمد أسلوب الأثر، والفتوى الدقيقة، لا يحب أن يكتب عنه كل شيء لخشيته من الخطأ، يرفض التقليد الأعمى، ويحب الاجتهاد، يلتزم بما عليه من أهل المدينة لأنهم أقرب الناس للسنة.	بارع في الفقه وأصوله وفروعه، فقهه مزيج من قوة الرأي عند الأحناف وقوة الحديث عند المالكية، يرى أن للاجتهاد ضوابط ومقاييس.	الدقة في الحديث النبوي، التمسك بالنص وعدم التوسع في الاجتهاد، له آراء مشهورة في العقيدة والتمسك بظاهر النص دون تأويل يلغي المعنى الظاهر.

مقارنة فريدة بين الأئمة الأربعة

رحمهم الله تعالى ورضي عنهم

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
المواقف السياسية	معارض سياسي، لا يرى بصحة الدولة الأموية، وكان يرى الخلافة لزيد بن علي رضي الله عنهما، وسجن وعذب في سبيل ذلك، ولكنه ثبت على مواقفه مع أنه أغري بالمناصب، وأيد العديد من الثورات السياسية ضد الحكم الأموي.	اختلط بالخلفاء والسلاطين، وقبل أعطياتهم وهداياهم، ولا يرى حرجاً فيها، ولكنه كان عزيزاً وقوراً أمامهم، حريصاً على فرض الوقار والعزة للعلم أمام الحكام، مال إلى تأييد ثورة محمد ذي النفس الزكية.	بعيد عن السياسة، ويرى أن علي بن أبي طالب في مواقفه في الفتنة، كان على الحق، ويدافع عنه في ذلك.	صاحب مواقف قوية مع الحكام والسلاطين، لم يتنازل حتى مع ما تعرض له من تعذيب، يبتعد عن الحكام، ولا يرغب بزيارتهم أو التقرب منهم ولا يقبل عطاءهم.
من أبرز تلاميذه	أبويوسف (يعقوب بن إبراهيم) محمد بن الحسن الشيباني، زفر بن هذيل.	عبدالله بن وهب، عبدالرحمن بن قاسم، أشهب بن عبدالعزيز، أسد بن الفرات.	الحسن بن محمد الزعفراني، الحسن الكرابيسي، أبوبكر الحميدي، حرملة ابن يحيى، إسماعيل المزني، يوسف بن يحيى البويطي، سليمان المرادي.	ابناه عبدالله وصالح، أحمد بن محمد المروزي، أبو القاسم الخرقي، أحمد بن محمد الأشرم.
أصول المذهب بعد الكتاب والسنة	الإجماع، فتوى الصحابي، الحديث المرسل والضعيف، القياس (للضرورة)، المصلحة المرسلة (للضرورة).	الإجماع، إجماع أهل المدينة، القياس، قول الصحابي، المصالح المرسلة، العرف، سد الذرائع، الاستحسان، الاستصحاب.	الإجماع، قول الصحابي، القياس.	الإجماع، قول الصحابي، القياس، الاستحسان، العرف.

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
من أمهات الكتب في المذهب	الكافي (وقد جمع كتب ظاهر الرواية وهي: السير الكبير، السير الصغير، الجامع الكبير، الجامع الصغير، الزيادات). المبسوط (شرح الكافي في ٣٠ مجلداً). حاشية ابن عابدين.	الموطأ، المدونة (وهي المعتمدة) الواضحة، العتبية، الموازية، الكافي، مختصر خليل.	الأم، الرسالة، المجموع شرح المهذب، مُغني المحتاج، روضة الطالبين.	المغني، الإقناع، الروض المقنع، الفروع، دليل الطالب، مختصر الخرقي.
من أبرز علماء المذهب	محمد بن عابدين، أبو جعفر الطحاوي.	سحنون التنوخي، يحيى الليثي، أبوبكر بن العربي، ابن عبدالبر، أبو مروان الماجشون.	أبو إسحاق الإسفراييني يحيى بن زكريا النووي، تقي الدين السبكي، العز بن عبدالسلام، أبوحامد الغزالي.	أبوبكر الخلاّل، شمس الدين بن قدامة، شيخ الإسلام ابن تيمية، ابن قيم الجوزية، محمد بن عبدالوهاب.
أماكن انتشار مذهبه اليوم	شبه القارة الهندية، العراق، الشام، مصر، جنوب شرق آسيا، روسيا، الصين، تركيا، وغيرها.	مصر وشمال إفريقيا، الحجاز، الخليج، السودان.	مصر، العراق، فارس، ماليزيا، اليمن، الحجاز، عدن، باكستان، الشام، جنوب شرق آسيا وغيرها.	نجد وقليل من الشام، والعراق، ومصر، والخليج، وغيرها.





الخاتمة

هذا هو الإمام أحمد، إمام مذهب في الفقه له أصوله وقواعده، وهو إمام مذهب في العقائد، وإمام في علمه ودينه، وورعه، واتباعه السنّة..

لقد سخر بالأهوال التي حاقت به، وهزئ بالسياط التي ألهبت ظهره، لم يُبالِ بالحديد الذي عضّ ساقه، والسجن المطبق، في سبيل أن يصون كتاب الله تعالى من العبث به..

ولا نستطيع في هذا الكتاب الصغير أن نوفي الإمام أحمد حقه، ولا يتسع المجال لأكثر مما كتبنا، وكان ينبغي أن يكتب بكل فضيلة له كتاب مستقل، وجميع مَنْ كتب عن الإمام مِن الزمن البعيد إلى يوم الناس هذا ما قدروا أن يوفوه حقه على كل مسلم، وكم من معانٍ يصعب تصويرها بالأقلام؟!!

وكم من معانٍ سامية تجسدت في هذا الإمام، وحسبه حرصه على أن يكون في كل خطرة وفكرة وحركة وعلم وعقيدة مقتدياً برسول الله ﷺ، وأنه حرب على الجهل، والانحراف والبدع والمبتدعين..

هذا غيض من فيض، وهو قليل جداً لرجلٍ عظيم ملأ الدنيا شجاعة وإرادة، وديناً وإخلاصاً، وحديثاً وفقهاً..

وليت الناس جميعاً يتوجهون بعقولهم وأفكارهم إلى عظماء المسلمين، من علمائهم وأتقيائهم، وصالح أمرائهم، ليذكّروا بالقدوة الصالحة، التي بها يصلح أمر الناس ودينهم، حتى يحيوا بأنفسهم سيرة السلف؛ وسيرة السلف خير ما به صلاح الدنيا والآخرة..

د.طارق محمد السويدان



الكتاب	المؤلف
الإمام أحمد بن حنبل	محمد أبو زهرة
أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	عبد الغني الدقر
الإمام أحمد بن حنبل	مصطفى الشكعة
البداية والنهاية	ابن كثير
تاريخ المذاهب الإسلامية	محمد أبو زهرة
مناقب الإمام أحمد	أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
تهذيب سير أعلام النبلاء	محمد بن حسين بن عقيل بن موسى
أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا	أحمد عبد الجواد الدومي
تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة	صالح بن عبد العزيز آل عثيمين البردي
الأتقياء الأخفياء	سعيد عبد العظيم
المذاهب الفقهية	د. محمد فوزي فيض الله



الإبداع الفكري